المؤمن الصادق

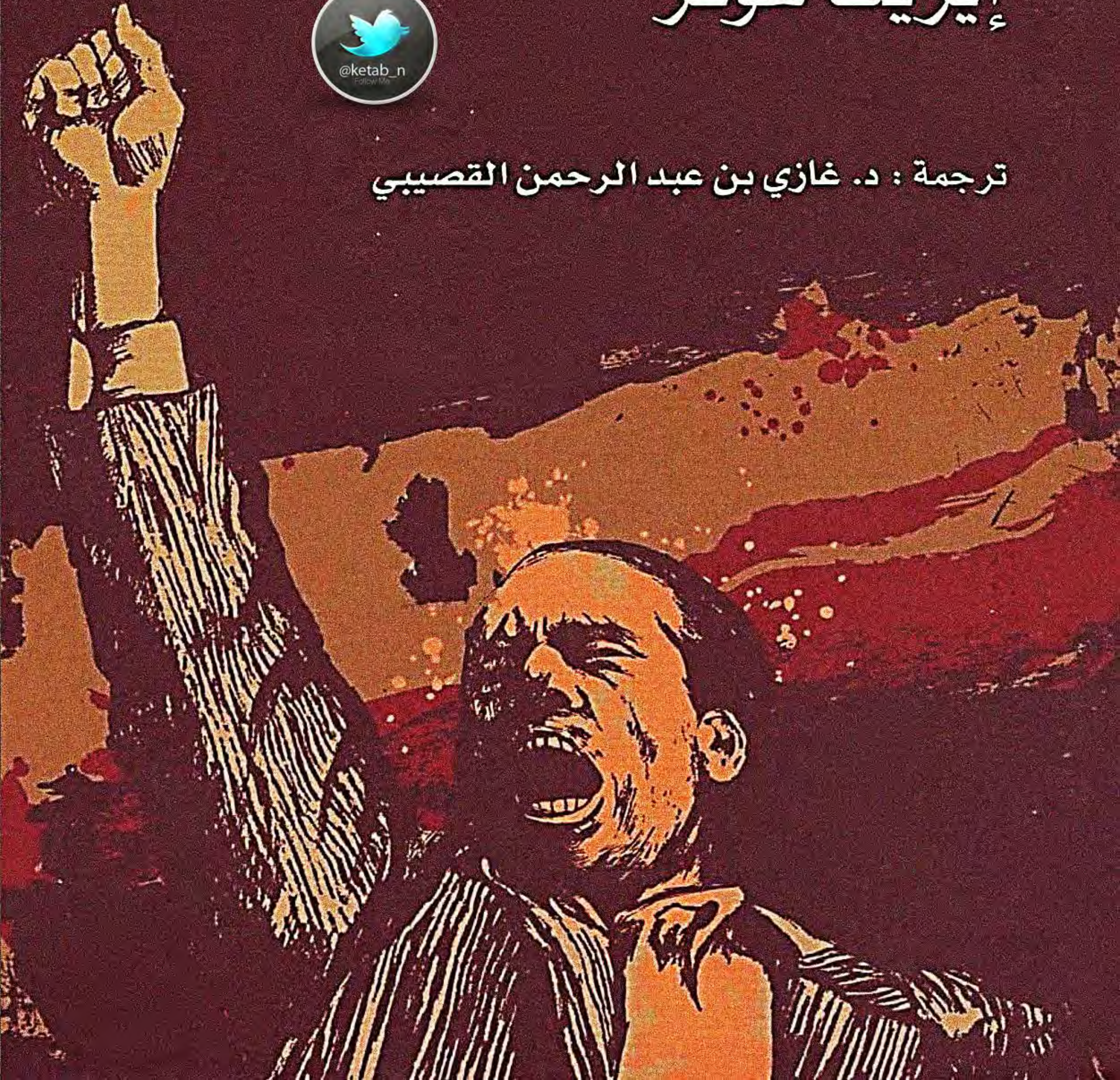
أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية

ketab.me
Best Books

إيريك هوفر

@ketab_n
Follow Me

ترجمة : د. غازي بن عبد الرحمن القصيبي





نبذة عن المترجم:

د. غازي بن عبدالرحمن القصيبي

من مواليد عام 1940م في الأحساء المملكة العربية السعودية. حاصل على ليسانس حقوق من جامعة القاهرة، وماجستير العلاقات الدولية من جامعة جنوب كاليفورنيا، ودكتوراه العلاقات الدولية من جامعة لندن.

تولى مناصب عديدة في المملكة العربية السعودية منها:

- 1982 - 1984 وزيراً للصحة.
- 1984 - 1992 سفيراً للمملكة العربية السعودية في البحرين.
- 1992 - 2002 سفيراً للمملكة العربية السعودية في بريطانيا.
- 2002/9/15 - 2003/5/2 وزيراً للمياه.
- 2003/5/3 - 2004/4/12 وزيراً للمياه والكهرباء.
- من 2004/4/13 وزيراً للعمل حتى الآن.

نبذة عن المؤلف:

إيريك هوفر (1902 - 1983): كان عصامياً علّم نفسه بنفسه، عمل في المزارع ثم منقباً عن الذهب.

وبعد الهجوم على بيرل هاربر عمل على أرصفة الشحن والتفريغ في سان فرانسيسكو مدة ربع قرن. كتب أكثر من عشرة كتب منها:

- أهواء العقل: The Passionate State of Mind
- أزمة التغيير: The Ordeal of Change
- مزاج زماننا: The Temper of out Time.

المؤمن الصادق

أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية

إيريك هوفر

ترجمة:

د. غازي بن عبدالرحمن القصيبي

كلمة KALIMA

العبيكان Obeikan Research & Development

الانتشار العربي

facebook.com/ketabme

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

المؤمن الصادق: أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية
إيريك هوفر

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

HM716.H6312 2002
Hoffer, Eric.

المؤمن الصادق: أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية/ تأليف: إيريك هوفر؛ ترجمة: غازي بن عبد الرحمن القصيبي. - ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.

242ص: 17 x 24 سم.

تدمك: 978-9948-01-667-0

ترجمة كتاب: **The True Believer: Thoughts on the Nature of Mass Movements**

1 - علم النفس الاجتماعي. 2 - الجماعات الاجتماعية.

3 - الجماعات الاجتماعية - الجوانب النفسية. أ- قصيبي، غازي بن عبد الرحمن.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Eric Hoffer

The True Believer: Thoughts on the Nature of Mass Movements

Copyright ©1951 by Eric Hoffer
"Published by arrangement with HarperCollins Publishers"

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: +971 2 6314 468 ،
فاكس: +971 2 6314 462

obeikan@obeikanbookshop.com
www.obeikanbookshop.com

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب
هاتف: 2937574 - 2937581 ، فاكس: 2937588، ص.ب: 67622، الرمز: 11517

الانتشار العربي
arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com

هاتف: 9611 - 659148، فاكس: 9611 - 659150 ص.ب: 113/5752

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

إهداء

إلى مارجريت أندرسون

التي لم يكن بالإمكان كتابة هذا الكتاب لولا يدها التي امتدت عبر القارة؛ لتحفزني.

المؤلف

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

مُحتَويَاتُ الكِتَابِ

الموضوع | الصفحة

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

يود الإنســان أن يكون عظيمًا ويرى أنه صغــير، ويود أن يكون سعيــدًا ويرى أنه شقي، ويود أن يكــون موضع الحب والتقدير من الناس، ويرى أن أخطاءه لا تجلب سوى كراهيتهم واحتقارهم.

إن الحــرج الذي يقع فيه نتيجة هذا التناقض يولد لديه أسوأ النزاعــات الإجراميــة التي يمكن تخيلهــا، ذلك أنه يبــدأ في كره الحقيقة التي تدينه وتريه عيبه.

باسكال*

Penisees

واستخدموا القاذورات سلاحًا لهم.

العهد القديم

Genesis

(*) نبـغ بليز باسكال الفرنســي (1623 - 1662م) منذ صباه في الرياضيات والطبيعة والهندسة، واخترع أول حاسبــة ميكانيكيــة، ثم تحول سنة 1650م، علــى إثر حادث نجا منه، إلى دراســة الدين وكتب عديدًا من المقالات الفلسفية الدينية التي ضمها أشهر مؤلفاته Penisees (المترجم).

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

مقدمة المترجم

أقدمت على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية برغم أنه صدر في منتصف القرن الميلادي المنصرم، وبرغم أنه لم يحظَ بقدر كبير من الانتشار، إلا أني وجدت فيه جوابًا شافيًا عن سؤال شغلني منذ أن بدأت ظاهرة الإرهاب تشغل العالم، وهو: «لماذا يصبح الإرهابي إرهابيًا؟».

رجعت إلى عدد من المصادر، وبحثت الأمر مع عدد من الخبراء، واتضح لي أنه على الرغم من وجود كم هائل من المعلومات عن الإرهاب، تنظيماته وقادته وأساليبه وأدبياته وتمويله، إلا أنه لا توجد كتابات تضيء عقل الإرهابي من الداخل، وتتيح لنا فرصة التعرف على هذا العالم العجيب المخيف.

ثم شاءت المصادفة أن أتعرف على هذا الكتاب (ولا بد هنا من تسجيل الفضل للصديق الدكتور علي بن طلال الجهني الذي أرسله إليّ). فوجئت بأنني عثرت، أخيرًا، على ضالتي، وحيث لم أتوقع: في كتاب لم ترد فيه كلمة الإرهاب، ونشر في زمن لم تكن فيه ظاهرة الإرهاب معروفة.

إلا أن الإرهاب وليد التطرف والكتاب معنيّ بالتطرف: جذوره وبذوره. والمعادلة التي يعرضها المؤلف بسيطة ومقنعة في الوقت ذاته، وهي تبدأ بالعقل المحبط. يرى الإنسان المحبط عيبًا في كل ما حوله ومن حوله، وينسب كل مشكلاته إلى فساد عالمه، ويتوق إلى التخلص من نفسه المحبطة وصهرها في كيان نقي جديد. وهنا يجيء دور الجماعة الثورية الراديكالية التي تستغل ما ينوء به المحبط من مرارة وكراهية وحقد، فتسمعه ما يشتهي أن يسمع، وتتعاطف مع ظلاماته، وتقوده إلى الكيان الجديد الذي طالما حنّ إلى الانصهار فيه. من هذا اللقاء الحاسم بين عقلية الفرد المحبط الضائع وبين عقلية القائد الإجرامي المنظم ينشأ التطرف، ومن التطرف ينبت الإرهاب.

facebook.com/ketabme

إننــي أرجو أن يكون نشر الكتاب باللغــة العربية مقدمة لعملين لا بد منهما: أما أولهمــا، فمتروك للباحثين الذين يجــب أن يعرضوا تحليل المؤلف على واقع الإرهاب المعاصــر وأن يتركوا للدراســات الميدانية الدقيقة أن تصــدّق أو تكذب تحليله (وفي رأيي أنها ستصدّقه!) وأمّا ثانيهما، وهو أهم وأخطر، فيقع على عاتق الدول العربية التــي يجب أن تمتلئ بالفرص، وتزدهر بالأنشطــة، وتبوح بمؤسسات المجتمع المدني النشطة - على نحو يقضي على الإحباط بين الشباب، أو على جزء كبير منه.

بــزوال الإحباط يــزول التطرف، وبــزوال التطرف ينتهي الإرهــاب. هذا -في رأيي- هو الأسلوب الوحيد الناجع لمشكلة تقض مضاجع العالم كله.

غازي بن عبد الرحمن القصيبي

الرياض

1430هـ - 2009م

facebook.com/ketabme

مقدمة المؤلف

يتعامل هذا الكتاب مع خصائص تشترك فيها كل الحركات الجماهيرية، سواء أكانت دينية أم اجتماعية أم قومية. ولا يزعم الكتاب أن هذه الحركات متماثلة، ولكنه يذهب إلى أنها تشترك في صفات رئيسة تخلق بينها نوعًا من الشبه العائلي.

تولّد كل الحركات الجماهيرية في نفوس أتباعها استعدادًا للموت وانحيازًا إلى العمل الجماعي، وجميعها، بصرف النظر عن المذهب الذي تدعو إليه، أو البرنامج الذي تعنيه، تولد التطرّف والحماسة والأمل المتقد والكراهية وعدم التسامح، وجميعها قادرة على تفجير طاقات قوية من الحراك في بعض مناحي الحياة، وجميعها تتطلب من أتباعها الإيمان الأعمى والولاء المطلق.

وجميع هذه الحركات، مهما كانت اختلافاتها المذهبية وأهدافها، تستقطب أتباعها الجدد من النماذج البشرية نفسها، وجميعها تستميل الأنماط والعقول نفسها.

على الرغم من أن هناك فروقًا واضحة بين المسيحيّ المتطرّف، والمسلم المتطرف، والقوميّ المتطرف، والشيوعي المتطرّف، والنازي المتطرّف، إلا أنه يبقى صحيحًا أن التطرّف الذي حرك هؤلاء كلهّم هو تطرفٌ ذو طبيعة واحدة. وتصدق هذه الملاحظة على القوة التي تدفعهم إلى التوسع ومحاولة السيطرة على العالم. هناك درجة من التماثل بين هذه الجماعات تتجلّى في إخلاصها للحركة، وفي إيمانها، وفي سعيها إلى السلطة، وفي وحدتها، وفي استعدادها للتضحية بالنفس. وعندما اكتشف باسكال الأسباب التي أدت إلى نجاح العقيدة المسيحية، فإنه في الوقت نفسه، وضع يده على الأسباب التي تؤدي إلى نجاح العقائد الشيوعية والنازية والقومية.

مهما كانت القضايا المقدمة التي يموت الناس من أجلها، فإنهم، على الأرجح، يموتون للسبب نفسه.

facebook.com/ketabme

يقصر هذا الكتاب اهتمامه،أساسًا، على المرحلة النشطة الدعوية إلى الحركة الجماهيرية. وتتميز هذه المرحلة، أساسًا، بسيطرة المؤمن الصادق -الرجل ذي الإيمان المتطرّف المستعد للتضحية بنفسه في سبيل القضية المقدّسة- ويحاول الكتاب تحليل البذور والجذور التي تغذي طبيعة هذا الرجل. ويستعين الكتاب في تحليله بفرضية محددّة. انطلاقًا من الحقيقة التي تقول: إن المحبطين[1] يشكلون غالبية الأتباع الجدد في كل الحركات الجماهيرية، وإنهم ينضمّون إليها بإرادتهم الحرة، يفترض الكتاب:

أولاً: إن الإحباط في حد ذاته، ومن دون دعوة أو محاولة للاستقطاب من الخارج، يكفي لتوليد معظم خصائص المؤمن الصادق.

ثانيًا: إن الأسلوب الفاعل في استقطاب الأتباع للحركة يعتمد أساسًا على تشجيع النزاعات والاتجاهات التي تملأ عقل المحبط.

ولكي نمتحن صحة هذه الفرضية كان لابدّ من تحليل العلل التي تصيب المحبطين، وردود فعلهم إزاءها، والدرجة التي تتطابق فيها ردود الفعل هذه مع ردود فعل «المؤمن الصادق»، وأخيرًا، الوسيلة التي تستهل ردود الفعل هذه عبرها قيام الحركة الجماهيرية وانتشارها.

كما كان من الضروري فحص أساليب الحركات المعاصرة التي طوّرت أساليب ناجعة للتبشير بمبادئها واستخدمتها بفاعلية؛ لنرى إذا كان يمكن القول، حقًا: إن الحركات الجماهيرية في مرحلتها الدعوية تعمل على إيجاد عقل جماعي محبط، وإنها بالفعل، تحقق أهدافها عندما تجعلها متفقة مع نزعات المحبطين.

(1) لا تستخدم كلمة «المحبط» في هذا الكتاب بوصفها تشخيصًا طبيًّا إكلينيكيًّا، وإنما يقصد بها الناس الذين يشعرون، لسبب أو لآخر، أن حياتهم ميؤوس منها، وضاعت هباءً.

facebook.com/ketabme

من الضروري لمعظمنا هذه الأيام (*) أن يملك نظرة نفاذة في دوافع «المؤمن الصادق» وردود فعله: برغم أننا لا نعيش في عصر الإيمان إلا أن هذا لا ينفي وجود ضرب من التدين تمثله ظاهرة «المؤمن الصادق». إن «المؤمنين الصادقين» يزحفون في كل مكان، ويحاولون عن طريق الإقناع أو العنف، صياغة العالم على شاكلتهم. سواء كنا ننوي الوقوف مع «المؤمن الصادق» أو ضده، فمن الضروري أن نعرف كل ما يمكن أن نعرفه عن طبيعته وما يستطيع أن يفعله.

ولعلّه من نافلة القول إضافة كلمة تحذيرية، عندما نتحدث عن شبه عائليٍّ بين الحركات الجماهيرية فنحن نعني «العائلة» بمعنى واسع جدًا. إن ثمار الطماطم وثماراً أخرى سامة شبيهة بها تنتمي إلى «العائلة» نفسها، برغم أن الأولى طعام مغذٍّ والثانية سم قاتل. ومع ذلك فالشبه بين ثمار الطماطم والثمار السامة، من النواحي العضوية والتشريحية والشكلية، يجعل خبير النباتات، وحتى المراقب العادي، يصنفها ضمن «العائلة» نفسها. وافتراضنا أن الحركات الجماهيرية كلها تحتوي على خصائص مشتركة، لا يعني بأي حال من الأحوال، أن هذه الحركات متشابهة في الخير والشرّ. لا يصدر هذا الكتاب أحكامًا ولا ينحاز إلى مهنة. كل ما يحاول الكتاب فعله هو أن يشرح، والشروح المقدمة هنا تجيء في شكل نظريات، ولكنها لا تعدو أن تكون مجرد اقتراحات وآراء، حتى عندما تصاغ على نحو قاطع، ولعل بوسعي أن أكرر هنا ما قاله مونتين(*) وكل ما أقوله هنا هو من قبيل النقاش، لا النصح. وما كنت لأتكلم بهذه الجرأة لو كنت متأكدًا أن كلامي سيؤخذ على «علاّته».

(*) من المهم أن يذكّر القارئ، هنا، وخلال الكتاب كله أن المؤلف نشر كتابه سنة 1951م، والحديث عن هذه الأيام، في هذه المدة يشير إلى تلك المرحلة (المترجم).

(*) كان مايكل دي مونتين (1533-1592م) من أهم الكتاب الفرنسيين في عصره واشتهر بقدرته على صياغة أفكار معقدة في مقالات سهلة مفهومة (المترجم).

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

القسم الأول

جاذبية الحركات الجماهيرية

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل الأول

الرغبة في التغيير

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

1

من البدهيّ أن كثيرًا من الذين ينضمّون إلى حركة ثورية صاعدة يتطلعون إلى تغيير مفاجئ كبير في أوضاعهم المعيشية.

إن الحركات الثورية، بعبارة أخرى هي أداة واضحة من أدوات التغيير.

إلا أنه من الصحيح أيضًا، وإن لم يكن من البدهيّ أن الحركات الدينية والقومية يمكن أن تكون، هي الأخرى، وسائل للتغيير.

من الواضح أن نوعًا من الحماسة والانفعال ضروري لتحقيق أي تغيير كبير وسريع. ويستوي أن تجيء هذه الحماسة من توقع ثروات هائلة، أو من الانخراط في حركة جماهيرية. في الولايات المتحدة كانت التغييرات المثيرة منذ الحرب الأهلية تتمّ في جو مشبع بحماسة أوجدتها الفرص المتاحة للفرد لتحسين وضعه. عندما تتقدم فرص تطوير الذات، أو لا يسمح لها بالعمل كقوة محفزة، يصبح من الضروري إيجاد مصادر بديلة للحماسة إذا كنا بصدد تغييرات أساسية، مثل إيقاظ مجتمع نائم وتطويره، أو إدخال إصلاحات جذرية على طبيعة مجتمع ما وأنماط حياته، وإبقاء هذه المصادة حيّة نشطة. ومن هنا يمكن النظر إلى كل من الحركات الدينية والثورية والقومية بوصفها معامل لتوليد هذه الحماسة العامة.

كانت الحركات الدينية في الماضي وسائل واضحة للتغيير. وما يميز دينًا ما من محافظة إنما يجيء بعد جمود القوى الحيوية التي واكبت ولادته. كانت الحركات الدينية الصاعدة تدعو إلى التغيير الشامل، وإلى التجريب، وكانت منفتحة على آراء وأساليب من كل اتجاه. كان الإسلام عند ظهوره حركة تنظيمية وتحديثية. وشكلت المسيحية تغييرًا حضاريًا وتحديثيًا بين قبائل أوروبا البدائية. كانت الحروب

facebook.com/ketabme

الصليبيـة ثم حركة الإصلاح البروتستانيـة(*) عوامل رئيسة في هذا العالم الغربي بعد جمود القرون الوسطى.

أمّا في العصور الحديثة، فقد كانت الحركات الجماهيرية التي استهدفت إحداث تغيير واسع شامل حركات ثورية وقوميـة، أو حركات تشترك في هاتين الصفتين. كان قيصر روسيا بيتر الكبير(**) لا يختلف في إخلاصه للمبدأ وقوته وقسوته عن كثير من الزعماء الثوريين والقوميين، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه الرئيس، وهو تحويل روسيا إلى دولة غربية، كان سبب فشله أنه لم يستطع أن يبث في الجماهير الروسية الحماسة التي تمتلك الوجدان، إما لعجزه عن القيام بذلك أو لاعتقاده بعدم أهمية هذا العمل. في ضوء ذلك لا نستغرب إذا وجدنا أن الثوار البلاشفة الذين قضوا على آخر قيصر من أسرة رومانوف(***) كانوا يشعرون بشيء من الألفة مع بيتر، برغم انتمائه إلى الأسرة المالكة نفسها. وليس من المستبعد أن ينظر التاريخ إلى الثورة البلشفية بوصفها محاولة لتحديث سدس مساحة العالم بقدر ما كانت محاولة لبناء اقتصاد شيوعي.

لقد تحولت الثورتان الفرنسية والروسية إلى حركتين قوميتين، وهذه الحقيقة تدلّ على أن القومية، في العصور الحديثة، أصبحت المصدر الأول لتوليد الحماسة الجماهيرية، كما تدل على أنه لا بد من استثمار الفوران القومي إذا أريد للتغييرات

(*) بدأت حركة الإصلاح الديني، التي عرفت فيما بعد بالبروتستانية، سنة 1517م على يد الأستاذ الجامعي والقسّ الألماني مارتن لوثر (1483 – 1546م) وانتقدت الحركة كثيرًا من ممارسات الكنيسة الكاثوليكية، مثل صكوك الغفران، وتقديس مريم العذراء، والاعتقاد بشفاعة القديسين عند الله، وكانت هناك حركات مماثلة في عدد من الدول الأوروبية، انتهت بنشوء عدة مذاهب بأسماء مختلفة تنضوي جميعها تحت راية البروتستانية (المترجم).

(**) يعدّ بيتر الكبير (1672 – 1725م) أعظم القياصرة الروس، وقد حكم روسيا سنة 1682م حتى وفاته، وفي عهده تحولت روسيا إلى أمبراطورية وقوة أوروبية رئيسة (المترجم).

(***) العائلة القيصرية المالكة التي حكمت روسيا من سنة 1613م إلى سنة 1917م (المترجم).

facebook.com/ketabme

الجذرية التي استهدفتها الثورة أن تتحقق.

ومن هنا للمرء أن يتساءل عما إذا كانت الصعوبات التي تواجهها الحكومة العمالية البريطانية الراهنة مرجعها أنها أرادت تغيير الاقتصاد وأسلوب الحياة لقرابة 49 مليون مواطن في جو خالٍ من الانفعال والحماسة. شعر زعماء حزب العمال بالتقزز من الأساليب التي لجأت إليها الحركات الجماهيرية المعاصرة، ولهذا أبقوا حزبهم بعيدًا عن الحماسة الثورية، إلا أن الاحتمال ما زال قائمًا في أنهم سيلجؤون إلى إثارة التطرف القومي، بحيث «تصبح الاشتراكية قومية، والقومية اشتراكية»[1].

إن نجاح اليابان الأسطوري في التحوّل إلى دولة حديثة لم يكن ليتحقق لولا روح الصحوة في القومية اليابانية. كما أنه من الصحيح «على الأرجح» أن التحديث الذي طال بعض الدول الأوروبية، وعلى الأخص ألمانيا، تسارع بسبب شيوع الغليان القومي. ولنا، بمتابعة الإرهاصات المعاصرة، أن نتوقع أن نهضة آسيا لن تتحقق إلا عبر الحركات القومية. في تركيا كان تصاعد حركة قومية تركية حقيقية سبب نجاح كمال أتاتورك في تحديث الدولة بين عشية وضحاها[*] أما في مصر، التي لم تعرف حركات جماهيرية، فقد كان التحديث بطيئًا ومتقطّعًا برغم أن حكّامها رحبوا، منذ عهد محمد علي بالأفكار الغربية، وعلى الرغم من أن صلاتها بالغرب كانت وثيقة ومتنوّعة. والصهيونية تقدم نفسها لأتباعها على أنها تطوير لدولة متخلفة سيحوّل

(1) E. H. Carr, Nationalism And After, (New York: Mac Millan Company, 1945), P.20.

(*) بدأ مصطفى كمال أتاتورك (1881 - 1938م) حياته العملية ضابطًا في الجيش العثماني، وأبدى كفاءة عالية قادته إلى انتصارات عسكرية، أهمها انتصاره على جيش الحلفاء في أعقاب الحرب العالمية الأولى في سنة 1923م أعلن إلغاء الخلافة وأصبح أول رئيس للجمهورية التركية وخلال مدة حكمه تخلص من كل التقاليد العثمانية وحول تركيا إلى علمانية على النسق الأوروبي (المترجم).

facebook.com/ketabme

أصحاب الدكاكين الصغيرة إلى زراع وعمال وجنود. ولو استطاع تشانج كاي شيك(**) أن يبدأ حركة جماهيرية فعلية، أو على الأقل، لو تمكن من الحفاظ على الحماسة القومية التي أشعلها الغزو الياباني، لكان الآن الشخص الذي يطوّر الصين.

إلا أن فشله هذا هو الذي مكَّن عباقرة «القدسنة» أي تحويل أي أهداف عملية إلى قضية مقدّسة، من تنحيته جانبًا. وليس من الصعب أن نفهم لماذا كان من المتعذر على أمريكا وبريطانيا (أو أي ديمقراطية غربية) أن تقوم بدور بارز في إيقاظ الأمم الآسيوية من تخلفها وجمودها: الديمقراطيات الغربية لا تريد ولا تستطيع لو أرادت إشعال الصحوة القومية بين ملايين آسيا. إن إسهام الديمقراطيات الغربية في يقظة الشرق كانت غير مباشرة وغير مقصودة: لقد أثارت النقمة ضد الغرب، وهذه النقمة هي التي تحرّك الشرق الآن، بعد قرون من الجمود.

على الرغم من أن الرغبة في التغيير قد لا تكون عميقة وقويّة، من المفيد أن نحلّل هذه الرغبة عسى أن تلقي بعض الضوء على الطريقة التي تعمل بها الحركات الجماهيرية، ومن هنا فسوف يكون سؤالنا اللاحق عن طبيعة الرغبة في التغيير.

2

تكمن فينا جميعًا نزعة إلى البحث، خارج أنفسنا، عن العوامل التي تصوغ حياتنا، يرتبط النجاح أو الفشل، عادة في أذهاننا بما يدور حولنا. وهكذا ترى أن الأشخاص الراضين عن أنفسهم يعدّون هذا العالم طيّبًا ويحاولون المحافظة عليه،

(**) رأس تشانج كاي شيك (1887م - 1975م) المجلس العسكري في جمهورية الصين الوطنية، وعند وفاة الزعيم الصيني سن. يات. سن تولّى الزعامة وقاد المقاومة ضد الغزاة اليابانيين، إلا أنه خسر الحرب الأهلية التي اندلعت مع الشيوعيين سنة 1945م، واضطر إلى اللجوء إلى جزيرة تايوان، حيث أقام حكومة منفى. (المترجم).

facebook.com/ketabme

بينما نجد المحبطين يفضلون التغيير الجذري.

إن النزعة إلى البحث عن أسباب خارج أنفسنا تستمر، حتى عندما يكون من الواضح أن وضعنا هو نتيجة عوامل داخلية، كقدرتنا أو شخصيتنا أو مظهرنا أو صحتنا، وهلمّ جرّا. يقول ثورو(*): عندما يشكو المرء شيئًا يحول بينه وبين القيام بواجباته، حتّى عندما يجد ألمًا في أمعائه... فإنه يبادر إلى محاولة لإصلاح العالم(1).

من المفهوم أن الفاشلين ينزعون إلى تحميل العالم جريرة فشلهم. إلا أنه من العجيب أن الناجحين، بدورهم، مهما كان اعتزازهم بحصافتهم وخبرتهم وتوفيرهم، وبقية هذه الخصال الحميدة، يؤمنون، في قرارة أنفسهم، أن نجاحهم جاء نتيجة المصادفات والحظ السعيد. إن ثقة أكثر الناس نجاحًا في أنفسهم ثقة ناقصة؛ لأنهم ليسوا متأكدين من أنهم يعرفون كل العوامل التي كانت وراء نجاحهم.

يبدو العالم الخارجي، من وجهة نظر هؤلاء، آلة تدور على نحو يستحيل ضبطه أو توقّعه، وما دامت هذه الآلة تدور في صالحهم فإنهم يتجنبون العبث بها. وهكذا نرى أن الرغبة في التغيير والرغبة في مقاومة التغيير تنبعان من المصدر نفسه: الإيمان بتأثير العوامل الخارجية.

3

إن عدم الرضا، في حد ذاته، لا يخلق بالضرورة رغبة في التغيير: لا بدّ من

(*) كان هنري ديفيد ثورو (1817 – 1862م) كاتبًا وفيلسوفًا أمريكيا، وكانت مقالاته عن البيئة وحمايتها رائدة في بابها ومهدت الطريق للاهتمام المعاصر بالبيئة (المترجم).

(1) Henry David Thoreu, Walden, Modern Library Edition (New York: Random House, 1937) , P. 69.

facebook.com/ketabme

وجـود عوامل أخرى قبل أن يتحـول عدم الرضا إلى تذمّر، وأحـد هذه العوامل هو الإحساس بالقوّة.

إن الذيـن يخافون محيطهم لا يفكرون في التغيير مهما كان وضعهم بائسًا. عندما يكـون نمط حياتنا مضطربًـا واهيًا إلى درجة تمنعنا من التحكـم في ظروفنا المعيشية، فسبيلنـا الاحتماء بمـا هو مألوف. إننا نقاوم شعورنا بالخـوف بإخضاع وجودنا لروتين ثابـت، ونوهم أنفسنـا أننا نستطيـع، بهذه الوسيلـة، تجنّب أي مفاجـآت. وهكذا نجد الصياديـن والبـدو الرحل والمزارعين الذيـن يعتمدون على تقلبـات الطقس، والفنانين الذيـن ينتظـرون الإلهـام، والرجـل البدائي الـذي يخشى محيطـه، يخافـون التغيير ويواجهون العالم، كما يواجهون قضاة يتحكمون في مصيرهم.

كمـا أن الفقراء فقرًا مدقعًـا يرهبون محيطهم، ولا تراودهم رغبة في التغيير. تبـدو الحياة خطرة عندما يتهددنـا الجوع والبرد. من هنا نجد عند الفقراء نزعة محافظة بعمـق النزعة المحافظة عند الأغنياء، وهـذه النزعة لدى الطرفين عامل مهم في إبقاء الأوضاع القائمة.

إن الأشخاص الذين يندفعـون لإحداث تغييرات واسعة يشعـرون عادة، أنهم يمتلكـون قـوة لا تقهر، كان الجيل الـذي صنع الثورة الفرنسية يؤمـن إيمانًا قاطعًا بقوة العقل البشري الخارقة، وبالآفاق غير المحدودة المفتوحة أمام الذكاء البشري. يقول دي توكوفيل(*) عن هذه الحقبة: إن الإنسانية لم تشعر قبلها قطّ بهذا الاعتزاز بنفسهـا وهذه الثقـة بقوتها. وجنبًا إلى جنـب مع هذه الثقة المفرطـة بالنفس كان هنـاك ظمأ عالمي إلى التغيـير سكن كل العقول بسهولة[1] ومـن ناحية أخرى، كان

(*) كان أليكسـي دي توكوفيـل (1805 - 1859م) مفكـرًا سياسيًـا ومؤرخـًا فرنسيًـا، اشتهر بكتاباتـه العميقة عن الديمقراطية الأمريكية والثورة الفرنسية (المترجم).

(1) ALEXIS de Tocqueville, On the State of Society In Franch Before the Revolution of 1789 (London: John Murray, 1888), PP. 198- 199.

facebook.com/ketabme

لـدى لينين[*] والبلاشفــة الذين انطلقوا بلا حذر يخلقــون الفوضى التي تستهدف إيجاد عالم جديد إيمان أعمى بقوة المذهب الماركسي. أمَّا النازيون فلم يكن لديهم مذهب يماثل المذهب الماركسي قوة، ولكنهم آمنوا بقائد معصوم يقودهم إلى حياة جديـدة. من المشكـوك فيه أن تحقق النازية ما حققته من نجــاح لولا الاعتقاد بأن الخطـط العسكرية المبتكرة التي اتبعتها ألمانيا والدعاية الفاعلة جعلت ألمانيا قوة لا تقهر.

حتى الرغبة الواعية في التطور لا بد أن تكون مدعومة بالإيمان، الإيمان بطيبة الطبيعة البشرية والإيمان بقوة العلم المطلقة. وهذا النوع من الإيمان فيه شيء من التحــدي وشيء من الهرطقة، شأنــه شأن إيمان الذين يقول عنهــم العهد القديم: «بنــوا مدينــة وصرحًا يصل إلى السماء، وتصوروا أنــه لا شيء مما حلموا به يمكن أن يستعصي عليهم»[1].

4

قــد يبــدو، للوهلــة الأولى أن امتلاك القوة سيــؤدي، في حد ذاتــه، إلى موقف يتحــدّى العــالم ويتطلع إلى التغيــير، إلاّ أن الأمــور لا تسير، بالضــرورة، على هذا النحــو. قد يكــون القويّ وديعًا ووداعــة الضعيف. ما يهم ليس امتــلاك القوة، ولكن الإيمــان المطلق بالمستقبل. عندما يغيب هذا الإيمــان تصبح القوة داعمة للأوضاع القائمــة ومناهضــة للتغيير. وعلى العكــس، عندما يكون هناك أمــل لا حدود له في المستقبــل فإن الأمــل، حتى عندما يفتقــر إلى القوة، يمكن أن يقــود إلى مغامرات

(*) كان فلاديمير لينين (1870- 1924م) زعيمًا شيوعيًا بارزًا، قاد ثورة أكتوبر 1919م في روسيا وأصبح أول رئيس للدولــة الثوريــة في سنة 1922م، وتُعـرف نظرياته التي أسهمت في إثــراء النظرية الماركسيــة باسم «اللينينية» (المترجم).

(1) Genesis ll: 4, 6.

facebook.com/ketabme

يائســة. سبب ذلك أن المشحونــين بالأمل يستمدون القوة مــن أغرب المصادر، من شعــار أو كلمــة. إن الأمل الفاعل المحــرك لا بّد أن يكون أمــلًا في المستقبل. وهكذا نجد أن المذهب الفاعل، بالإضافة إلى كونه مصدرًا للقوة، لا بدّ أن يدّعي أنه يملك مفاتيح المستقبل.

إن الذيــن يحاولــون تغيير أمة ما أو تغيير العــالم لا يستطيعون تحقيق هدفهم بتوليــد التذمــر واستثمــاره، أو بإثبــات أهمية التغيــيرات المنشــودة وضرورتها، أو بإجبــار النــاس علــى تغيير أسلــوب حياتهم. علــى الراغبين في التغيــير أن يوقدوا الآمال الجامحة، وليس من المهم أن ترتبط هذه الآمال بجنة سماوية، أو بجنة على الأرض، أو أن تنصبّ على نهب ثروات هائلة من دول أخرى، أو على السيطرة على العــالم. إذا نجــح الشيوعيون في الفــوز بأوروبا وبجزء كبير من العــالم، فلن يكون هذا لأنهم استطاعوا إشاعة التذمر والكراهية، ولكن لأنهم عرفوا كيف يشعلون في النفوس الآمال الجامحة.

5

إن الفــارق بين المحافظين والراديكاليين هو في الأساس فارق بين مواقفهم من المستقبل، يدفعنا الخوف من المستقبل إلى أن نتمسك بالحاضر، بينما يجعلنا الأمل في المستقبــل متحمسين للتغيير. كل من الغني والفقير، والقوي والضعيف، والناجح والفاشــل، قد يكون خائفًــا من المستقبل. عندمــا يبدو الحاضــر في أعيننا مثاليًا، بحيث إن أقصى ما يمكن أن نتوقعه هو استمراره في المستقبل، فإن التغيير بالنسبة لنــا لا يعنــي سوى تدهــور الوضع. ولهذا نجد رجــالًا حققوا الكثير مــن المنجزات، ورجــالًا يعيشون حياة مليئة نشطة يقفون، عادة، ضــد أي تغيير جذري. والمحافظة التــي تميز المرضــى المقعدين وكبار الســن تنبع بدورها من الخوف مــن المستقبل. يخشى هــؤلاء أن يأتي المستقبل ومعه المزيد من علامات الضعف والوهن ويشعرون

facebook.com/ketabme

أن أي تغيير سوف يكون إلى الأسوأ. كما أن الفقراء فقرًا مدقعًا لا يشعرون بأى أمل في المستقبل الذي يبدو كما لو كان فخًّا منصوبًا أمامهم عليهم أن يتحاشوه. عند هؤلاء كلهم لا يعني التغيير سوى المتاعب.

إلا أن الصورة تختلف تمامًا عندما يدخلها الأمل. لا تهمّ طبيعة الشخص الذي يحركه الأمل الجامح، قد يكون مثقفًا متحمّسًا، أو مزارعًا يتوق إلى المزيد من الأرض، أو نبيلًا أرستقراطيًا، أو تاجرًا أو صانعًا أو عاملًا بسيطًا. كل هؤلاء يتحدون الحاضر، ويدمرونه عند الضرورة، ويخلقون العالم الجديد الذي يمكن أن يحقق آمالهم. وهكذا نجد أنه يمكن أن تكون هناك ثورات يقودها أغنياء، بالإضافة إلى ثورات يقودها فقراء بدأت في بريطانيا في القرنين السادس والسابع عشر ثورة مُلاك[*] وكانت تستهدف تعزيز الملكيات الفردية وقصرها على ملاكها بدلًا من بقاء جزء منها مشاعًا كما كان عليه الوضع. نتيجة هذه الحركة أصبحت صناعة الصوف طريقًا إلى الرخاء، بينما أصبح الرعي أكثر جدوى من زرع المحاصيل. عندما قام الملّاك بطرد المزارعين العاملين لديهم، وأغلقوا أراضيهم في وجوه العامة، أحدثوا تغييرات عميقة في نسيج البلاد الاقتصادي والاجتماعي. «كان اللوردات والنبلاء يهدمون النظام الاجتماعي القائم، ويزيلون قوانين وأعرافًا قديمة بالعنف حينًا، وبالضغط والتهديد أحيانًا[1] كما قامت في إنجلترا ثورة أغنياء ثانية مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهي

(*) أدت هذه «الثورة» إلى تشريد مئات الآلاف من الفلاحين وحرمانهم مصدر دخلهم الوحيد، كما أدت إلى ارتقاء الملاك الزراعيين قمة الهرم الاقتصادي والسياسي، وبقيت آثارها مدة طويلة: في أواخر القرن التاسع عشر كان قرابة ألفي شخص يملكون نصف الأراضي الزراعية في إنجلترا وويلز (المترجم).

(1) Karl Polanyi, The Great Transformation (Ney York: Farrar And Rinc Hart, INC, 1944), P.35.

facebook.com/ketabme

الثورة الصناعية(*). ألهبت الاحتمالات المثيرة الجديدة التي تكشفت عنها الميكنة عقول الصناع والتجار، فقادوا ثورة لا تختلف في مداها وعنفها عن أي ثورة دينية. استطاع هؤلاء المواطنون الأغنياء خلال مدة قصيرة نسبيًا تغيير وجه الحياة في بريطانيا تغييرًا كاملًا.

عندما تصطرع الآمال والأحلام الصاخبة في الشوارع، فعلى المواطنين المسالمين أن يدخلوا بيوتهم ويغلقوا أبوابهم ونوافذهم، حتى تنتهي الفورة. هناك فرق شاسع بين الآمال التي تبدو رقيقة نبيلة وبين الأفعال الفظيعة التي تتبعها. تخطر الآمال كفتيات رائعات الجمال يرقصن ويغنين إلا أنه سرعان ما يتبعهن جيش رهيب يحمل الموت والخراب.

6

لا بُدّ لكي يندفع الرجال في مغامرة تستهدف تغييرًا شاملًا من توفر عدة شروط. لا بد أن يشعروا بالتذمّر من غير أن يكونوا فقراء فقرًا مدقعًا. ويجب أن يكون لديهم الشعور بأنهم عبر اعتناق العقيدة الصحيحة أو اتباع الزعيم الملهم، أو اعتناق أساليب جديدة في العمل الثوري، سيصبحون قوة لا تقهر. بالإضافة إلى ذلك كله، يجب أن تكون لديهم تطلعات جامحة إلى المنجزات التي ستجيء مع المستقبل. وفي النهاية، يجب أن يكونوا جاهلين جهلًا تامًا العقبات التي ستعترض طريقهم. لم يكن لدى الرجال الذين أشعلوا الثورة الفرنسية أي قدر من الخبرة السياسية. والشيء نفسه يصدق على البلاشفة والنازيين والثوار في آسيا. أما الرجال المجربون ذوو الخبرة فيأتي دورهم في مرحلة لاحقة: لا ينضم هؤلاء إلى الحركة إلا بعد التحقق من نجاحها. ولعل خبرة المواطنين الإنجليز السياسية هي التي تجعلهم بمنأى عن الحركات الثورية.

(*) بدأت الثورة الصناعية بميكنة صناعة النسيج، ثم انتقلت إلى صناعة الحديد، وقادت إلى التوسع في استخدام الطاقة البخارية وانتقلت من إنجلترا إلى بقية أنحاء العالم الغربي، ثم إلى بقية أنحاء العالم، حيث اتخذت اسم «التصنيع» (المترجم).

facebook.com/ketabme

الفصل الثاني

الرغبة في بدائل

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

7

هنـاك فارق أساسـي بين جاذبية الحـركات الجماهيريـة وجاذبية المنظمات العملية (كالأحزاب السياسية التقليدية والنقابات وتجمعات المهن الحرة).

تقـدم المنظمـة العملية لأعضـائها فرصًـا لتطوير الـذات، وتكمـن جاذبيتها في تحقيق المصـلحة الذاتية لأعضـائها. وعلى النقيض من ذلـك، نرى أن الحركة الجماهيريـة، خاصـة في مرحلتها الأولى النشـطة، لا تجذب أولئـك الذين يحبون أنفسـهم، ويحرصـون على تطويرها، بل تسـتميل أولئك الذين يودون أن يتخلصوا من أنفسـهم نهائيًا. تسـتطيع الحركة الجماهيرية أن تجذب أتباعًا وتحتفظ بهم، لا لأنهـا تلبي الحاجـة إلى تطوير الذات، ولكن لأنها تلبي الشـوق إلى الخلاص من الذات.

يصـعب على الذين يعتقـدون أن حياتهم فسـدت تمامًا أن يسـتهويهم تطوير أنفسـهم: مهما كان احتمال حصـولهم على فرص أفضل، فإن هذا لا يحفزهم إلى بذل جهود خارقة، ولا يدفعهم إلى الولاء الأعمى. يعدّ هؤلاء المصلحة الفردية شيئًا مشبوهًا شريرًا، لا يتسم بالنزاهة، ولا يمكن أن يجلب الحظ. وكل ما يبذل لتطوير الذات يبدو في نظر هؤلاء عملًا محكومًا عليه بالفشـل: لا شـيء ينطلق من النفس (التـي يكرهونهـا) يمكن أن يكون جيـدًا ونبيلًا. إن شـوقهم العميق ينصـب على حيـاة جديدة، وميلاد جديد، وثقة جديدة، أو علـى الأقل أمل جديد، ومعنى جديد لقيم الحياة، وهذا كله لا يتحقق إلا بالانتماء إلى قضـية مقدّسـة. إذا انضم هؤلاء الأعضاء إلى الحركة مؤمنين بها فإنهم سيولدون ولادة جديدة في مجتمعنا الجديد المترابط. حتى عندما يكتفون بالتعاطف مع الحركة، فإن التماهي مع جهود الحركة ومنجزاتها ومستقبلها يمنحهم الشعور بالكرامة والثقة.

إن المحبطـين يجـدون في الحركة الجماهيرية بدائل: إما لأنفسـهم بأكملها أو

facebook.com/ketabme

لبعض مكوناتها، الأمر الذي لا يستطيعون تحقيقه بإمكانياتهم الفردية.

قد نجد بين الأتباع الذين يبادرون إلى الانضمام إلى حركة جماهيرية عددًا من المغامرين الطامعين في تحسين أوضاعهم والحصول على الشهرة أو القوة. وفي الوقت نفسه، قد نجد درجة من الإخلاص الذي ينكر الذات والولاء الأعم عند بعض الذين يلتحقون بالشركات والأحزاب السياسية التقليدية وبقية المنظمات العملية. إلا أن الحقيقة هي أن المنظمة العملية لا تستطيع البقاء ما لم تلبِّ المصالح الفردية لأتباعها، بينما تعتمد قوة الحركة الجماهيرية وحيويتها على قدرتها على تلبية رغبة أتباعها في محو الذات. وعندما تبدأ حركة جماهيرية في اجتذاب أناس لا تهمهم سوى مصالحهم الذاتية، فمعنى هذا أنها اجتازت مرحلتها الأولى النشطة، بمعنى أنها لم تعد معنية بإيجاد عالم جديد، بل بالحفاظ على الأوضاع الراهنة التي أوجدتها وحمايتها. يقول هتلر(*) «كلما زادت الوظائف والمناصب التي تقدمها الحركة كلما انخفض مستوى الأتباع الذين ينضمون إليها، وفي النهاية سيكون السياسيون الانتهازيون من الكثرة، بحيث لا يستطيع المجاهد القديم النزيه أن يتعرّف على حركته القديمة... وعندما يحدث هذا فإن رسالة هذه الحركة تكون قد انتهت»[1].

8

إن الإيمان بقضية مقدّسة هو - إلى درجة كبيرة - محاولة للتعويض عن الإيمان الذي فقدناه بأنفسنا.

(*) أسّس أدولف هتلر (1889 - 1945م) الحزب النازي الذي تبنى شعارات معادلة لليهود وللشيوعية، ووصل إلى السلطة في انتخابات حرة سنة 1933م، وبعدها حول هتلر ألمانيا إلى ديكتاتورية مطلقة مدججة بالسلاح وأدى غزوه لبولندا سنة 1939م إلى اشتعال الحرب العالمية الثانية التي انتهت بانتصار الحلفاء وانتحار هتلر. وقد كان هتلر مسؤولًا عن جرائم كثيرة ضد الإنسانية أبشعها إبادة ملايين اليهود في حمامات الغاز (المترجم).

(1) Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Houghton Mifflin Company, 1943) , P. 105.

facebook.com/ketabme

9

كلما استحال على الإنسان أن يدعي التفوق لنفسه، كلما سهل عليه أن يدّعي التفوق لأمّته، أو لدينه أو لعرقه، أو لقضيته المقدّسة.

10

ينزع الرجل إلى الاهتمام بشؤونه الخاصة، عندما تكون جديرة بالاهتمام. أما عندما لا تكون لديه شؤون خاصة حقيقية، فإنه ينزع إلى نسيان شؤونه التي فقدت معناها والاهتمام بشؤون الآخرين الخاصة. يعبر هذا الاهتمام عن نفسه بالغيبة والتجسس والفضول، كما أنه يتجه إلى اهتمام غير طبيعي بالشؤون المجتمعية والقومية والعرقية. إننا عندما نهرب من أنفسنا نلقي بثقلنا على عاتق جارنا، أو نطبق على عنقه.

11

إن اعتقادنا أن لدينا واجبًا مقدّسًا إزاء الآخرين كثيرًا ما يكون طوق النجاة، الذي نحاول بواسطته إنقاذ أنفسنا من الغرق. وعندما نمد يدنا نحو الآخر فنحن، في حقيقة الأمر، نبحث عن يد تنتشلنا. عندما تشغلنا واجباتنا المقدّسة نهمل حياتنا ونتركها خاوية بلا معنى. ولا شك في أننا عندما نستبدل بأنفسنا المنكفئة على ذاتها حياة بعيدة عن الأنانية نكون قد حققنا قدرًا كبيرًا من احترام الذات. إن غرور منكري الذات، حتى عندما يظهرون بمظهر التواضع، لا حدود له.

12

من أهم ما يجذب الناس إلى الحركة الجماهيرية أنها تقدم بديلًا للأمل الفردي الخائب. وهذه الجاذبية ذات فاعلية كبيرة في المجتمعات التي تؤمن بضرورة التطور، حيث يبدو الغد شيئًا مثيرًا، كما يصبح الإحباط أمرًا فظيعًا. يقول روشننج عن ألمانيا في المدة التي سبقت هتلر: إن الشعور بأننا وصلنا نقطة الصفر كان واحدًا من أصعب الأشياء التي قاسيناها بعد الحرب (العالمية الأولى)

facebook.com/ketabme

التي خسـرناها[1]. في المجتمعات الحديثة لا يمكن للناس أن يعيشـوا بلا أمل، إلا إذا تم تخديرهـم وإبقاؤهـم مبهـوري الأنفاس نتيجة الضـغط المسـتمر. إن اليأس الذي تسببه البطالة لا ينبع من خوف الفقر فحسب، وإنما من مواجهة مستقبل من الفراغ. والعاطلـون ينزعـون إلى اتبـاع الذين يبيعونهـم الأمل قبل اتباع الذيـن يقدمون لهم العون.

كثـيرًا مـا تُنتقد الحركات الجماهيريـة؛ لأنها تخدّر أتباعها بأمل المسـتقبل، وتأخذ منهم متعة الحاضـر. إلا أن الحاضـر يبدو في نظر المحبط، قاسـيًا لا تمكن معالجته حتى بالمتع وأسـباب الراحة. إن الأمل هو السـبيل الوحيد لإدخال القناعة والرضا في أذهان المحبطين[2].

13

عندما نجد أن اهتماماتنا الذاتية واحتمالات المستقبل لا تستحق أن نعيش من أجلها، نصـبح في حاجة ماسة إلى شيء منفصل عن أنفسنا نحيا له. إن الإخلاص لحركة ما وإعطاءها الولاء المطلق لا يعدو أن يكون محاولة للتعلق بشـيء يمنح حياتنا الفاشلة معنى وقيمة[*].

(1) Hermann Rauschning, The Conservative Revolution (New York: G. P. Putnam,s Sons, 1941), P. 189.

(2) Thomas Gray, Letters, Vol. 1, P.137. Quoted By Gamaliel Bradford, Bare Souls (New York: Harper & Brothers, 1924), P. 71.

(*) يصـور توفيق الحكيم في روايته الشـهيرة «عودة الروح» العلاقة بين الشعور بالفشل والنزعة الثورية، حـين يقـول: «إن هؤلاء الثلاثة الذين كانوا قبل قليل سـاكنين كأصـحاب بنك أفلـس تخنقهم الكآبة والضيق، كأنهم في سجن من نفوسهم لا يستطيعون منه خلاصًا. هؤلاء الثلاثة ما كادت الثورة (ثورة 1919م في مصـر) تنفجر حتى انفجروا معها، وإذا هم يروحون ويغدون منهمكين فيها وفي حوادثها المتجـدّدة المثـيرة للحواس، وإذا هم قد ذهب انقباضـهم ووحشـتهم، وحلّ محلـه الاهتمام والكفاح والتحمـس... عجبًا! أترى كان لا بد من الثورة لتصـريف عواطف هـؤلاء المنكوبين في عواطفهم؟!!». انظر: عودة الروح (القاهرة: دار الشروق، 2005م) ص427 (المترجم).

facebook.com/ketabme

من هنا يجيء اعتناقنا البديل قويًّا وعنيفًا. إن بوسعنا أن نثق في أنفسنا ثقة محدودة، أما إيماننا بأمتنا أو ديننا أو عرقنا أو قضيتنا المقدّسة فيجيء عادة، مطلقًا لا يقبل المساواة. إن البديل الذي نتبناه باعتدال لا يمكن أن يحل محل أنفسنا التي نودّ نسيانها ومحوها. لن نشعر أن لدينا شيئًا نستحق العيش من أجله ما لم نكن مستعدين للموت في سبيله. هذا الاستعداد للتضحية بالنفس هو الذي يثبت لنا وللآخرين أن البديل الذي فضلناه على الحاضر الفاسد الفاشل هو، فعلًا، أفضل بديل يمكن تصوّره.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل الثالث

التبادلية بين الحركات الجماهيرية

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

14

عندما يصبح الناس جاهزين للانضمام إلى حركة جماهيرية فإنهم، عادة، يصبحون جاهزين للالتحاق بأي حركة فاعلة، وليس بالضرورة إلى حركة بعقيدة معينة أو برنامج معين. في المدة التي سبقت صعود هتلر إلى الحكم كان من المستحيل أن يتوقع أحد هل سينضم الشباب المتوترون إلى الشيوعيين أو إلى النازيين. وفي أثناء غليان روسيا القيصرية كان اليهود والروس مستعدين للثورة على القيصر، وللانضمام إلى الصهيونية في الوقت نفسه: في العائلة الواحدة كان أحد الأبناء ينضم إلى الثوار والآخر إلى الصهاينة. ينقل الدكتور حاييم وايزمان(*) عن أمه العبارة الآتية: «كل ما يمكن أن يحدث سوف يكون سارًا. إذا كان صموئيل (الابن الثوري) على حق، فسوف نكون سعداء في روسيا، وإذا كان حاييم (الابن الصهيوني) على حق، فسوف نذهب للعيش في فلسطين»[1].

هذا الاستعداد للتحول لا ينتهي، بالضرورة، عند اعتناق المؤمن الصادق حركة ما. عندما تكون هناك حركات جماهيرية متنافسة نجد حالات كثيرة من نقل الولاء من حركة إلى أخرى. إن المعجزة التي حولت «شاؤول» كاره المسيحيين إلى بولّ المسيحي الصادق تتكرر في تاريخ الحركات الجماهيرية. وفي هذا العصر تنظر كل حركة جماهيرية إلى أتباع الحركات الأخرى بوصفهم أعضاء محتملين يمكن نقل ولائهم. كان هتلر يعدّ الشيوعيين الألمان أتباعًا محتملين للنازية: «إن الديمقراطي الاشتراكي، سواء كان صغيرًا أو نقابيًا قياديًا، لن يتحوّل إلى نازي، أمّا الشيوعي فبإمكانه، دومًا، التحول»[2]. قال الزعيم النازي روم: إن بوسعه

(*) كان حاييم وايزمان (1874 - 1952م) من رواد الحركة الصهيونية، وقد كان أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية، كما كان أول رئيس لإسرائيل وكانت رئاسته فيما بين 1949 - 1952م (المترجم).

(1) Chaim Weismann, Trial And Error (New York: Harper & Brothers, 1949), P. 13.

(2) Hermann Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. P. Putnam,s Sons, 1940), P.134.

facebook.com/ketabme

تحويل أشد الشيوعيين احمرارًا إلى نازي متعصب خلال أربعة أسابيع[1]. ومن ناحية أخرى كان الشيوعي كارل إديك يعدّ لابسي القمصان البنيّة النازيين مددًا احتياطيًا يمكن أن يتحول إلى الحزب الشيوعي[2].

وحيث إن كل الحركات الجماهيرية تستمد أتباعها من الأنماط البشرية نفسها وتجذب النوعية نفسها من العقول، فإن بوسعنا أن نستنتج ما يأتي:

(أ) جميع الحركات الجماهيرية متنافسة فيما بينها ومغنم واحدة منها لا بُدّ أن يكون مغرم الأخرى.

(ب) جميع الحركات الجماهيرية تبادلية، بوسع أي حركة منها أن تحول نفسها، بسهولة، إلى حركة أخرى. يمكن للحركة الدينية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية أو حركة قومية، كما أنه يمكن للثورة الاجتماعية أن تتحول إلى حركة قومية متطرفة أو إلى حركة دينية، ويمكن للحركة القومية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية، أو إلى حركة دينية.

15

يندر أن تكون للحركة الجماهيرية طبيعة واحدة، فهي كثيرًا ما تظهر خصائص من حركات أخرى، وأحيانًا خصائص من حركتين أو ثلاث في الوقت نفسه. كانت هجرة اليهود القدماء من مصر ثورة عبيد وحركة دينية وحركة قومية. وكانت القومية اليابانية المتطرفة ذات طابع ديني. أما الثورة الفرنسية، فقد شكلت دينًا جديدًا. كانت لهذا الدين عقيدته، مبادئ الثورة الخالدة: الحرية والإخاء والمساواة. وكانت له طقوس عبادة هي مزيج من الطقوس الكاثوليكية والمهرجانات

(1) Konrad Heiden, Der Fuehrer (Boston: Houghtion Mifflin Company, 1944), P. 30.

(2) Fritz August Voigt, Unto Caesar (G. P. Putnam,s Sons, 1938), P. 283.

facebook.com/ketabme

الشـعبية. وكان لهذا الدين قدّيسـوه: أبطال الحرية وشهداؤها[1] وفي الوقت نفسه كانت الثورة الفرنسية حركة قومية. قررت الجمعية التشريعية الفرنسية في 1792م نصـب محاريب في كل مكان تحمـل هذه العبارة «يحيا المواطـن ويعيش ويموت من أجل وطن الآباء والأجداد»[2].

وكان لحركات الإصـلاح البروتسـتانتي جانب ثوري عبَّر عن نفسه في حركات تمـرد الفلاحين، كما كان لها، أيضًـا جانب قومي. قال لوثـر: «نحن الألمان في نظر الإيطاليين مجرد خنازير، وهم يسـتغلوننا عن طريق الاحتيال، ويمتصـون خيرات بلادنا حتى النخاع. استيقظي يا ألمانيا» [3].

والمظاهر الدينية للثورتين البلشـفية والنازية واضـحة للعيـان. تحتل المطرقة والمنجل في الأولى، والصليب المعقوف في الثانية، المكانة نفسها التي يحتلها الصليب المسـيحي. وطقوسـ المواكب الحاشـدة في الحركتين تحل محل المسـارات الدينية. ولكل من الحركتين عقيدة، وقدّيسون، وأضرحة مقدّسة، كما أن الحركتين قوميتان بامتيـاز. كانت الثـورة النازية قومية منذ البداية، أمّا الثورة البلشـفية فأصـبحت قومية في تطور لاحق.

تمثـل الصـهيونية حركـة قوميـة وثـورة اجتماعية، كمـا أنها في نظـر اليهود الأرثوذكس حركة دينية أيضًا. وللقومية الأيرلندية جذور دينية راسخة. والحركات الجماهيرية المعاصرة في آسيا هي في الوقت نفسه قوية وثورية[*].

(1) Carl L. Becker, The Heavenly City of The Elgteenth. Century Philos Hers. Cnewhaven: Yale university Press, 1932) P. 155.

(2) A. Mathiez, Les Origins Des Cultes Rervolutionnaire P. 31. Quoted By Carlton J. H. Hayes, Essays On Nationalism (New York: Macmillan Company,1926) P.103.

(3) Frantz Funck- Brentano, Luther, (London: Jonathan Cape, ltd. 1939) P.278.

(*) يبدو أن ملاحظات المؤلف عن الصفة المزدوجة للحركات الجماهيرية تنطبق، بحذافيرها، على الجماعات الأصـولية المتطرفة، الحاضـنة الطبيعيـة للإرهاب، فهي في حقيقـة أمرها، برغم شـعاراتها وادعاءاتها الإسلامية، حركات سياسية تستهدف الوصول إلى السلطة (المترجم).

facebook.com/ketabme

16

كثيرًا ما يكون السبيل الوحيد لإيقاف حركة جماهيرية هو إيجاد حركة بديلة. يمكن إيقاف ثورة اجتماعية بتشجيع حركة دينية أو قومية. نجحت الكاثوليكية، في البلاد التي استطاعت أن تستقطب فيها الجماهير، في وقف الزحف الشيوعي. وفي اليابان كانت كل حركات الرفض الاجتماعي تمر عبر قناة القومية. وفي جنوب الولايات يحول التضامن العرقي بين البيض دون قيام ثورة اجتماعية من الفقراء على الأغنياء. وتصدق الملاحظة نفسها على الفرنسيين في كندا، والبوير في جنوب أفريقيا.

إلا أن استبدال حركة بحركة عملية لا تنجح في كل الأحوال، وقد تكون باهظة الثمن(*). على الذين يريدون الحفاظ على الحاضر، كما هو ألاّ يغامروا باللعب في الحركات الجماهيرية: حيث توجد حركة جماهيرية توجد مناهضة للوضع القائم. في إيطاليا وألمانيا، في مدة ما قبل الحرب العالمية الثانية تصرف رجال الأعمال بطريقة بدت لهم منطقية، فدعموا الفاشية والنازية لإيقاف المد الشيوعي، إلا أنهم بعملهم هذا سارعوا، برغم عقلانيتهم، في القضاء على أنفسهم.

هناك بدائل أكثر أمناً للحركات الجماهيرية. يمكننا القول، على وجه العموم: «إن أي مجهود يحول دون تشظي الذات، ويتيح فرصًا جديدة، وبدايات جديدة، سيساعد على تقليص الحركات الجماهيرية. سوف نناقش هذه البدائل في موضع لاحق، أمّا هنا فسنناقش بديلًا غريبًا بعض الشيء، للحركات الجماهيرية هو الهجرة إلى الخارج».

(*) يستحضر المرء تجربة الرئيس المصري أنور السادات، حينما حاول في سبعينيات القرن الماضي ضرب التنظيمات الناصرية بتشجيع التنظيمات الأصولية، فكانت النتيجة وبالًا عليه (المترجم).

facebook.com/ketabme

17

تحقق الهجرة للمحيطين الأمل الذي يتوخونه عند الانضمام إلى حركة جماهيرية: التغيير والبداية الجديدة. والأشخاص الذين يسارعون إلى الانضمام إلى الحركات الجماهيرية سوف يسارعون إلى الهجرة لو أتيحت لهم الفرصة. من هنا يمكننا القول: إن الهجرة يمكن أن تكون بديلًا للحركة الجماهيرية. لو رحبت الولايات المتحدة والأمبراطورية البريطانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى بأعداد كثيفة من أوروبا لما قامت الحركات الفاشية والنازية. وفي الولايات المتحدة ساعد السماح بالهجرة إلى أنحاء القارة الضخمة على الاستقرار الاجتماعي.

ومع ذلك، نظرًا للشبه بين أتباع الحركات الجماهيرية والراغبين في الهجرة، فقد تكون الهجرة الجماعية ميدانًا خصبًا للحركات الجماعية. يصعب أحيانًا أن نحدد متى تبدأ الهجرة الجماعية، ومتى تبدأ الحركة الجماهيرية - أو أن نحدد من الذي بدأ قبل الآخر. تطورت هجرة اليهود القدماء من مصر إلى حركة دينية وقومية. أما هجرة القبائل البربرية (البدائية) في الأيام الأخيرة من الأمبراطورية الرومانية فقد كانت أكثر من تنقُّل بشري. كانت هذه القبائل صغيرة العدد، ولكنها بمجرد غزو دولة ما كانت تستقطب إلى جانبها المظلومين والمتذمرين. في جميع مناحي الحياة «كان الأمر ثورة اجتماعية تغلفت بقناع الغزو الخارجي»(1).

كل حركة جماهيرية هي، على نحو أو آخر، «هجرة»، حركة نحو «أرض الميعاد»(*). وعندما تسمح الظروف للحركة، فإنها تنطلق بالفعل إلى تلك الأرض. حدث هذا مع الجماعات البروتستانتية الأوروبية التي عَدَّت الولايات المتحدة أرض

(1) H.G Wells, the outlin of Histmry (New York: Macmillan Company, 1922) pp. 482- 484.

(*) تصدق ملاحظة المؤلف على عدد من الجماعات الأصولية المتطرفة التي تدعو أتباعها إلى «الهجرة» من العالم ومفاسده، وقد يستخدم بعضها كلمة الهجرة، كما في جماعة «التكفير والهجرة» المصرية (المترجم).

facebook.com/ketabme

الميعـاد الجديـدة، وهاجـرت إليها، كما حدث مع تدفق الصـهاينة على فلسـطين. تقـوي الهجرة، عندما تكون بأعداد كبـيرة، روح الحركة ووحدتها، وتلجأ الحركات الجماهيريـة النشـطة إلى الهجـرة، عندمـا تكون بصـدد غزو خارجـي، أو حرب صليبية، أو الاستيطان في أراضٍ جديدة.

facebook.com/ketabme

القسم الثاني

الأتباع المتوقعون

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل الرابع

دور المنبوذين
في الشؤون الإنسانية

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

18

كثيرًا ما يكون معيار الحكم على الأمّة، أو أي تجمع بشري، هو وضع أقل أفرادها شأنًا. على الرغم من أن هذا معيار ظالم إلا أن هناك ما يبرره. إن شخصية أي جماعة ومصيرها كثيرًا ما تحدّده العناصر الأقل قدرًا فيها.

إن الجزء الثابت من أي أمّة هو وسطها، إلا أن هذا الوسط، الذي يتكوّن من المواطنين العاديين الطيبين، الذين يقومون بأعمالهم في المدن والأرياف، كثيرًا ما تتحكم فيه أقليتان، الصفوة من طرف، والغوغاء من طرف آخر(*).

يؤدي الأشخاص المتفوقون عقليًا دورًا كبيرًا في قيادة الأمة، سواء في السياسة أو الأدب أو العلم أو التجارة أو الصناعة، إلا أن الأشخاص الذين يقفون في الجانب الآخر، الفاشلين والعاجزين عن التأقلم والمنبوذين والمجرمين، وكل الذين فقدوا توازنهم أو لم يكن لديهم توازن أصلًا، يؤدون أيضًا دورًا كبيرًا. إن مسرحية التاريخ يمثلها عادة طرفان، الصفوة من جانب، والغوغاء من جانب آخر، دون مبالاة بالأغلبية التي تقع في الوسط.

إن السبب الذي يجعل الغوغاء يؤدون دورًا مهمًا في مسيرة الأمة هو أنهم لا يكنّون أي احترام للأوضاع القائمة. إنهم يعدّون حياتهم فاسدة بلا أمل في العلاج، ويحملون النظرة نفسها إلى الأوضاع القائمة. ومن هنا فإنهم على استعداد، دومًا لتحطيم كل شيء ولنشر الفوضى والقلاقل. يتوق الغوغاء إلى صهر أنفسهم التي يعدّونها بلا معنى في مجهود جماعي خارق وإلى الانخراط في عمل جماعي موحد. إن الغوغاء دومًا في مقدمة الأتباع، سواء كنا بصدد ثورة أو هجرة جماعية أو حركات عرقية أو قومية، وهم من ثم يطبعون بطابعهم الحركات التي تغير طبيعة الأمم ومسار التاريخ.

(*) هناك مثل بسيط يرينا كيف تتضافر أفضل العناصر وأسوؤها هو اللغة، تتقيد غالبية الأمة باللغة التقليدية الموجودة في القواميس. أما التجديد فيجيء من الصفوة، رجال الدولة والشعراء والكتاب والعلماء والمتخصصين، ومن الغوغاء الذين يبتكرون التعبيرات العامية (المترجم).

facebook.com/ketabme

إن المنبوذين والمهمشين هم المادة الخام التي يصنع منها مستقبل الأمة، أي إن الحجر المطروح في الشارع يصبح حجر الزاوية في بناء عالم جديد. إن الأمة التي تخلو من الغوغاء هي التي تتمتع بالنظام والسلام والاطمئنان، إلا أنها أمة تفتقر إلى خميرة التغيير. لم تكن سخرية من السخريات، أن المنبوذين في بلاد أوروبا هم الذين عبروا المحيط لبناء مجتمع جديد في القارة الأمريكية، بل كان هذا هو الشيء الطبيعي(*).

19

على الرغم من أن المتذمرين يوجدون في كل مجالات الحياة، إلا أنهم يوجدون بكثرة في المجالات الآتية:

1 - الفقراء.
2 - العاجزون عن التأقلم.
3 - المنبوذون.
4 - الأقليات.
5 - المراهقون.
6 - شديدو الطموح (سواء وجد طموحهم المجال، أم لم يجده).
7 - الواقعون تحت تأثير رذيلة، أو عادة أرمانية.
8 - العاجزون (جسديًا أو عقليًا).
9 - المفرطون في الأنانية.
10 - الملولون.
11 - مرتكبو المعاصي.

وفي الصفحات الآتية سوف نناقش بعض هذه الفئات.

(*) يمكن أن نضيف هنا أن عددًا كبيرًا من مستوطني أستراليا الأوائل كانوا مجرمين، نفتهم بريطانيا إلى القارة البعيدة (المترجم).

facebook.com/ketabme

الفصل الخامس

الفقراء

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

محدثو الفقر

20

ليس كل الفقراء محبطين. بعض الفقراء الذين يعانون في الأحياء البائسة من المدن لا يشعرون بأي إحباط، بل إنهم يرتعدون؛ خوفًا من العيش خارج المحيط التعس الذي ألفوه.

حتى الفقراء الأفضل حالًا عندما يطول أمد فقرهم لا يفعلون شيئًا، ويشلّهم إحساسهم أن الأوضاع القائمة أشياء ثابتة يستحيل أن تتغيّر. يتطلب الأمر كارثة مروعة، مثل غزو خارجي أو وباء منتشر، لكي يتفهموا أن الأوضاع الدائمة يمكن أن يطولها التغيير.

عادة، ما يكون محدثو الفقر، الفقراء الذين لم يطل عهد فقرهم، هم الذين يشعرون بالإحباط؛ لأن ذكرى الأشياء التي فقدوها لا تزال حية في دمائهم. هؤلاء المحرومون هم الذين يسارعون إلى الالتحاق بأي حركة جماهيرية صاعدة. لقد كان محدثو الفقر المسؤولين عن نجاح الثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر(*). خلال «ثورة الملاك» التي سبق أن أشرنا إليها، قام الآلاف من مالكي الأراضي الزراعية بطرد فلاحيهم من الأراضي التي كانوا يزرعونها وتحويلها إلى مراعٍ. «تحوّل الفلاحون الأقوياء النشطون المتعلقون بالتربة التي كانوا يستمدون منها

(*) تغطي الثورة الإنجليزية المدة بين سنتي 1640م إلى 1660م من تاريخ إنجلترا. بدأت الثورة بالخلاف بين الملك تشارلز الأول والبرلمان، وتطور الخلاف إلى حربين أهليتين صعد خلالهما نجم أوليفر كرومول (1599 - 1658م) الذي كان يقود قوات البرلمان، أدى انتصار كرومول إلى محاكمة تشارلز الأول وإعدامه، وتولى كرومول الحكم، وبوفاته سنة 1658م عادت الاضطرابات التي انتهت برجوع الملكية وتنصيب تشارلز الثاني ملكًا سنة 1660م (المترجم).

facebook.com/ketabme

رزقهم إلى عمال بأجور أو متسولين... وازدحمت الشوارع بالمعدمين»[1]. كان هذا الحشد من المحرومين هم أفراد جيش كرومول الشعبي الجديد.

وفي ألمانيا وإيطاليا تحول محدثو الفقر المنحدرون من الطبقة الوسطى المنهارة إلى دعاة رئيسين للثورتين النازية والفاشية. وأولئك الذين يمكن أن يتحولوا إلى ثوريين في بريطانيا المعاصرة ليسوا من العمال، بل من موظفي الخدمة المدنية ورجال الأعمال الذين تأثروا بالتأميم. هذه الطبقة تحتفظ بذكريات حيّة عن ماضيها المتصف بالغنى والهيمنة، وليس من المحتمل أن تتأقلم مع الأوضاع التي تكبلها وتحرمها أي نفوذ سياسي(*).

كانت هناك، في الولايات المتحدة وفي الدول الأخرى، زيارات دورية منتظمة في أنواع جديدة من الفقراء، ولا شك في أن هذه الزيادات أسهمت في ظهور الحركات الجماهيرية وانتشارها. حتى وقت قريب، كان محدثو الفقر ينحدرون من طبقة الملّاك، سواء في المدن أو الأرياف، إلا أنه مؤخرًا، ولأول مرة في التاريخ، تحول العمال العاديون إلى محدثي فقر.

عندما كان الذين يقومون بالأعمال اليدوية الشاقة يعيشون على حافة الكفاف، كانوا يعدّون أنفسهم ويعدّهم غيرهم، الفقراء «التقليديين». كانوا يعانون الفقر في أوقات الازدهار وأوقات الركود، ومن وجهة نظرهم لم يكن الكساد، مهما بلغت شدته، أمرًا غريبًا أو مزعجًا. إلا أنه مع ارتفاع مستوى المعيشة بين الناس أصبح للركود والبطالة معنى مختلف. يعدّ العامل في الدول الغربية البطالة أمرًا مهينًا للكرامة. ويعتقد العامل في هذه الدول أنه تعرض للافتقار والأذى؛ نتيجة أوضاع قائمة ظالمة يجد نفسه مستعدًا للاستماع إلى الذين ينادون بالإطاحة بها.

(1) Charles A. And Mary R. Beard, The Rise of American Civilization (New York: Macmillan Company, 1939) Pol. 1, P. 24

(*) لم تحدث ثورة في بريطانيا، ولكن الناخبين تحولوا من حزب العمال إلى حزب المحافظين في انتخابات سنة 1951م ولعلّ ما أشار إليه المؤلف كان له أثر في هذا التحوّل (المترجم).

facebook.com/ketabme

الفقراء فقرًا مدقعًا

21

إن حياة الفقراء الذين يعيشــون على حافة الجوع أبعد ما تكون عن الفراغ. إن الصــراع اليومي المحموم في سبيل الحصول على الطعام والمأوى يجعلهم بلا دقيقة من الفراغ. أهداف هؤلاء الفقراء واضحة ومحددة: كل وجبة إنجاز؛ والنوم بمعدة ممتلئة انتصاراً؛ وأي وفر معجزة. ما حاجة هؤلاء إلى أهداف عليا تتجاوز الذات، تمنح حياتهم معناها؟ هؤلاء الفقراء محصنون ضد الحركات الجماهيرية. تصف إنجيلــكا بــالا بانوف تأثير الفقر المدقع على حماســة الثوريــين الراديكاليين الذين توافدوا على موســكو على إثر الثورة البلشــفية: «هنا وجدت رجالاً ونساءً تخلّوا عن كل المزايا المادية، وعن حياتهم، وعن ســعادتهم، وعن مشــاعرهم العائلية لتحقيق أهدافهم المثالية، وجدتهم وقد باتوا ولا همّ لهم سوى الصراع مع البرد والجوع»(1).

لا تكــون لــدى الناس، عندما يكدحون من الشــروق إلى الغــروب لمجرد البقاء علــى قيد الحياة، ظلامات، ولا يملكون أي أحلام. كان من الأســباب التي أدت إلى عدم ثورة الجماهير في الصــين الجهد الهائل الــذي بذلته لتحيا حياة الكفاف. إن الصراع اليومي للبقاء على قيد الحياة «يحفز على الجمود، لا على التمرد»(2).

22

إن البؤس، في حد ذاته، لا يقود، تلقائيًا، إلى التذمّر. كما أن درجة التذمر غير مرتبطــة بدرجة البؤســ. يبلغ التذمر أعلى درجاته حين يكــون البؤس محتملاً، أي حين تتحسن الأوضاع على نحو يسمح بالاعتقاد بإمكان تحسنها أكثر فأكثر. فوجئ دي توكيفيل خلال دراســة حالة المجتمع في فرنســا قبل الثورة، حين اكتشف أنه «لم

(1) Angelica Bala Banoff, My Life As A Rebel (New York: Harper & Brothers, 1938), p.204.
(2) Edward A. Ross, The Changing Chinese (New York: Century company, 1911), p. 92.

facebook.com/ketabme

يشـهد أي مدة من المدد التي أعقبت ثورة 1788م رخاءً شـاملًا كالذي شهدته مدة العشرين سنة التي سبقت قيام الثورة»[1].

وقاده هذا إلى الاستنتاج الآتي: «ازداد تذمر الفرنسيين مع ازدياد رخائهم»[2]. وفي كل مـن فرنسـا وروسـيا كان الفلاحـون المتعطشـون إلى الأرض يملكون ثلث الأراضي الزراعية عند اندلاع الثورة، وقد حصلوا على معظمها خلال جيل أوجيلين قبـل الثـورة[3] ليس البؤس الفعلي، إذًا هو الذي يدفع إلى الثورة، بل طعم الأشـياء الطيبة القادمة ليس من الممكن أن تقدم ثورة شـعبية في روسـيا، إلا إذا بدأ الناس يتذوقون طعم الحياة السعيدة. لن يواجه الحزب الشيوعي خطرًا إلا عندما تتحسن الأوضـاع الاقتصادية لمجموع الناس، وعندما تخفّ وطأة القبضة الحديدية[*]. من المثير للانتباه أن اغتيال كيروف، صـديق ستالين[**] المقرّب. حدث في ديسمبر من سـنة 1834م، أي بعد أن أعلن ستالين نهاية ناجحة للخطة الخمسية الأولى، وبداية مرحلة جديدة من الرخاء.

يبدو أن درجة التذمّر تتناسب عكسيًا مع درجة البعد عن الهدف المنشود: كلمّا اقتربنـا من الهدف، كلما زاد التذمّر، وكلمّا ابتعدنا عنه كلما خف التذمّر. تصـدق هـذه الملاحظـة على المحظوظين الذيـن اقتربوا من أرض الميعاد، كما تصـدق على

(1) Alexis De Tocqueville, On the State of Society In Franch Before the Revolution of 1789) (London Cohn Murray, 1888, p. 149.

(2) ibid, p. 152.

(3) Lyford p. Edwards, the Natural History of Revolution (Chicago: University of Chicago press 1927) p.2.

(*) ما توقعه المؤلف حدث بالفعل في الاتحاد السـوفييتي، ولعله طبقًا للتحليل نفسـه، سيحدث في الصين (المترجم).

(**) كان جوزيف سـتالين (1879 - 1952م) من قادة الحركة البلشفية في روسيا ،وتمكن بعد موت لينين من الاسـتئثار التام بالسلطة، وتحول النظام إلى ديكتاتورية فردية مطلقة وارتكب ستالين الكثير من المجازر التي يقدر عدد ضحاياها بالملايين (المترجم).

facebook.com/ketabme

المحرومين الذين أبعدوا عن هذه الأرض التي لا يزالون يرونها بأعينهم. وتصدق الملاحظة على أولئك الذين يوشكون أن يصبحوا أغنياء، وعلى محدثي الفقر، وعلى الأرقاء الجدد.

23

إن إحباطنا عندما نملك الكثير، ونريد المزيد يفوق إحباطنا عندما لا نملك شيئًا ونريد القليل. ونحن أقل تذمرًا حين نفقد أشياء كثيرة منا، حين لا نفقد إلا شيئًا واحدًا.

24

نحن نغامر في سبيل الحصول على الكماليات أكثر مما نغامر لكي نحصل على الضروريات. و كثيرًا ما يحدث أننا عندما نتخلّى عن الكماليات نجد أنفسنا، وقد فقدنا الرغبة في الضروريات.

25

هناك أمل يشجع على الثورة، وأمل يشجع على الصبر، وهذا هو الفرق بين الأمل المباشر والأمل البعيد.

تبشر الحركات الجماهيرية الصاعدة بالأمل المباشر. لا شيء يحث أتباع هذه الحركات على التحرك مثل الاعتقاد أن الأمل على وشك التحقق. كانت المسيحية عند ظهورها تبشّر بنهاية العالم الوشيكة وقدوم مملكة السماء. ولا يمكن تجاهل الدور الذي أدته الغنائم في حروب الإسلام. واليعاقبة في فرنسا وعدوا بحرية ومساواة يجيئان على الفور، بينما وعد البلاشفة الأوائل بالخبز والأرض. وعد هتلر أنصاره أن ينهي على الفور العبودية التي فرضتها معاهد فرساي، وأن يوجد

facebook.com/ketabme

عملًا وحراكًا للشعب كلّه. في وقت لاحق، عندما تصل الحركة إلى السلطة يبدأ التركيز على الهدف البعيد، على الحلم وعلى الرؤية. تنشغل الحركة التي وصلت إلى الحكم بالحفاظ على الوضع القائم، وتشجع الطاعة والصبر بعد أن كانت تدعو إلى الأعمال الفورية العفوية: «عندما نحلم بما لا نرى، فبوسعنا أن نصبر في انتظار تحقيقه»[1].

لكل حركة تصل إلى السلطة هدفها البعيد، مخدّرها الذي يكبح اندفاع الجموع ويدعوها إلى التأقلم مع واقعها. وهكذا نجد أن الستالينية تحولت إلى أفيون الجماهير، نفس التعبير الذي سبق للستالينية أن استخدمته في وصف الأديان.

الفقراء الأحرار

26

الأرقاء فقراء، إلا أنه حين يكون الرق منتشرًا ومتجذّرًا لا يكون هناك احتمال أن تقوم حركة جماهيرية. إن المساواة المطلقة بين الأرقاء، بالإضافة إلى الحياة الجماعية الحميمة في «قسم العبيد»، تزيل أي شعور بالإحباط الفردي. وفي المجتمع الذي تشيع فيه مؤسسة الرق لا تجد مشاغبين، إلا من الذين استرقوا حديثًا، أو من الأرقاء المحرّرين، وفي الحالة الثانية نجد أن عبء الحرية هو سبب التذمّر.

إن الحرية تزيد الإحباط بقدر ما تخففه. إن توافر حرية الاختيار تضع اللوم كله على عاتق الفرد، ولأن الحرية تساعد على تكرار المحاولة، فإنها تساعد على تكرار الفشل وما تبعه من إحباط. إلا أن الحرية تخفف من الإحباط، حين تفتح مجالات الحراك والعمل والتغيير والاحتجاج.

تصبح الحرية عبئًا على الشخص، حين يفتقر إلى المواهب التي تمكنه من

(1) The Epistle of Daul the Apostle To the Romans 8: 25.

facebook.com/ketabme

تحقيـق أي شـيء. أي معنـى للحرية عندما يكون الشـخص عـديم الفاعلية؟ يلجأ الناس إلى الحركة الجماهيرية؛ ليتحرروا من ثقل المسـؤولية الفردية، أو كما قال شاب نازي متحمّس «للتحرر من الحرّية»[1]. لم يكن من باب النفاق أن يعلن المنضمون إلى الحركـة النازيـة أنهـم أبرياء من جميـع الجرائم التـي ارتكبتها الحركـة. كانوا يشعرون بالظلم والاضطهاد عندما يطلب منهم أحد أن يتحملوا المسؤولية الشخصية. ألم ينضموا، أساسًا، إلى الحركة النازية للتخلص من المسؤولية؟

إن أكثر البيئات صلاحية لنمو الحركات الجماهيرية هي المجتمعات التي تتمتع بقدر كبير من الحرية، ولكنها تفتقر إلى ما يزيل الإحباط. تجاوب فلاحو فرنسا مع نداء الثورة في القرن الثامن عشـر؛ لأنهم بخلاف الفلاحين في ألمانيا والنمسـا، لم يعودوا من رقيق الأرض، بل أصـبحوا ملاكًا ومن المنطلق نفسه، يمكن القول: إن الثورة في روسـيا لم تكن لتندلع لو لم يصـبح الفلاحون الروس ملاكًا خلال جيل أو أكثر قبل قيام الثورة، الأمر الذي مكنهم من تذوق طعم الملكية الفردية.

27

لا تطلـق الحركات الجماهيرية، بما فيها الحركات التي تنطلق باسـم الحرية في مواجهة نظام مسـتبد، الحريات الفرديـة في مرحلتها الأولى. ما دامت الحركة منهمكة في صـراع مع النظام القائم، أو كانت بحاجة إلى الدفاع عن نفسـها ضـد أعداء داخليين أو خارجيين، فإن شـغلها الشـاغل هو الوحدة والتضـحية بالنفس، الأمـر الـذي يعني حرمان الفرد من إرادته ومنطقه والمزايا التي يتمتع بها. وصـف روبسبير (*) الحكومة الثورية بأنها «طغيان الحرية في مواجهة الاستبداد»[2].

---

(1) I. A. R. Wylie. «the Quest of our Lives, Readers Digest, May 1948, p.2.

(*) كان روبسبير (1758 - 1794م) قائدًا دمويًا من قواد الثورة الفرنسية، ومات مغتالًا (المترجم).

(2) Crane Brintion, A Decade of Revolution, (New York: Harper And Brothers, 1934) p. 161.

facebook.com/ketabme

والنقطـة التي تهمنا هنا هي أن الحـركات الجماهيرية عندما تنسى أو تؤجّل الحريـات الفردية لا تصـطدم مع رغبـات أتباعها المتحمسـين. إن المتطرفين كما يقول رينان: يخافون الحرية أكثر من الاضـطهاد[1]. ما يبدو صحيحًا هو أن أتباع الحركات الصاعدة يشعرون شعورًا قويًّا بالحرّية برغم أنهم يعيشون ويتنفسون في جو صـارم يفرض عليهم الالتزام المطلق بالقواعد والتعليمات. ويأتي هذا الشـعور بالحريـة من إفلاتهم مما يعكر صـفو حياتهم الفردية مـن عقبات وأعباء وقنوط: يصـبح هذا الإفلات، في نظرهم، إنقـاذًا وتطهيرًا. كما أن الشـعور بحدوث تغيير عظيم يعطي إحساسًـا بالحرّيـة على الرغم من أن التغيير يتـم في جو من القمع. عندما تجتاز الحركة مرحلتها النشـطة الأولى وتتحول إلى مؤسسـة مستقرة يمكن للحريـة الفرديـة أن تعـود. بقـدر ما يقصـر أمد المرحلة النشـطة بقدر ما يسـود الانطباع بأن الحركة نفسـها، لا نهايتها، هي التي أوجدت الحريات الفردية. يقوى هذا الانطباع ويتعزز بقدر قسوة الطغيان الذي أزاحته الحركة وحلت محله.

28

إن الذين يشـكون فشـل حياتهم وقبحها يتوقون إلى المسـاواة أكثر من توقهم إلى الحرّية. حتى عندما يضحون في طلب الحرية، فإن مطلبهم الحقيقي هو حرية المساواة والتماثل. إن الشوق إلى المساواة، جزئيًا على الأقل، شوق إلى فقدان الهوية الشخصـية: أن تصـبح مجـرد خيط في النسـيج، مجرد خيط لا يختلـف عن بقية الخيوط[2]. لا يسـتطيع أحـد، في هذه الحالة، أن يميّزنا عن غيرنـا، أو أن يقارننا بغيرنا ويفضح عجزنا.

(1) Ernest Renan, the Hibbert Lectures, 1880 (London: Williams And Norgate, 1898), Rreface.

(2) Epictetus, Discourses, Book 1 chapter 2.

facebook.com/ketabme

إن أكثر الناس صـراخًا في سبيل الحرية كثيرًا ما يكونون أقل الناس سعادة في مجتمع حرّ. إن المحبطين، الذين تحاصرهم عيوبهم، يعزون فشلهم إلى القيود والمعوقات الخارجية إلا أنهم، في حقيقة الأمر، يتمنون أن يزول مناخ الحرية المتاحة للجميع ويودون إلغاء المناقشة الحرة، وما ينتج عنها من امتحان دائم للفرد في المجتمع المفتوح.

29

عندما توجد الحرية، بالفعل، تصبح المساواة مطلب الجماهير. وعندما توجد المساواة، بالفعل، تصبح الحرّية مطلب أقلية صغيرة. إن المساواة بلا حرية تخلق نظامًا اجتماعيًا أكثر استقرارًا من الحرية بلا مساواة.

الفقراء المبدعون

30

عندما يقترن الفقر بالإبداع فإنه يكون، عادة، خاليًا من الإحباط، وهذه الظاهرة تنطبق على الحرفي الفقير الماهر في حرفته، وعلى الكاتب الفقير، وعلى الفنان والعالم الفقيرين في ذروة إبداعهما. لا شيء يعزّز ثقتنا بالنفس، ويساعدنا على العيش معها، كالقدرة المستمرة على الإبداع: أن نرى الأشياء تنمو وتكبر بين أيدينا يومًا بعد يوم. وليس من المستبعد أن يكون اختفاء الحرف اليدوية في الأوقات المعاصرة سببًا في تزايد الإحباط وفي انجذاب الفرد إلى الحركات الجماهيرية.

مما يثير الانتباه أن غياب القدرة الإبداعية لدى الفرد مؤشر على نزعة قوية تدفعه إلى الالتحاق بالحركات الجماهيرية، وهنا نرى بوضوح العلاقة بين الرغبة في الإفلات من الذات المحبطة والاستجابة للحركات الجماهيرية.

إن الكُتاب والفنانين والعلماء الذين يشعرون بالإحباط، بسبب نضوب قدراتهم

facebook.com/ketabme

الإبداعيـة الذاتية، ينضـمّون، آجـلًا أو عاجلًا، إلى صـفوف الوطنيين المتطرفين، والعنصريين، أو معتنقي القضايا المقدّسة. وربما كانت الظاهرة نفسها تنطبق على العاجزين جنسيًا.

الفقراء المترابطون
31

إن الفقـراء الذين ينتمون إلى مجموعة مترابطة، سـواء كانـت قبيلة أو عائلة أو فئة عرقية أو دينية، لا يكادون يشـعرون بالإحباط، ومن ثم لا يحسـون برغبة في الانضـمام إلى حركـة جماهيرية. والفقير الذي ينتمـي إلى مجموعة لا يحكم على نفسـه بالفشـل، ولا يعدّ نفسـه مسـؤولًا بالكامل عن المعوقات التي تعترض مجرى حياتـه، الأمر الـذي يجعله بمنأى عن الإحسـاس بالعجز. مثل هذا الشـخص أقل استجابة للنداءات الثورية من الشخص المستقل تمامًا. لا بدّ أن تكون درجة البؤس والمعاناة مرتفعة جدًا؛ لتدفع الفقير المنتمي إلى مجموعة إلى الثورة. إن سبب الثورة في المجتمـع الديكتاتوري عادة ما تكون تفـكك الديكتاتورية التى تجبر الجميع على البقاء في مجموعة واحدة، لا النقمة على الطغيان ولا الإحساس بالألم.

من المحتمل أن روابط الأسرة القويّة في الصين كانت السبب الذي أبقى جماهير الصين، عبر عصور طويلة محصنة ضد الحركات الجماهيرية. إن الأوروبي «الذي يموت في سـبيل وطنه» يتصـرّف على نحو لا يفهمه الصيني الذي ينظر إلى المسألة مـن زاويـة مختلفة: هذا الموت في سـبيل الوطن لا علاقة له بأسـرته، ولا تسـتفيد منه، بل على العكس، تفقد من خلاله عضـوًا من أعضـائها. ومن الناحية الأخرى فالصـيني «يتقبَّل بسـرور واعتزاز أن يموت عندما تستفيد أسـرته من المبلغ الذي يدفع لها مقابل أن يعدم فرد من أفرادها بدلًا من مجرم محكوم عليه بالإعدام»[1].

(1) Arthur J. Habbard, the Fate of Empires (New York: Longmans, Green, & Company, 1913), p. 170.

facebook.com/ketabme

من الواضح، والحالة هذه ، أن على الحركات الجماهيرية الصاعدة أن تلجأ إلى تحطيم كل الروابط بين الجماعات إذا أرادت أن يزداد أتباعها. إن المرشح الأمثل للانضواء تحت جناح الحركة هو الفرد الذي يقف وحيدًا من دون جماعة متماسكة يندمج فيها وتنصهر خلالها ذاته على نحو يجعله يعمى عما يسود ظروفه الشخصية من نقص وقبح وخواء. عندما تجد الحركات الجماهيرية روابط الأسرة والقبيلة والوطن، وما إليها، مفككة متآكلة، فإنها تسارع إلى جني الحصاد. أما عندما تجد هذه الروابط قوية متماسكة فإنها تلجأ، أولًا: إلى تحطيمها وبعثرتها. ومن الناحية الأخرى، عندما نلاحظ أن الحركة البلشفية في روسيا تدعو إلى تعزيز روابط العائلة وتشجيع التماسك القومي والعرقي والديني، فمعنى هذا أن الحركة اجتازت مرحلتها الديناميكية الأولى، وتحوّلت إلى مؤسسة لها نمطها وأسلوبها لا يهمها شيء قدر ما يهمّها أن تحافظ على ما أنجزته. أما خارج روسيا، فنلاحظ أن الشيوعية التي ما زالت في بداية صعودها تعمل كل ما بوسعها لتفكيك عرى العائلة والروابط القومية والعرقية والدينية.

32

إن موقف الحركات الجماهيرية الصاعدة من الأسرة جدير بالاهتمام والتأمل. أبدت هذه الحركات كلها في مراحلها الأولى عداء تجاه الأسرة، وقامت بكل ما تستطيع القيام به لتفكيكها(*). وفي هذا السبيل، لجأت إلى إضعاف السلطة الأبوية وإلى تسهيل الطلاق، وإلى تحمل المسؤولية عن إطعام الأطفال وتغذيتهم وتسليتهم وإلى تشجيع العلاقات غير المشروعة بين الجنسين.

(*) عبدالله ثابت كاتب سعودي استقطبته جماعة دينية متطرفة في صباه ومراهقته، ثم خرج منها وروى تجربته في كتاب مثير. يقول عبدالله: «كم كنت أكره عائلتي وبيتي الذي يعج بالموبقات والمعاصي، كما كان مشرفو المخيّم يصفون أمثاله من البيوت، لقد كان مملوءًا بالفساد من تلفاز وصور وأصوات الأغاني وغيرها» ثم يقول: إنه خاصم أهله جميعًا وترك البيت والدراسة وكل شيء «لأعيش بإحدى الغرف التي يعيش فيها أحدهم. لقد كان بالنسبة لهم فرصة مناسبة لضمّي لهم إلى درجة يستحيل معها تركي لهم» عبد الله ثابت، الإرهابي 20، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2006م (ص 84 – 85 (المترجم).

facebook.com/ketabme

وبالإضافة إلى هذا، أسهمت المباني المزدحمة وعمليات النفي والاعتقال والتخويف في إضعاف تأثير الأسرة. ومع ذلك فنحن نلاحظ أن أيًّا من الحركات الجماهيرية المعاصرة لم تلجأ إلى إدانة الأسرة، كما فعلت المسيحية في بدايتها، وقد عبّر المسيح عن هذا الموقف بصراحة متناهية: «لقد جئت لأحرّض الرجل على أبيه، والابنة على أمها، وزوجة الابن على أم زوجها. سيكون أعداء الرجل من داخل منزله. والذي يحب أباه أكثر مما يحبني لن يكون جديرًا بي، والذي يحب ابنه أو ابنته أكثر مني لن يكون جديرًا بي[1]». وعندما قيل للمسيح: إن أمه وإخوانه ينتظرونه في الشارع للحديث معه قال: «من هي أميّ؟ من هم إخواني؟» ثم أشار بيده إلى حوارييه وقال: «انظروا إلى أمي وإخواني»[2]. وعندما استأذنه أحد حوارييه ليذهب لدفن أبيه، قال: «اتبعني. ودع الموتى يدفنون موتاهم»[3]. يبدو أن المسيح كان يشعر بالصراعات المروعة التي ستحدث داخل العائلة نتيجة إصرار حركته على التبشير وكراهية أعدائها بتطرف: «وسوف يقدّم الأخ أخاه للموت، وسيثور الأبناء على آبائهم ويسوقونهم إلى الموت»[4]إنه حقًا أمر غريب، وإن كان صحيحًا أن نجد الذي يدعو إلى الحب يدعو إلى كره الأم والأب والأخت والزوجة والأولاد[*] لقد هاجم أتباع كونفشيوس[**] الحكيم الصيني موتي زو الذي دعا إلى حب الجميع، قائلين: إن هذا الحب الجماعي سوف يؤدّي إلى إضعاف الأسرة

(1) Matthew 10: 35- 37.
(2) ibid, 12: 47- 49.
(3) ibid, 8: 22.
(4) ibid, 10: 21.

(*) كل ما نقد المؤلف عن المسيح نابع من التصوّر المسيحي الذي لا يمت بصلة إلى التصور الإسلامي عن سيدنا عيسى عليه السلام، وإن كان لا يضيرنا أن نذكّر به أولئك الذين يتهمون الإسلام بأنه دين يحث على الكراهية (المترجم).

(**) فيلسوف صيني شهير عاش بين سنتي 551 و479 ق. م، وكانت تعاليمه تحث على الترابط العائلي والاجتماعي (المترجم).

facebook.com/ketabme

وتفكك المجتمع[1]. إن المبشّـر الذي يجيء ويقـول: «اتبعني»، يعمل، في حقيقة الأمر، على تفكيك الأسـرة، وإن كان لا يشـعر بنتائج عمله ولا يحس بأي عداء نحو الأسرة، ولا توجـد لديـه نية تحطمها. لقد قيل عندما كان القديسـ برنارد[*] يعظ: إن تأثيره كان مـن القوة «بحيث إن الأمهات أخفـين أولادهن منه، وأخفت الزوجات أزواجهن؛ حتـى لا يبعدهم عن الأسـرة. لقد حطم عددًا كبيرًا من الأسـر، حتـى إن الزوجات المهجورات اضطررن إلى إنشاء دير للعيش فيه»[2].

يمكـن للمرء أن يتوقع أن تفكك عرى الأسـرة، مهما كان سـببه، يسـاعد على نشوء روح جماعية، ويخلق حافزًا للاستجابة إلى نداء الحركات الثورية.

أدّى غزو اليابان الصين، بلا شك ، إلى هدم روابط الأسرة الصينية، وساعد على نشـوء الاستجابة للنداءات القومية والشـيوعية. أمّا في العالم الصناعي، فقد تفككت عرى الأسـرة بسـبب العوامل الاقتصـادية. من ناحية، أدى استقلال المرأة عن زوجها إلى تسـهيل الطلاق. ومن ناحية ثانية، أدّى اسـتقلال الأبناء عن آبائهم إلى إضعاف السلطة الأبوية، وساعد على تفكيك الأسرة في وقت مبكر. ومن ناحية ثالثة، أدى النزوح الكبير من الأرياف والقرى إلى الحواضر الصناعية الكبرى إلى إضعاف الروابط العائلية. كل هذه العوامل شاركت، عبر إضعاف الأسرة، في ظهور الحركات الجماهيرية في العصور الحديثة.

إن مـا قام به هتلـر من تهجير جنوني لشـعوب بأكملها خلال الحـرب العالمية الثانية، بالإضـافة إلى ما قام به من إبادة عنصـرية، أدّى، بلا شك، إلى اضطراب هائل مسَّ ملايين الأسر عبر جزء كبير من أوروبا. كما أن الهجمات الجوية الأمريكية

(1) Kenneth Scot Latourette, the Chinese, their History And Culture (New York: Macmillan Company, 1946) Vol. 1, p. 79.

(*) عاش بين سنتي 923 - 1009م (المترجم).

(2) Brooks Adams, the Law of Civilization And Decay (New York: Alfrea A. Kno pf, inc, 1943), p. 142.

facebook.com/ketabme

على ألمانيا، وطرد تسعة ملايين ألماني من شرق أوروبا وجنوبها، والبطء في الإفراج عن سجناء الحرب الألمان عوامل تسببت في دمار داخل ألمانيا، كالدمار الذي نشرته ألمانيا، بقيادة هتلر، في أوروبا. من الصعب على المرء أن يرى كيف يمكن لقارة تتناثر أسرها في كل مكان أن تخلد إلى نمط اجتماعي مستقر، حتى في ظل الظروف الاقتصادية والسياسية المواتية(*).

33

لا ينشأ التململ الذي تشهده البلاد المتخلفة عندما تتّصل بالحضارة الغربية من النقمة على الغربيين الذين يهيمنون على مقدّراتها ويستغلونها بقدر ما يعود إلى تهاوي التضامن القبلي وتآكل التضامن الاجتماعي.

إن نموذج تطوير الذات الذي تطرحه الحضارة الغربية أمام الشعوب المتخلفة يأتي ومعه وباء الإحباط الفردي. كل ما يجلبه الغرب من مزايا لا يعادل شعور الطمأنينة الذي كان الفرد يشعر به، وهو في أحضان بيئة مترابطة. حتى عندما يحصل المواطن المحلّي الذي يقلد الغرب على ثروة، أو يتقن مهنة محترمة، فإنه يظلُّ شقيًا، يظلّ يشعر بالغربة واليتم. والحركات القومية في البلاد المستعمرة هي، إلى حد ما، محاولة لاستعادة الوجود الجماعي الذي سبق الاستعمار وللإفلات من الفردية الغربية.

حاولت الدول الغربية الاستعمارية أن تقدّم للسكان المحليين هدية الحرّية الفردية وما يتبعها من استقلال فردي، وحاولت تعليمهم الاعتماد على الذات، إلا أن المحصلة النهائية كانت شعور الفرد بالعزلة. ما حدث هو أن الفرد قُطع،

(*) استطاعت الظروف الاقتصادية والسياسية المواتية أن تحول دون وقوع القلاقل الاجتماعية التي توقعها المؤلف في أوروبا (المترجم).

facebook.com/ketabme

وهو لم يزل غير ناضج وغير مستعد، من وجوده الجماعي المترابط وطلب منه أن يمارس ما وصفه خوميكاوف «بحرية العجز».[1] إن الرغبة المحمومة في الذوبان في الجماهير التي تشهدها الدول الغربية، كما تشهدها مستعمراتها هي تعبير عن محاولة يائسة للإفلات من وجود فردي بلا فاعلية وبلا معنى. ومن هنا فلا نستبعد أن الحركات القومية في آسيا، وبلا تأثير من روسيا، ستقود لا إلى حكم ديمقراطي، بل إلى الديكتاتورية.(*)

يجب على الدولة الاستعمارية أن تنمّي الترابط الاجتماعي وروح المساواة والإخاء بين السكان المحليين. بقدر ما يذوب الفرد، ويذيب ذاته في جماعة متماسكة بقدر ما يخف شعوره بالإحباط الفردي، ويمكن إيقاف نزعاته الثورية قبل أن تبدأ. إن سياسة فرّق تسدْ سياسة فاشلة، عندما تستهدف القضاء على كل الروابط بين أفراد الشعب المستعمر. إن تفكيك مجتمع القرية، أو مجتمع القبيلة، أو مجتمع الدولة، وتحويله إلى أفراد مستقلين لا يقضي على روح التمرد ضد المستعمر. إن القرية الفاعلة، حقًا، هي التي تشجع قيام مجموعات مترابطة، عرقية ودينية واقتصادية، ثم إذكاء المنافسة والصراع فيما بينها.

حتى عندما نفترض وجود أحسن النوايا لدى الدولة الاستعمارية، عندما نفترض أن هدفها الوحيد هو نشر الرخاء والتقدم بين الشعوب المتخلفة، فإن على هذه الدولة تشجيع الروابط الاجتماعية. وهي تحسن صنعًا إذا لم تركّز على تطوير الفرد ووجّهت جهودها الإصلاحية التطويرية عبر قنوات القبيلة والمجتمع على نحو يؤدي إلى تطوير هاتين المؤسستين. إن التحديث الناجح في شعب متخلّف لا يمكن أن يتم إلا عبر إطار قويّ من العمل الموحّد. إن تطور اليابان المذهل لم يكن ليتم لولا المحيط المشحون بالعمل الجماعي والشعور بالانتماء القويّ إلى الجماعة.

---

(1) Quoted By Nicolas Zernov, three Russian Prophets (Toronto: Macmillan Company, 1944), p. 63.

(*) ما توقعه المؤلف حدث بالفعل. (المترجم).

facebook.com/ketabme

تتمثل ميزة روسيا السوفييتية كقوة استعمارية، بالإضافة إلى تحرّرها من العنصرية العرقية، في كونها تقدّم نموذجًا حيًّا للعمل الموحّد. عن طريق هذا النموذج تستطيع روسيا السوفييتية أن تزيل عمدًا كل الروابط الجماعية دون الخشية من ظهور ما يعقب زوالها من نقمة فردية وتمرّد. لا يُترك الفرد السوفييتي بمفرده يكافح في بيئة غريبة، بل على العكس، يجد نفسه واحدًا من مجموعة متماسكة أشد ترابطًا من العشيرة أو القبيلة التي كان ينتمي إليها.

إن تشجيع الترابط الاجتماعي كوسيلة لمنع التمرد في المستعمرات يمكن أن يستخدم في مجال آخر هو منع الاضطرابات العمالية داخل البلاد الصناعية الاستعمارية.

إن ربّ العمل الذي يودّ إبقاء عماله منهمكين في العمل، واستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من جهودهم لن يحقق هدفه بإثارة الفرقة بينهم وتحريض العامل على العامل. إن مصلحته تتطلب أن يشعر العمال أنهم جزء من مجموعة، وأن هذه المجموعة تشمل رب العمل نفسه. إن الشعور العميق بالتضامن، سواء كان عرقيًا أو قوميًا أو دينيًا، هو خير ضمانة ضد الاضطرابات العمّالية.

وحتى عندما يكون التضامن ذا طبيعة لا تسمح بإدخال رب العمل في دائرته، فإنه يقود إلى تعزيز الشعور بالرضا بين العمّال وزيادة فاعليتهم. إن التجربة تدلّ على أن الإنتاج يبلغ أعلى مستوياته، حين يشعر العمال أنهم أعضاء في فريق واحد، ويتصرفون على هذا الأساس، وأي سياسة تستهدف تفكيك الفريق تؤدّي إلى نتائج وخيمة. إن ضرر الحوافز والمزايا المادية التي تقدم على أساس فردي أكثر من نفعها. الحوافز الجماعية وحدها التي تقدم المزايا المادية على أساس أداء الفريق بأكمله، بمن فيهم المراقب الذي يمثل رب العمل، هي التي تؤدي إلى رفع الإنتاجية وزيادة الشعور بالرضا بين العمّال[1].

(1) Peter F. Drucker, «the way to Industrial Peace», Hapere Magazine, Nov. 1946 p. 392.

facebook.com/ketabme

34

لا تستميل الحركة الجماهيرية الصاعدة الأتباع وتحتفظ بولائهم اعتمادًا على عقيدتها أو وعودها، ولكن لأنها تتحوّل إلى ملجأ يأوي إليه الأفراد الهاربين من مشاعر القلق والخواء والضياع. وهي لا تعالج المحبطين المتذمرين بإعطائهم حقيقة مطلقة، أو بالقضاء على الصعوبات والظلامات التي جعلت حياتهم بائسة، ولكن بتحريرهم من نفوسهم الفاشلة وضمهم إلى مجموعة سعيدة شديدة الترابط.

من الواضح، إذًا، أنه لكي تنجح الحركة الجماهيرية، فلا بد لها من تطوير تنظيم جماعي متماسك قادر على اجتذاب القادمين وصهرهم، ليس من المجدي عند تحليل حركة جماهيرية صاعدة أن تفحص عقيدتها، أو أن تتأكد من صدق وعودها: العامل الحاسم هو تنظيمها الجماعي الذي يستطيع صهر المحبطين فيه صهرًا كاملًا. وعندما تتنافس عدة عقائد على ولاء الجماهير، فإن العقيدة التي ستنتصر هي العقيدة التي تتقن بناء الإطار الجماعي. وإذا عدنا إلى العصر اليوناني/ الروماني، فإننا سنجد أن المسيحية كانت وحدها، بين كل الأديان والفلسفات التي ظهرت، القادرة على إيجاد تنظيم جماعي. لم يمتلك أي من منافس الكنيسة تنظيمها القوي المتماسك، ولم يتمكن أحد غيرها من منح الأتباع الشعور بالانتماء إلى مجتمع موحّد مترابط»[1]. تمكنت الحركة البلشفية من التغلب على منافسيها من الحركات الماركسية، بفضل تنظيمها الجماعي المحكم. كما أن النازية استطاعت التغلب على كل الحركات الشعبية التي عاصرتها في ألمانيا في العشرينيات؛ لأن هتلر أدرك، في وقت مبكّر، أنه لا يمكن أن تنجح حركة جماهيرية صاعدة من دون تنظيم جماعي فاعل. أدرك هتلر مدى شوق المحبطين إلى «الانتماء»، الذوبان في كيان جماعي موحّد.

(1) Kenneth scott Latourette, A History of the Expansion of Christianity (New York: Harper And Brothers, 1937), vol 1, p. 164.

facebook.com/ketabme

35

إن البيئة المناسبة لظهور الحركات الجماهيرية وانتشارها هي البيئة التي عرفت في الماضي تنظيمًا جماعيًا تخلخل، لسبب أو لآخر. كانت الحقبة التي شهدت ظهور المسيحية وانتشارها حقبة «انتزع فيها كثير من الناس من جذورهم... واندمجت المدن/ الدول المتماسكة في أمبراطورية شاسعة واحدة.. وتعرضت الروابط السياسية والاجتماعية القديمة للضعف أو الانهيار»[1].

حققت المسيحية أعظم إنجازاتها في المدن الكبرى «حيث عاش الآلاف المقتلعون من جذورهم، من عبيد وأحرار وتجّار، بعد أن غادروا بيئاتهم التقليدية، مضطرين أو متطوعين»[2]. أمّا في الريف، حيث ظلت الروابط الجماعية قوية، فإن الدين الجديد لم يتمكن من التغلغل. كان سكان القرى والمزارعون أكثر الناس تعلقًا بمعتقداتهم القديمة[*]. وهناك مثل مشابه يمكن أن نلاحظه في صعود الحركات القومية والاشتراكية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر: «ساعدت حركة السكان المستمرة، وما زامنها من زحف نحو المدن، خلال تلك العقود على إيجاد عدد هائل من الأشخاص المقتلعين من تربتهم التقليدية وولاءاتهم المحلية. أصبح هؤلاء، مدفوعين بمتاعبهم الاقتصادية ومشكلاتهم النفسية، ضحية للادعاءات الغوغائية، سواء كانت اشتراكية أو قومية، أو الاثنين معًا»[3].

---

(1) ibid, p. 23.

(2) Ibid, p. 163.

(*) يذهب المؤلف إلى أن كلمة Pagan الإنجليزية، التي تعني الوثني مشتقة من كلمة Pagani الرومانية، التي تعني القروي، وكلمة Heathen التي تعني الكافر، مشتقة من الكلمة الرومانية التي تعني الفلاح (المترجم).

(3) Carlton J. H. Hayes, A Generation of Materialism (New York: Harper And Brothers 1941) p. 254.

facebook.com/ketabme

يبدو أن القاعدة هي أنه بمجرّد أن يضعف نمط من التنظيم الجماعي تصبح الظروف مواتية لصعود حركة جماهيرية ونجاحها في إيجاد تنظيم جماعي أشد تماسكًا وقوة من التنظيم المنهار. وعندما تخفف كنيسة ما من قبضتها يصبح من المتوقع نشوء حركات دينية جديدة. يلاحظ جورج هـ. ويلز أن حركة الإصلاح البروتستانتية لم تعترض على قوة الكنيسة، ولكن على ضعفها. لم تكن الحركات الموجهة ضد الكنيسة، سواء من داخلها أو خارجها، تستهدف الخلاص من السلطة الدينية، بقدر ما كانت تتوق إلى سيطرة دينية أقوى وأوسع نطاقًا»[1]. وعندما يضعف تأثير الدين بسبب الخلافات داخله، فإنه من المتوقع أن تكون الحركات الصاعدة اشتراكية أو قومية أو عرقية. إن الثورة الفرنسية، التي شكلت في الوقت نفسه حركة قومية، جاءت رد فعل، لا على طغيان الكنيسة الكاثوليكية والنظام القديم، بل على ضعف هاتين المؤسستين وانعدام فاعليتهما. عندما يثور الناس في مجتمع ديكتاتوري، فإنهم لا يثورون على ظلم النظام، بل على ضعفه.

عندما يكون الترابط قويًا يصعب على الحركة الجماهيرية أن تجد مكانًا. كانت روح التضامن بين اليهود، سواءً في فلسطين أو خارجها، سببًا من أسباب فشل المسيحية في الوصول إليهم. أدى تحطيم الهيكل إلى تقوية الروابط بينهم، إذ أصبح كل معبد محلّي والعابدون فيه محط الولاء الذي كان يتجه في السابق إلى الهيكل. في وقت لاحق، عندما تمكنت المسيحية من عزل اليهود في أحياء منفصلة (الجيتو)، أعطت تضامنهم دفعة قوية وأسهمت، عن غير قصد، في إبقاء الديانة اليهودية(*) حيّة عبر العصور. وعندما جاءت حركة التنوير(*) في أوروبا هزت

(1) H.G. Wells, the Outling of History (New York: Macmillan Company, 1922) p. 719.

(*) يقصد «بالتنوير» عادة، ما شهدته أوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر من ثورات فكرية ناقشت الموروث واعتمدت المنطق أساسًا لها، وطال تأثيرها الأديان والفلسفة والأدب والسياسة (المترجم).

facebook.com/ketabme

معتقـدات اليهـود التقليدية بقدر ما هزّت جدران (الجيتـو). فجأة، لأول مرة منذ عهود طويلة، وجد اليهودي نفسـه يعيش بمفرده ويحس بالوحدة الشـديدة في عالم معادٍ. لم يكن أمامه كيان جماعي يستطيع أن يندمج معه ويذيب فيه ذاته. تحولت المعابد إلى مؤسسات متهاوية بلا حياة، وحالت تقاليد ألفي سنة بينه وبين الاندماج في الكيانات المسيحية الجماعية. هكذا أصبح اليهودي المعاصر أكثر الناس وحدة وعزلة، ومن ثم أشدهم إحباطًا. لا نستغرب، والحالة هذه، إذا وجدت الحركات الجماهيرية الصاعدة أتباعًا كثيرين من اليهود. ولا نستغرب عندما ترى اليهودي يجوب الآفاق؛ بحثًا عما يخفف إحباطه عبر التجارة أو الهجرة، أو عندما نراه منغمسًا بكليته في جهود خارقة لكي يبرهن، عبر الإنجازات المادية أو الأعمال الإبداعية، عن قدراته الفردية. لم تبقَ سوى جماعة صغيرة واحدة يستطيع أن يوجدها بنفسه، هي الأسرة، وكان تعلقه بها شديدًا. إلا أن هتلر قضى على هذه الجماعة، في أوروبا على أي حال، عن طريق مراكز الاعتقال وحمامات الغاز، مما جعل اليهودي الأوروبي المرشح المثالي للانضمام إلى حركة جماهيرية. وفي هذه الظروف، في أحلك ساعاته سوادًا، جاءت الحركة الصهيونية مرحّبة بدمجه في كيانها الجماعي وإنقاذه من الشعور بالعزلة. تحولت إسرائيل، في نظر الصهاينة، إلى ملجأ من نوع جديد: أصبحت الوطن والعائلة، والمعبد ومرتادي المعبد، والأمة والحزب الثوري، كل هذا في وقت واحد.

إن تاريخ ألمانيا الحديث يزودنا بمثال مهم عن العلاقة بين الرابطة الجماعية القوية والاستجابة للحركات الجماهيرية. لم يكن هناك أي احتمال لقيام حركة ثورية حقيقية في ألمانيا القيصرية. كان الألمان راضين عن السلطة المركزية التي مثلها النظام القيصري، ولم يتخلخل حبهم للنظام حتى بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى. لم تكن ثورة 1918م، ثورة حقيقية، بل مجرد حركة على السطح لم

facebook.com/ketabme

تتمتع بأي دعم شعبي. إلا أن جمهورية وايمار(*) التي تلت الثورة لم تجلب لمعظم الألمان سوى الاستياء والإحباط. كانوا متعودين على الأوامر التي تأتي من أعلى، وعلى احترام السلطة، ولم يجدوا في النظام الديمقراطي سوى التسيب والفوضى. صدموا عندما اكتشفوا أن عليهم المساهمة في الحكومة واختيار الحزب، وعليهم أن يصدروا أحكامهم في الشؤون السياسية»[1] كانوا يتطلعون إلى نظام جماعي مركزي شمولي ذي رأس واحد يغدق نظام القيصر حزمًا، وجاء «الرايخ» الثالث مستجيبًا لتطلعاتهم. لم يكن النظام النازي بعد أن وطد أركانه في خطر من ثورة شعبية: ما دامت القيادة النازية مستعدة لاتخاذ القرارات كلها وتحمل المسؤوليات كلها. لم يكن هناك أي مجال لاستياء شعبي. لو أن النظام النازي خفف من وطأته لكان هناك خطر حقيقي عليه. ما قاله دي توكيفيل عن الحكومة المستبدة ينطبق على كل الأنظمة الشمولية: تصل هذه الأنظمة إلى نقطة الخطر حين تبدأ في الإصلاح وتبدي نزعات ليبرالية[2].

والمثال الأخير الذي يؤكد نظريتنا أن الكيانات المترابطة محصنة ضد الحركات الجماهيرية، وأن تهاويها يوجد البيئة المثالية لهذه الحركات هو العلاقة بين الجيش والحركات الجماهيرية. لا تكاد توجد حالة واحدة نجد فيها جيشًا متماسكًا يولّد حركة دينية أو ثورية أو قومية. ومن الناحية الأخرى، فالجيش المفكك، سواء نتيجة قرار حكومي بتسريحه، أو لفرار الجنود نتيجة الإحباط، يشكل بيئة مثالية لمثل هذه الحركات. إن الرجل المسرّح لتوّه من الجيش مرشح مثالي للحركات الثورية(**)

(*) أقامت ثورة 1918م نظامًا برلمانيًا ديمقراطيًا، واستمد النظام اسمه من اسم المدينة التي وضع فيها الدستور (المترجم).

(1) Theodore A bel, why Hitler Came Into Power (New York: Prentice- Hall, 1938) p. 150.

(2) Alexis de Tocquville, op. cit, p. 152.

(**) ما حصل في العراق بعد حل الجيش العراقي في أعقاب الغزو الأمريكي من انضمام جنوده إلى مختلف الميليشيات يؤكد صحة الملاحظة التي أبداها المؤلف (المترجم).

facebook.com/ketabme

ولهذا نجد الجنود المسرّحين من أوائل الذين انضموا إلى الحركات الجماهيرية المعاصرة. يشعر هذا الجندي السابق بالغربة والضياع في مجتمع مدني متسيّب وتنغصّ مسؤولية الاستقلال الفردي عليه حياته. يتطلع هذا الرجل إلى اليقين ورفقة السلاح وإلى التخلص من عبء المسؤولية، يتطلع إلى شيء يختلف كليّة عن الحياة المدنية التي تحيط به، ويجد كل ما يحلم به في الأخوة التي يتيحها محيط الحركات الجماهيرية الصاعدة.

facebook.com/ketabme

الفصل السادس

العاجزون عن التأقلم

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

36

إن إحباط العاجزين عن التأقلم يتراوح في شدته من حالة إلى أخرى. هناك، أولًا، العاجزون عن التأقلم بصفة مؤقتة: أولئك الذين لم يجدوا بعد موقعهم في الحياة ولكنهم لا يزالون يأملون في الحصول عليه. ينتمي المراهقون، وخريجو الجامعة العاطلون، والجنود المسرّحون، والمهاجرون الجدد، إلى هذه الفئة. نجد كل هؤلاء قلقين متذمّرين يسيطر عليهم الخوف من أن أحسن سنوات عمرهم سوف تذهب هدرًا قبل أن يحققوا أهدافهم. يستمع هؤلاء إلى نداءات الحركات الجماهيرية، ولكنهم ليسوا أفضل المرشحين للانضمام إليها. يكمن السبب في أنهم لم يفقدوا الصلة نهائيًا مع نفوسهم، وأنهم لا يعدّون حياتهم ميؤوسًا منها. إن أقل بارقة من الأمل تعيدهم إلى التأقلم مع العالم ومع نفوسهم.

سبقت الإشارة إلى دور الجنود المسرّحين في نشأة الحركات الجماهيرية. أن أي حرب طويلة تشترك فيها جيوش عدة دول تنتهي بفترة من الاضطراب الاجتماعي بين المنتصرين والمهزومين على حد سواء. لا يعود السبب في هذا إلى العواطف الجياشة التي تفجّرت، ولا إلى طعم العنف خلال الحرب، ولا إلى فقدان الثقة في النظام الذي لم يستطع منع الخسارة في الأموال والأرواح. يعود السبب إلى خواء الروتين المدني في حياة الملايين من الجنود المسرحين. يصعب على هؤلاء أن يستعيدوا وتيرة الحياة المدنية التي فقدوها مع الحرب. إن التأقلم مع السلام ومع الحياة في الوطن عملية بطيئة ومؤلمة، تمتلأ خلالها البلاد بالعاجزين مؤقتًا عن التأقلم.

facebook.com/ketabme

وهكذا، فإنه يبدو أن العبور من الحرب إلى السلام أخطر على النظام القائم من العبور من السلام إلى الحرب(*).

37

أمّا العاجزون عن التأقلم عجزًا دائمًا فهم أولئك الذين لا يستطيعون، بسبب نقص في الموهبة أو عيب آخر لا يقبل العلاج في الجسم أو العقل، من تحقيق الشيء الوحيد الذي يصبو كيانهم كله إلى تحقيقه. وأي إنجاز، مهما كان باهرًا، خارج المجال الذي يريدونه لا يعطيهم أي شعور بالرضا. يحوّل هؤلاء كل مسعى في حياتهم إلى مطاردة محمومة، من غير أن يتمكنوا من التوقف أو من الوصول إلى الهدف. يثبت هؤلاء أننا لا نشعر بالرضا عند تحقيق شيء غير الشيء الذي نريده، وإننا نجري أسرع ما نجري، عندما نهرب من أنفسنا.

إن العاجزين عن التأقلم عجزًا دائمًا لا يرون خلاصًا إلا في الانفصال التام عن أنفسهم وهم يجدون هذا الانفصال، عادة، في الرابطة الجماعية الصلبة التي توجدها الحركة الجماهيرية. عندما يتحررون من الإرادة الفردية، والمنطق الفردي، والطموح الفردي، وعندما يكرسون كل جهودهم لخدمة القضية الخالدة، عندها، فقط، يستطيعون الإفلات من جهدهم الفردي العبثي الذي لا يقود إلى نتيجة.

نجد أشد المتطرفين إحباطًا، ومن ثم أكثرهم تطرفًا، بين العاجزين عجزًا دائمًا عن التأقلم، أولئك الذين يحترقون بشوق قويّ عارم إلى الإبداع دون أن يتمكنوا من الإبداع: أولئك الذين يحاولون أن يكتبوا أو يرسموا، أو يؤلفوا الموسيقى،

(*) ولعلّ هذا هو السبب الذي دفع الرئيس العراقي صدام حسين إلى إبقاء الجزء الأكبر من جيشه بعد انتهاء الحرب مع إيران، ثم إلى شغل الجيش كلّه بمغامرة غزو الكويت (المترجم).

facebook.com/ketabme

ومن إليهم، ويفشــلون فشلًا تامًا، بالإضافة إلى أولئك الذين تذوقوا نشوة الإبداع، ثم خبت الجذوة بلا أمل في عودتها. كل أولئك يشــعرون بيأس خانق، وأي شــهرة أو ثروة أو ســلطة، أو أي إنجازات أخرى باهرة، لا تنجح في ري غليلهم. حتى الاندفاع في خدمة قضــايا مقدّســة قد لا ينجح، أحيانًا، في علاجهم. يظل جوعهم مستعرًا، الأمر الذي يجعلهم أكثر المتطرفين عنفًا في سبيل القضية المقدّسة.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل السابع

الأنانيون أنانية مفرطة

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

38

إن الأنانيين أنانية مفرطة معرضون، بصفة خاصة، للإحباط.

كلَّما زادت أنانية الشخص كلَّما كانت خيبته أشد إيلامًا، ومن المفارقات هنا أن الأنانيين أنانية مفرطة هم الذين يحتمل أن يصبحوا أبطال الدعوة إلى إنكار الذات.

إن أشد المتطرفين عنفًا كثيرًا ما يكونون أشخاصًا أنانيين أجبروا، بسبب عيب شخصي أو ظروف خارجة، على فقدان الثقة في أنفسهم، الأمر الذي يدفعهم إلى أن يسخروا سلاح أنانيتهم الفردية لخدمة قضية مقدّسة. برغم أن هؤلاء يدعون إلى الحب والتواضع فهم، في الحقيقة، أبعد ما يكونون عن الحب والتواضع.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل الثامن

الطموحون الذين يواجهون فرصاً غير محدودة

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

39

قد تكون الفرص غير المحدودة سببًا في الإحباط، شأنها شأن الفرص النادرة أو المعدومة. عندما تكون فرص المستقبل بلا حدود، فلا بد أن ينعكس هذا على هيئة رفض للحاضر. يصبح موقف الشخص: «كل ما أقوم به أو يمكن أن أقوم به لا شيء، مقارنة بما يمكن تحقيقه في المستقبل. هذا هو نوع الإحباط الذي نجده عند المغامرين الباحثين عن الترهيب، كما نجده في كثير من العقول خلال فترات الازدهار الاقتصادي.

وهنا نرى هذه المفارقة: نجد عند الباحثين عن الترهيب وسارقي الأراضي وبقية المغامرين الذين يريدون الإثراء بأسرع وسيلة، كما نجد عند ذوي الأنانية المفرطة استعدادًا دائمًا للتضحية والعمل الجماعي. إن نداءات القومية، والتضامن العرقي، والثورة تجد استجابة بين الأشخاص الذين يرون فرصًا لا حدود لها في المستقبل تفوق الاستجابة التي توجد بين أشخاص يعيشون حياة يومية رتيبة يمكن توقع كل ما فيها.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل التاسع

الأقليات

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

40

إن وضع الأقلية حرج دائمًا بصرف النظر عن الضمانات المستمدة من القانون أو من القوة التي تتمتّع الأقلية بها. إن الإحباط الذي ينشأ من عدم الشعور بالأمن ينقص في حالة الأقلية التي تنوي الحفاظ على هويتها، ويزيد في حالة الأقلية التي قررت التفكك والذوبان في المجتمع. إن الأقلية التي تحافظ على هويتها تشكل، بالضرورة، كلاًّ مترابطًا يحمي الفرد ويعطيه شعورًا بالانتماء وتحصينه ضد الإحباط. ومن الناحية الأخرى، في الأقلية التي تنوي الاندماج يجد الفرد نفسه واقفًا بمفرده يواجه التفرقة العنصرية والاضطهاد. وفوق ذلك، فهو يعاني شعورًا بالذنب، مهما كان الشعور غامضًا أو باهتًا. إن اليهودي الأرثوذكسي المتمسك بهويته أقل إحباطًا من اليهودي المتحرر المستعد للاندماج.، كما أن الزنجي المعزول عن البيض في جنوب الولايات المتحدة أقل شعورًا بالإحباط من الزنجي الذي تحرّر في الشمال.

نجد داخل الأقلية التي تنوي الاندماج فئتين، الأكثر نجاحًا والأقل نجاحًا (اقتصاديًا واجتماعيًا)، هما أشد عرضة للإحباط من الفئات الأخرى. إن الشخص الذي يفشل يشعر بعدم الانتماء، وعندما يكون فردًا من أقلية تنوي الذوبان في الأغلبية، فإن شعوره بالفشل يتضاعف مع شعوره بعدم الانتماء إلى الأغلبية. ونجد الشعور نفسه في أفراد الأقلية الذين وصلوا إلى قمة السّلم الاقتصادي والثقافي. هؤلاء ينجحون في الحصول على الثروة والشهرة، ولكنهم يجدون من الصعب أن يخترقوا دوائر النجاح المغلقة على الأغلبية، ومن هنا يبدأ إحساسهم بالغربة. وبالإضافة إلى هذا الإحساس، فإن ثقتهم في تفوقهم الفردي تجعلهم ينفرون من الاعتراف بالنقص الذي يواكب عملية الاندماج.

وهكذا نرى أن أقل الناس نجاحًا وأكثرهم نجاحًا في أقلية تنوي الذوبان هم الأكثر استجابة لنداء الحركة الجماهيرية.

إن أكثر الإيطاليين الأمريكيين نجاحًا وأقلهم نجاحًا كانوا أكثر المتعصبين

facebook.com/ketabme

لثـورة موسـوليني(*)، كما أن أكـثر الأيرلنديين/ الأمريكيين نجاحًـا وأقلهم نجاحًا كانوا الأكثر اسـتجابة لثورة دي ڤالـيرا(**). وكان أكثر اليهود نجاحًا وأقلهم نجاحًا الأسرع في الانضمام إلى الصهيونية؛ وأكثر السود نجاحًا وأقلهم نجاحًا هم أشدهم شعورًا بالفوارق الطبيعية بين السود والبيض.

(*) أسس الزعيم الإيطالي بنيتو موسوليني (1883 - 1945م) الحزب الناشئ سنة 1919م وتمكن من الوصول إلى السلطة من سنة 1922م، وقاد إيطاليا إلى حلف مع ألمانيا النازية ومات مقتولًا مع نهاية الحرب العالمية الثانية على يد عصابات من بني وطنه (المترجم).

(**) تمكـن الزعيم الشـوري الأيرلندي إيمون دي ڤالـيرا (1882 - 1975م) من انتزاع اسـتقلال أيرلندا من الكومونولث البريطاني سنة 1937م- وتولى الحكم مدة طويلة بعد الاستقلال (المترجم).

facebook.com/ketabme

الفصل العاشر

الملولون

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

41

لعله لا يوجد مؤشر على نضج مجتمع ما للحركة الجماهيرية أدق من انتشار الملل الذي لا يجدي معه علاج. في كل التحليلات التي تتناول فترات ما قبل الحركة الجماهيرية هناك إشارة إلى شعور عام باللامبالاة، وتجد الحركة الصاعدة من المتعاطفين والمتحمسين بين الملولين أكثر مما تجده بين ضحايا الاستغلال والظلم. يفرح الذي يحاول نشر حركة جماهيرية، حين يرى الناس يعانون الملل الخانق، مثلما يفرح حين يجدهم يعانون وطأة ظلامات اقتصادية أو سياسية لا تطاق.

عندما يشعر الناس بالملل فإنهم، في الحقيقة، يملّون أنفسهم مصدر الملل الأول هو الشعور بخواء الحياة، وبافتقارها إلى أي معنى. إن الأشخاص الذين لا يشعرون بالعزلة، كأولئك المنتمين إلى وحدة قبلية، أو إلى كنيسة، أو إلى حزب، لا يكونون، عادة، عرضة للملل، ولا يشعر الإنسان بالملل عندما يكون منهمكًا في عمل إبداعي، أو في مهنة تستنفد طاقاته، أو في صراع دائب من أجل العيش. والبحث عن العزو، وما يتبعه من انحلال، ليس علاجًا ناجعًا للملل. عندما يعيش الناس ضمن وجود منعزل، وتكون أحوالهم المالية جيدة، إلا أنهم لا يتمتعون بأي مواهب أو فرص للإبداع أو العمل النافع، فإنهم يلجؤون إلى تصرفات غريبة وتقلبات مدهشة على أمل إضفاء قدر من المعنى والهدف على وجودهم.

والملل هو الذي فسّر لنا ظاهرة أخرى: كثرة العوانس والسيدات اللواتي تجاوزن منتصف العمر في بدايات الحركات الجماهيرية. حتى عندما نكون بصدد حركة لا ترحب بعمل المرأة خارج المنزل، كالنازية، نجد نساءً كالمشار إليهن يؤدين دورًا كبيرًا في نشأة الحركة(*). هناك شبه، من نوع ما، بين انضمام المرأة إلى زوج

(*) يرى المؤلف أن الظاهرة نفسها تنطبق على الإسلام أول ظهوره، وما ذكره موضع نظر ولا دليل عليه (المترجم).

facebook.com/ketabme

وانضـمامها إلى حركة جماهيرية. في الحالتين هناك هدف جديد ومستقبل جديد وهوية جديدة (اسـم جديد). إن الملل الذي تشـعر به العوانس والنسـاء اللواتي لم يعد بوسعهن العثور على السعادة والرضا في الزواج ناتج أساسًا عن ضيقهن بحياة عقيمة فاشلة. وعندما يعتنق هؤلاء النسوة قضية مقدّسة يسخرن لها وجودهن كلّه وطاقاتهم كلها، فإنهن يجدن حياة جديدة مليئة بالمعنى والهدف.

اسـتغلّ هتلـر، بشـكل بارع، سـيدات المجتمع الظامئـات إلى المغامـرة اللاتي سـئمن حياتهن الفارغة، ولم يجدن أي متعة في العلاقـات العاطفية»[1] تلقى هتلر مسـاعدات مالية من زوجات أعظم الصـنـاعيين في ألمانيا قبل أن يسـمع أزواجهن بـه[2]. وتتحدث ميريـام بيرد عن دور مماثل لزوجات رجـال الأعمال الملولات قبل الثورة الفرنسـية: «كن مسـحوقات بالملل والضـيق والقلق، فاندفعـن إلى الترحيب بالجديد القادم»[3].

(1) Herman Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. P. Putnam's Sons, 1940), P. 2688.

(2) Ibid.

(3) Mirian Beard, A History of The Bus, Nessman, (New York: Macmillan Company, 1938), P. 462.

facebook.com/ketabme

الفصل الحادي عشر

مرتكبو المعاصي

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

42

إن العبارة التي تزعم أن التعصب الوطني هو الملاذ الأخير للمنحلّين هزل ينطوي على شيء من الجدّ، كثيرًا ما تكون الوطنية المحمومة، أو الحماسة الدينية أو الثورية، مهربًا من تعذيب الضمير(*). ومن الغريب أن الجاني والمجني عليه، المجرم والضحية، قد يجدون في الحركة الجماهيرية الخلاص من حياة ملوثة. يبدو أن الشعور بالظلم والشعور بالندم يدفعان الناس في الاتجاه نفسه.

يظهر أحيانًا أن الحركة الجماهيرية مصممة خصيصًا؛ لتلائم احتياجات مرتكبي المعاصي، من حيث تطهير نفسه وإتاحة الفرصة له لممارسة نزعاته ومواهبه. يستهدف أسلوب الدعوة إلى الحركة أن يثير في نفوس الأتباع شعورًا يماثل شعور المجرم التائب(1). إن الاستسلام التام، وهو المصدر الذي يمد الحركة بوحدتها وحيويتها، هو تضحية، تعبير عن الندم، ومن الواضح أنه لا يوجد ما يستوجب التضحية أو الندم ما لم يكن هناك شعور عميق بالذنب. يقول أحد رجال الدين المسيحيين: «يا لصعوبة المهمة التي تقابل الواعظ وهو يبشر بالخلاص أناسًا لا يشعرون بالذنب»(1) تنمي الحركة أول ما تنمّي عند أتباعها شعورًا عميقًا بالذنب، أي أنها لا تكتفي بتصوير نفس الفرد على أنها عقيمة وبائسة، بل تضيف

(*) في المملكة العربية السعودية تبين أن عددًا لا يستهان به من المنضمين إلى الخلايا الإرهابية كانوا في السابق يتعاطون المخدرات (المترجم).

(1) «سوف يكون هناك سرور في السماء بمجرم واحد يفوق السرور بتسعة وتسعين شخصًا تقيًا لا يحتاجون إلى تربية» انظر Luke 15 :7. و«المكان الذي يقف فيه التائب لا يستحق الأتقياء أن يقفوا فيه» كما جاء في التلمود. انظر: Joseph Klausner, Jesus Of Naze Reth, P. 380.

(1) A Letter In Life, Dec. 23, 1946 Written By R. S. Aldrich.

facebook.com/ketabme

أنهـا ملوثـة. إن الاعتراف والندم هما سـبيل الفرد إلى التخلص مـن ذاته، وبهذا يُفتـح أمامه بـاب الخلاص: الذوبان في الوحدة المقدّسـة التـي تتيحها الحركة(*). تتعاطف كل الحركات الجماهيرية مع المجرم وتحاول بكل الوسـائل اجتذابه. ومن هنـا نجد القديسـ برنارد، رجل الدين الـذي كان وراء الحرب الصـليبية الثانية، يقول لأتباعه: «الدليل الأعظم على أن الغفران لا يأتي إلاّ من الله يتّضح لنا عندما نجد الله يدعو المجرمين والمغتصبين والزناة والمزورين ومرتكبي كل أنواع الجرائم إلى طاعتـه كمـا لو كانوا أبرياء أتقياء»[1] وتهتم روسـيا الثوريـة، بدورها، اهتمامًا خاصًا بالمجرم العادي برغم قسوتها على المنحرف عَقَدِيًّا.

ولعلّه من الصـحيح أن المجرم الذي ينخرط في قضـية مقدّسـة يصـبح أكثر اسـتعدادًا للتضـحية بحياتـه والقيـام بأعمال عنيفـة من غير المجـرم الذي يقدر حريـة الأنفس والأموال. بإمكاننا أن نعدّ الجريمـة، إلى حدٍ ما، بديلًا عن الحركة الجماهيرية. عندما يضعف تأثير الرأي العام وقوّة القانون، ولا يكون الفقر مدقعًا، فإن الضغوط على العاجزين عن التأقلم والمحبطين كثيرًا ما تنتهي بهم في أحضان الجريمة. ومن ناحية أخرى لوحظ أنه في حالة صعود المدّ الثوري، سواء كان وطنيًا أو دينيًا أو قوميًا، فإن معدل الجرائم العادية ينخفض.

(*) يقول عبدالله ثابت: «كان شـيئًا معتادًا أن نسـمع أن اثنين من إخواننا كشف أمرهما، وهما يتبادلان شهوة، فنعوذ بالله مما فعلاه، ونكرههما ونهجرهما، ثم يجتهد الكثيرون في أن يخفوا ما يستطيعون إخفاءه، مما يدور بينهم، وفي لحظات التجلي والصراحة يعترف بعضهم إلى بعض، فيبكون ويعاهدون على التوبة، وألا يقعوا في شيء من هذا بعد مجلسهم ذاك» الإرهابي 20، مرجع سابق، ص105.

(1) Quoted By Brooks Adams, the law of Civilization And Decay (New York: Alfred A. knopf, inc. 1943), p. 144.

facebook.com/ketabme

القسم الثالث

العمل الجماعي والتضحية بالنفس

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل الثاني عشر

مقدمة

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

43

تستمد الحركة الجماهيرية حيويتها من نزعة أتباعها إلى العمل الجماعي والتضحية بالنفس. وعندما نعزو نجاح حركة ما إلى عقيدتها ومذاهبها ودعايتها وقيادتها وقسوتها، وما إلى ذلك، فنحن في حقيقة الأمر، نشير إلى أدوات وآليات تقود إلى العمل الجماعي والتضحية بالنفس. ولعلّه من المستحيل أن نتفهم طبيعة الحركات الجماهيرية ما لم ندرك أن همها الأساسي هو خلق قنوات للعمل الجماعي وللتضحية بالنفس، وتطوير هذه القنوات وتحسينها وإبقاؤها. إن التعرّف على هذه القنوات يقودنا إلى المنطق الداخلي لهذه الحركات والأفكار التي تسودها والممارسات التي تقوم بها. وأي جماعة منظمة تحاول، لسبب أو لآخر، أن تخلق وحدة مترابطة واستعدادًا دائمًا للتضحية بالنفس تكتسب، عادة، الكثير من سمات الحركات الجماهيرية، سواء كانت سمات طيبة أو سيئة. ومن ناحية أخرى، فإن الحركة الجماهيرية تفقد كثيرًا من الخصائص التي تميّزها عن بقية التنظيمات عندما تتراخى وحدتها الجماعية وتعترف بالمصلحة الذاتية أساسًا مشروعًا لنشاطها. ونلاحظ أن الدول الديمقراطية في أوقات السلم والرخاء تتكوّن من تنظيمات مؤسسية لمواطنين أحرار، أما حين يصبح بقاء الدولة مهددًا، وعندما تحاول تعزيز وحدتها وغرس روح التضحية بين مواطنيها فإنها تكتسب، إلى حد ما، خصائص الحركة الجماهيرية. والأمر نفسه يسري على التنظيمات الدينية والثورية: تتحول هذه التنظيمات إلى حركات جماهيرية لا بسبب المذهب الذي تبشر به أو البرنامج الذي تعلنه، بل بسبب وحدتها واستعداد أتباعها للتضحية بالنفس.

وما يهمنا هنا هو أن المحبطين إحباطًا شديدًا تنمو لديهم، على نحو عفوي، الرغبة في العمل الجماعي، وفي الوقت نفسه، في التضحية بالنفس، وهكذا فإنه من الممكن تفهم هذه النزعات والأساليب التي تتبع لغسل الأدمغة إذا راقبنا كيف تولد داخل العقل المحبط.

facebook.com/ketabme

ما الذي يقلق المحبطين؟ إنه الشعور أن أنفسهم ميتة وميؤوس منها. أن رغبة المحبطين الأساسية هي أن يهربوا من أنفسهم، وهذه الرغبة تتجسد في النزعة إلى العمل الجماعي وإلى التضحية بالنفس. إن الاشمئزاز من النفس غير المرغوب فيها، وهاجس نسيانها وطمسها وإخفاءها هو الذي يوجد الرغبة في التضحية بالنفس، وفي العمل الجماعي حيث تذوب النفس في المجموع. بالإضافة إلى هذا، فإن الاغتراب عن النفس تواكبه، عادة، مشاعر وعواطف كثيرة تبدو غير مترابطة، إلا أن التأمل فيها يظهر أنها عوامل أساسية في التوجه إلى العمل الجماعي وإلى التضحية بالنفس. وبعبارة أخرى، لا ينتهي دور الإحباط بإيجاد الرغبة في العمل الجماعي والتضحية بالنفس، بل إنه، فوق ذلك، يخلق الآلة الضرورية لتحقيق هذه الرغبة. إن احتقار الحاضر، والقدرة على تخيّل أشياء غير واقعية، والنزعة إلى الكراهية، والاستعداد للتقليد، وسرعة التصديق، والاستعداد لتجربة المستحيل، كل هذه المشاعر، وكثير غيرها، تزحم عقل الإنسان المحبط، وتدفعه إلى الأعمال اليائسة.

من المتوقع أن القارئ لن يقتنع بكثير مما سيجيء في هذا القسم من الكتاب، وقد يشعر أن بعض الأشياء بولغ في تضخيمها، بينما أهملت أشياء أخرى. على أننا لا ندّعي أن هذا كتاب أكاديمي موثّق. هذا الكتاب، على العكس، يحتوي على أفكار، مجرد أفكار، ولا يرفض «أنصاف الحقائق» إذا كانت تحتوي على منهج جديد، وتساعد على توليد أسئلة جديدة. يقول بيجهوت(*): إذا أردت إيضاح مبدأ ما فعليك بكثير من المبالغة وكثير من الحذف».

إن القدرة على العمل الجماعي تمشي، عادة، يدًا بيد مع القدرة على التضحية بالنفس، وعندما نسمع عن جماعة لا تخاف الموت فعلينا أن نستنتج أن هذه الجماعة

(*) كان والتر بيجهوت (1826 - 1887م) صحفيًا ومحللًا سياسيًا وتولى رئاسة «تحرير الأيكوترست» وكان متعدد المواهب والإبداعات (المترجم).

facebook.com/ketabme

مترابطـة ترابطًا قويًا وموحدة توحيدًا تامًا[1]. ومن الناحية الأخرى، فعندما نجد فردًا ينتمي إلى جماعة مترابطة ترابطًا كاملًا فسوف نجده، على الأغلب، لا يخاف الموت.

يتطلب كل من العمل الجماعي والتضـحية بالنفس الإنقاص من قيمة النفس. ولكي يصـبح الفرد عضـوًا في جماعة مترابطة، فإن عليه أن يتخلى عن الكثير: عن خصوصـيته، وعن آرائه الشخصية، وفي كثير من الحالات عن ممتلكاته. ومن هنا فـإن تدريب الفرد على العمل الجماعي يجعله قـادرًا على إنكار الذات، ومن ناحية أخرى، فإن الفرد الذي يحتقر نفســه يزيل الحاجز الصـلب الذي يحول بينه وبين الذوبان في الآخرين. كل عوامل الارتباط بالمجموعة، والحالة هذه، تحفّز الشخص على التضـحية بالنفس، والعكس صحيح. وسنحاول في الصفحات القادمة الفصل بين النزعتين، العمل الجماعي والتضـحية بالنفس، لتبسـيط القضـية مدركين، في الوقت نفسه، أن النزعتين، في حقيقة الأمر، مرتبطتان ولا ينفصلان.

إن آلية غرس الاسـتعداد للقتال والموت تتكون من فصـل الفرد عن نفسه، عن شخصه المكوّن من لحم ودم، وعنه من أن يكون ما تريده نفسه الحقيقية أن يكون. ويتحقق هذا الهدف بتذويب الفرد في المجموعة الموحّدة المترابطة؛ بإعطائه نفسًـا جديدة متخيلة؛ بأن تغرس فيه اتجاها إلى احتقار الحاضر وشغفًا بالأشياء القادمة التى سـوف تجيء في المسـتقبل؛ بأن نضـع حجابًا بينه وبين الحقائق؛ بأن نشـحنه بالعواطف المتفجرة على نحو يجعل من المستحيل عليه أن يعيش مع نفسه.

(1) تجد «في قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية أن أشد الأشخاص شعورًا بالوحدة هم أقدرهم على خوض المعارك» انظر:

w. g. sumner, war And other Essays, (New Haven: Yale university Press, 1911), p. 1.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل الثالث عشر

عوامل تشجع على التضحية بالنفس

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

التماهي مع المجموع

44

لكي تُهيئ شخصًا ما للتضحية بالنفس فلا بُدّ من سلخه عن هويته الذاتية وعن تميّزه. يجب أن يكف عن كونه جورج، أوهانس، أو إيفان، أو تادوا، أي يجب أن يكفّ عن الشعور أنه خلية بشرية مستقلة لها وجود يحده المولد والوفاة. وأكثر الطرق فاعلية في الوصول إلى هذا الهدف هو صهر الفرد كلية في الجسم الجماعي. إن الفرد المنصهر في الجماعة لا يعدّ نفسه ولا الآخرين كائنات بشرية فعلية. عندما تسأله من هو؟ فإن جوابه التلقائي هو أنه ألماني أو روسي أو ياباني أو مسيحي أو مسلم، أو عضو في قبيلة معينة أو عائلة ما. ليس لهذا الفرد من معنى أو هدف أو مصير إلا من خلال الجسم الجماعي، وما دام هذا الجسم الجماعي حيًّا فلا يمكن للفرد أن يموت.

الحياة عند الشخص الذي لا ينتمي إلى مجموعة هي همّه الأول والأخير. الحياة هي الحقيقة الوحيدة بين مجموعة أشياء وهمية، ولهذا فهو يتشبث بها بقوة وبلا خجل. صوّر دستوفيسكي هذا الموقف في رواية الجريمة والعقاب (القسم الثاني، الفصل الرابع). يهيم الطالب راسكولينوف على وجهه في شوارع سان بيترسبرج فيما يشبه الذهول. كان قبلها ببضعة أيام قد قتل امرأتين مسنتين بفأس، ويشعر الآن أنه معزول عن الجنس البشري. عندما يمر بمنطقة البغاء يبدأ في التفكير: «لو استطاع المرء أن يعيش على صخرة عالية لا يوجد فيها متسع إلاّ لموضع القدم، ومن حوله المحيط، الظلمة الأبدية، والوحدة الأبدية، والعواصف الأبدية، لو تمكن لاستمرّ واقفًا على متر مربّع من الفضاء بقية حياته، ألف سنة، إلى الأبد، إذ لا شك أنه من الأفضل أن نحيا على أن نموت. فقط أن نحيا، ونحيا، ونحيا، كائنةً ما كانت الحياة».

إن طمس الاستقلال الفردي يجب أن يكون كاملًا، بحيث يصبح على الفرد

facebook.com/ketabme

في أي عمـل يقوم به، مهما كان تافهًا، أن يربط نفسـه على نحو رمزي، بالجماعة، بالقبيلـة، بالحزب، وما إلى ذلك. إن مزاحه وأحزانه واعتزازه وثقته يجب أن تنبع من مصـير المجموعة لا من مصـيره الفـردي أو قراراته الفرديـة. وفوق كل ذلك، يجب ألاّ يراوده أيّ شعور بالعزلة. حتى عندما يكون في جزيرة نائية يجب أن يشعر أنه يتمتع برعاية الجماعة. وتخلّي الجماعة عنه لا يختلف عن تخلي الحياة ذاتها.

هـذا، بالتأكيد، تصـوير بدائي للأشـياء، ونموذجـه المثالي لا يوجـد إلا عند القبائـل البدائيـة. إلا أن الحـركات الجماهيرية تحـاول أن تقارب هـذا النموذج البدائـي. ونحن لا نتجنى على الحقيقة عندما نلاحـظ أن انتقاص القيمة الفردية للإنسان، هذا الانتقاص الذي تحرص عليه الحركات الجماهيرية، لا يعدو أن يكون ردة إلى العصور البدائية.

45

إن القـدرة علـى تحمل التعذيب تنبـع، جزئيًا، من تماهي الفـرد مع مجموعة ما. والذين اسـتطاعوا الصمود في معسـكرات الاعتقال النازية كانوا أولئك الذين شـعروا بالانتماء إلى مجموعة مترابطة (كالشـيوعيين) أو إلى كنيسـة (كالرهبان والقساوسـة)، أو إلى مجموعة قومية متماسـكة. أما الذين لم يشعروا بالانتماء إلى شيء يتجاوز أنفسهم، فسرعان ما انهاروا. وقد كان اليهودي في أوروبا الغربية أشد الناس ضـعفًا. لقد تجنبه المسـيحيون (حتى المعتقلون معه) ولم تكن هناك روابط تصله بأي مجتمع يهودي، ولهذا واجه جلاديه بمفرده، بعد أن تبرأت منه الإنسانية بأكملها. وبوسـع المرء، الآن، أن يتصـوّر أن (الجيتو) اليهودي في القرون الوسـطى كان بالنسـبة لليهود قلعة تحميهم أكثر من كونه سـجنًا يحبسـهم. من دون الشـعور القويّ بالانتماء الذي فرضـه عليهم (الجيتو) لم يكن بوسـع اليهود أن يعيشـوا دون أن تتحطم أرواحهم أمام ما لاقوه من عنف ومضـايقات خلال تلك القرون المظلمة. وعندمـا رجعت القـرون المظلمة (على هيئـة النازية) وجدت اليهـودي محرومًا من أسلحته القديمة، وشخصيته تمامًا.

facebook.com/ketabme

إن الاستنتاج الذي لا يمكن أن نتجاهله هو أن الفرد الذي يواجه التعذيب أو القتل لا يستطيع الاعتماد على القوة النابعة من فرديته. إن نبع القوة لا يكمن في كونه فردًا، بل في كونه جزءًا من كيان قوي مجيد لايمكن أن يتحطم، والإيمان هنا هو، أساسًا عملية تحرر المرء من فرديته وتجعله يتماهى مع كيان خالد. فلنتأمل الإيمان، والإيمان بالإنسانية أو بالأبدية أو بالدين أو بالأمة، أو بالعرق، أو بالحزب، أو بالعائلة. ما هو هذا الإيمان إن لم يكن تصور شيء خالد لا يمكن أن يموت نربط به أنفسنا الموشكة على الموت؟

وإنه لمن المخيف أن ندرك أن القادة الشموليين المعاصرين عندما اكتشفوا هذا المصدر من مصادر الشجاعة المستميتة، استخدموه لا ليسرقوا أرواح أتباعهم فحسب، بل لتحطيم أرواح معارضيهم. عندما بطش ستالين بالقيادات البولشفية التقليدية تمكّن من تحويل أشخاص شجعان معتدّين بأنفسهم إلى جبناء مرتعشين؛ لأنه تمكن من حرمانهم من أيّ وسيلة للتماهي مع الحزب الذي خدموه طيلة حياتهم، ومع الجماهير الروسيّة. كان هؤلاء القادة البلاشفة قد قطعوا صلتهم منذ أمد بعيد بالإنسانية خارج روسيا. وكان لديهم احتقار تام للحاضر ولأي تاريخ من صنع الرأسمالية، كما أنهم تخلّوا عن الإيمان بالله. لم يكن أمامهم ماض أو مستقبل، ولم تكن لهم ذكريات أو أمجاد، خارج روسيا المقدّسة والحزب الشيوعي، وقد أصبحت روسيا والحزب، الآن، في قبضة ستالين. شعر هؤلاء أنهم أصبحوا كما قال بوخارين(*) «معزولين عن كل شيء كان يعني الحياة في نظرهم» ولهذا سرعان ما انهاروا واعترفوا بكلّ ما أراد ستالين أن يعترفوا به. حاولوا عبر إذلال

(*) كان نيكولاي بوخارين (1888 - 1938م) قائدًا بارزًا من قواد الحركة البلشفية، تمرد على لينين، ثم تحالف على ستالين، وتولى مناصب قيادية في الحزب، حتى انقلب عليه ستالين وأعدمه (المترجم).

facebook.com/ketabme

أنفسهم أمام جماعة المؤمنين التخلص من عزلتهم. لقد جدّدوا إيمانهم بالشيوعية عبر إهانتهم أنفسهم واتهامها بتجاوزات وجرائم رهيبة، واستعراض هذا كلّه على الملأ.

وعلى نحو مشابه، في حالة اليهود، لم يكن بالإمكان توقع سلوكهم في فلسطين من سلوكهم في أوروبا. كان ممثلو بريطانيا المستعمرة في فلسطين يتصرفون على نحو بدا منطقيًا، إلا أنه كان يفتقر إلى الحكمة. اعتقدوا أنه ما دام هتلر قد تمكن من إبادة ستة ملايين يهودي دون مقاومة، فإنه سيكون بوسعهم التعامل بسهولة مع 600.000 يهودي في فلسطين. إلاّ أنهم سرعان ما اكتشفوا أن اليهود في فلسطين، حتى أولئك الذين قدموا حديثًا من أوروبا، كانوا أعداءً لا يستهان بهم: عنيدين ومغامرين وواسعي الحيلة. في أوروبا واجه اليهودي أعداءه، بمفرده، شخصًا معزولًا، ذرّة من الحياة تطفو على محيط من العدم. أمّا في فلسطين فلم يعد اليهودي يعدّ نفسه مجرد ذرّة بشرية، بل عضوًا في جنس عريق، له ماضٍ موغل في القدم، ومستقبل مليء بالإنجاز الخارق.

46

لعلّ المنظرين في الكرملين يدركون أنه لكي يضمنوا خضوع الجماهير الروسية يجب ألا تكون أمام هذه الجماهير أي فرصة للتماهي مع أي كيان موحّد خارج روسيا. إن «الستار الحديدي» يستهدف منع الشعب الروسي من التطلّع خارج حدوده حتى في تفكيره، قبل أن يستهدف منع الجواسيس والمخربين من الدخول، وهذا الستار ماديّ ونفسي، في الوقت نفسه.. من منع المواطنين الروس من الهجرة منعًا باتًا، حتى في حالة زواج مواطنين روس أزواجًا من جنسيات أخرى، يستهدف طمس صورة العالم الخارجي في عقول الروس. كان الفرار من روسيا مغامرة مستحيلة شبيهة بالفرار إلى كوكب آخر. ولا يقل الجانب النفسي من الستار أهمية

facebook.com/ketabme

عن الجانب الماديّ. تستهدف دعاية الكرملين إقناع الروس أنه لا يوجد شيء دائم ذو قيمة، لا يوجد شيء جدير بالإعجاب، والتقديس، لا يوجد شيء يمكن التماهي معه، خارج روسيا المقدّسة.

الخيال

47

يصبح الموت والقتل أسهل عندما يصبحان جزءًا من طقوس درامية في مسرحية. لا بُدّ من كثير من الخيال؛ لكي يستطيع الإنسان مواجهة الموت بلا تردد. في نفوسنا الحقيقية العارية، لا يوجد شيء يستحق أن نموت من أجله، ولكن عندما نتصوّر أنفسنا ممثلين في مسرحية خيالية يفقد الموت رهبته، ويصبح عملًا من أعمال الخيال، ومشهدًا مسرحيًا(*). أهم واجبات القائد في الحركة الجماهيرية طمس حقيقة الموت والقتل المرعبة، بأن يخلق في نفوس أتباعه الوهم: أنهم يشاركون في منظر باهر، في طقس من الطقوس المسرحية المثيرة.

ألبس هتلر ثمانين مليون ألماني أزياء المسرح، وجعلهم يمثّلون في أوبرا عظيمة، بطولية ودموية. وفي روسيا، حيث يصور كل شيء، حتى بناء دورات المياه، مع أنه عمل من أعمال التضحية العظيمة يعيش الناس منذ بداية الحكم الشيوعي دراما مثيرة تحرّك الروح، لا يبدو أن لها نهاية. وقد تصرّف سكّان لندن بشكل بطولي

(*) يصف عبدالله ثابت طقوس الموت المسرحية: «قبران توأمان لما يسكنهما أحد، قال لي: (اهبط واضطجع، وابك.... وخف ما استطعت) نزلت وكنت في حالة تشبه حالة ما قبل النوبة العصبية أو التشنج.. فقبور الأموات، وظلمة الليل، والنحيب والصراخ، كانت تجتمع على قلبي فتصنع منه ما يشاؤون! رجعت إلى البيت ممتلئ الصدر باليقين.. وكأنني من الحاطّين رحالهم في الجنة والناس من حوله ينتظرون فصل الحساب، «ويقول عن لقاءات الجماعة المتطرفة: «وبالطبع يحتل الموت والحديث عن الآخرة مقدمة كل وقفة، وكيف يمكن للمرء أن يتعامل مع الموت بترويض نفسه على ألا يخافه، بل وليتحول في أعماقه إلى أمنية وحلم. حتى إنه... كان يبدأ وقفاته بالدعاء (اللهم مزّقنا كما تحب في سبيلك).. الإرهابي 20، مرجع سابق ص83 وص105.

facebook.com/ketabme

تحت وقع القنابل المدمّرة؛ لأن تشرشل(*) نجح في إخراجهم في أدوار الأبطال. قام أبناء لندن بدورهم البطولي أمام جمهور هائل، يشمل الأجداد والمعاصرين والأجيال القادمة، على مسرح تضيئه الحرائق وعلى إيقاع المدافع والقنابل. لا يمكن في عالمنا المعاصر، بما يحمله من فوارق ذاتية بين الناس، خلق الرغبة في التضحية بالذات ما لم يكن هناك الكثير من الحيل المسرحية والألعاب النارية.

من الصعب، والحالة هذه، أن نتصوّر أن حكومة العمّال الحالية في بريطانيا (التي أعقبت حكومة تشرشل في نهاية الحرب العالمية الثانية) قادرة على تنفيذ برنامجها الاشتراكي الذي يتطلب التضحية من كل بريطاني في جو الديمقراطية البعيد عن الإثارة الذي يسود بريطانيا. إن جدّية القادة العماليين وبعدهم عن الإثارة المسرحية دليل نزاهة واستقامة، إلا أن هذه الخصلة تشكل عائقًا أمام تنفيذ التأميم الذي يشكل، من دون شك، هدفهم الرئيس في الحياة(*).

إن دور الخيال في تلطيف قسوة القتل والموت يتضح أكثر ما يتضح في حالة الجيوش. إن الملابس العسكرية والأعلام والشعارات والاستعراضات والموسيقى والطقوس الصارمة والإتيكيت المحكم، كلّها وسائل لفصل الجندي عن نفسه الحقيقية المكوّنة من لحم ودم، وطمس حقائق الموت والحياة. وليس من قبيل المصادفة أننا نتحدث عن «مسرح الحرب» وعن «مشاهد المعارك». ينزع القادة العسكريون عنه إصدار أوامرهم إلى تذكير جنودهم أن أنظار العالم تتجه إليهم،

(*) يعدّ ونستون تشرشل (1874 - 1965م) واحدًا من أبرز الساسة البريطانيين، إن لم يكن أبرزهم، وقد دخل معترك السياسة في بداية القرن العشرين الميلادي وتقلب بين مختلف الأحزاب والمناصب، وكان أعظم إنجازاته قيادة بريطانيا في الحرب العالمية الثانية، وقد خسر الانتخابات في نهاية الحرب، وأعيد انتخابه سنة 1951م واستمر رئيسًا للوزراء حتى استقال سنة 1955م. كما كان مؤلفًا ومؤرخًا مرموقًا، وقد حصل على جائزة نوبل في الأدب (المترجم).

(*) جانب المؤلف الصواب هنا، فقد تمكنت الحكومة العمالية من تنفيذ برنامج واسع من التأميمات استمر قائمًا حتى أنهته مارجريت تاتشر في آخر السبعينيات الميلادية من القرن الماضي عبر سياسات الخصخصة. ولعلّ خطأ المؤلف يعود إلى أنه أهمل التيارات الفكرية الاشتراكية القوية في الثقافة البريطانية التي لم يوجد ما يماثلها في الولايات المتحدة (المترجم).

facebook.com/ketabme

وأن أسلافهم يشاهدون ما يفعلونه، وأنهم سيدخلون عالم الخلود. والقائد العسكري الناجح يستطيع أن يجعل جنوده ينسون ما يعانونه في الواقع المحيط بهم، ينسون رمال الصحراء القاحلة، أو أمواج المحيط العاتية.

إن مفهوم المجد، إلى حد كبير، مفهوم مسرحي. لا يمكن أن تهزّنا فكرة المجد ما لم نشعر شعورًا مؤكدًا بوجود جهود يتابعنا، وما لم نؤمن أن أعمالنا ستصل إلى أسماع «الأجيال التي لم تجئ بعد». في هذه الحالة، نستطيع التضحية بنفوسنا الحقيقية الزائلة في سبيل النفس الخالدة المتخيّلة، النفس التي ترسمها أعمالنا البطولية في عقول الآخرين وخيالاتهم.

يؤدي الخيال في ممارسة الحركات الجماهيرية دورًا دائمًا لا يشابهه دور أي عنصر آخر. عندما تضعف قوة الإيمان بالمبدأ، وتختفي القدرة على الإقناع أو القمع، يظلّ الخيال باقيًا قويًا. وليس هناك أدنى شك في أن الحركة الجماهيرية تستطيع عن طريق الاستعراضات والمواكب والطقوس والمراسم ملامسة كل القلوب. حتى أكثر الناس عقلانية يمكن أن يصبح عاطفيًا أمام مشهد جماهيري حاشد. هناك شعور بالنشوة، بالتحرّر من سجن الذات، يعمّ المشاركين والمتفرجين على حد سواء. كما أنه من المحتمل أن يكون المحبطون أكثر استجابة لسحر الطقوس الجماعية من الراضين والقانعين: إن الرغبة في الهرب من النفس الفاشلة أو طمسها يوجد لدى المحبطين قدرة كبيرة على التخيّل، والرغبة في خلق مشهد مسرحي، كما يجعلهم أكثر استعدادًا للتماهي مع الحشود الجماهيرية المثيرة.

احتقار الحاضر

48

تبدو كل حركة جماهيرية، في بداية عهدها، كما لو كانت تحتفي بالحاضر على حساب الماضي. إنها ترى في المؤسسات والمزايا القائمة عدوانًا من ماضٍ هرم رديء

facebook.com/ketabme

على نقاء الحاضر. إلا أنه لكي يمكن التخلّص من قبضة الماضي الحديدية، فلا بُدّ من وحدة قويّة وتضحية بالنفس لا حدود لها. وما يعنيه هذا هو أن الأشخاص الذين يطلب منهم مهاجمة الماضي لتحرير الحاضر يجب أن يكونوا مستعدين للتخلّي عن أي فرصة من الاستفادة من الحاضر. وتهافت هذا الموقف لا يحتاج إلى بيان. من هنا يجيء التبدّل الحتمي في الاتجاه بمجرّد أن تبدأ الحركة سيرها. عندها يزاح الحاضر، الذي كان الهدف القديم، من المسرح ليحل محلّه المستقبل: الأبدية. وأكثر من هذا: يسحب الحاضر إلى الوراء كأنما هو شيء قذر ويرمى على الماضي. وهكذا تصبح المعركة بين الأشياء الموجودة (الحاضر) والأشياء التي كانت موجودة (الماضي) من جهة، وبين الأشياء التي لم تجئ بعد (المستقبل)، من جهة أخرى.

أن يخسر المرء حياته يعني أنه لا يخسر سوى الحاضر، ومن الطبيعي أن فقد حاضر ملوّث لا قيمة له لا يعني فقد الكثير.

لا تكتفي الحركة الجماهيرية بتصوير الحاضر على أنه بغيض وبائس، بل إنها تسعى عامدة لجعله على هذا النحو. كما أنها تصوغ للفرد وجودًا متجهمًا وقاسيًا ومتسلطًا ومملّا. وهذه الحركة تدين كل الشهوات والرغائب ووسائل الراحة وتمجد الحياة الصعبة. إنها تعد المتعة العادية أمرًا تافهًا، بل مكروهًا، وتعد أي مسعى للحصول على السعادة الشخصية أمرًا غير أخلاقي.

أن تستمتع بحياتك يعني أنك تهادن العدوّ: الحاضر. إن الهدف الأساسي من إشاعة التقشف والخشونة هو إشاعة الاستخفاف بالحاضر. عندما يرى الفرد خواء حياته وبؤسها، ويقارنها بالطقوس الجماعية المثيرة فإنه سيعمد، بلا شك، إلى تأكيد تفاهة حياته وعدم جدواها.

إن الأهداف غير الواقعية التي تضعها الحركة الجماهيرية لنفسها ما هي إلى

facebook.com/ketabme

جزء من حملتها ضـد الحاضر. كل الأشياء الواقعية والعملية والممكنة هي جزء من الحاضـر، ولو قدمت الحركة وعودًا واقعية لأدّى ذلك إلى جعل الحاضر أكثر أملًا، وإلى ربط الناس به.

والإيمـان بالمعجـزات، بـدوره، هـو تنكـر للحاضـر وتحدٍّ لـه. وعندمـا أعلن تيرتليـان(*): «كان ميتًا ودُفـن، وقام من موته، وهذه هي الحقيقة؛ لأنها مسـتحيلة الوقـوع» كان يهزأ من الحاضـر. وأخيرًا، فإن النزعات الصـوفية في الحركة هي، بدورها، وسـيلة للاستخفاف بالحاضر. هذه النزعات تعدّ الحاضر مجرد انعكاس مشـوّه لعالم مجهول أمامنا وحولنا. الحاضر، بعبارة أخرى، هو مجرّد ظلّ، مجرد وهم(**).

49

إن تمجيـد الماضـي يمكن أن يكون وسـيلة للاسـتهانة بالحاضـر. إلا أن هذا التمجيـد مـا لم يمتزج بتوقعـات معقولة عن المسـتقبل فسـوف يـؤدّي إلى تعظيم الماضـي على نحو يقود إلى الحذر، لا إلى السلوك المغامر الذي تعتمد عليه الحركة الجماهيرية. ومن ناحية أخرى، لا توجد وسيلة لتقزيم الحاضر أجدى من تصويره كمجرد حلقة بين ماضٍ عظيم ومستقبل عظيم. وهكذا نرى أن الحركة الجماهيرية برغم أنها تبدأ بالتنكر للماضـي، فإنها تنتهي بخلق صـورة جذابة، غالبًا ما تكون

(*) كان كوينتس ترتيليان (160 - 220م) من أوائل رجال الدين المسيحيين وقد أثرت أفكاره، على نحو بارز، في مسيرة المسيحية (المترجم).

(**) ملاحظـات المؤلف حول الحاضـر والماضـي والمسـتقبل، تنطبق بحذافيرهـا، على ما درجـت عليه الجماعات الدينية المتطرفة، من أيام سـيّد قطب، على تصـوير المجتمعات المعاصرة على أنها جاهلية (أي كافرة!) يجب تدميرهـا لإقامة المجتمع الإسـلامي الجديد الذي هو، في الحقيقة، عودة إلى المجتمع الإسـلامي الأول. يقول عبدالله ثابت: «فمن القضايا التي تعاد وتعاد دائمًا بطرق كثيرة ومتعددة ومتنوعة، قضية الكفر الذي تتخبط فيه المجتمعات والحكومات كلها في هذا الزمن... وإن الدول الإسلامية باتت أكثر شرًا حتى من دول الغرب... امتلأت صـدورنا بالكراهية، ليس على أهل الغرب والحكومات كلها فحسـب، بل وحتّى على مجتمعنا وأهالينا وإخواننا» الإرهابي 20، مرجع سابق ص 105 – 106 (المترجم).

facebook.com/ketabme

خيالية، عن ماض عريق مجيد. تنزع الحركات الدينية إلى الرجوع إلى بدء الخليقة، وتنزع الثورات الاجتماعية إلى الحديث عن عصر ذهبي تمتع الناس فيه بالحرّية والمساواة والاستقلال، أما الحركات القومية فإنها تسترجع، أو تختلق، ذكريات عن أمجاد الماضي. هذا الهوس بالماضي لا ينبع من الرغبة في إظهار شرعية الحركة وعدم شرعية النظام القائم بقدر ما ينبع من الرغبة في تصوير الحاضر، كمجرد فاصل عابر بين الماضي والمستقبل.

50

إن الوعي بالتاريخ يعطي الفرد انطباعًا بالاستمرارية. يرى المؤمن الصادق، عندما تعطيه الحركة صورة رائعة عن الماضي والمستقبل، نفسه جزءًا من شيء يمتد إلى ما لا نهاية في الماضي والمستقبل، جزءًا من الخلود. يصبح بوسعه أن يضحّي بالحاضر، وبنفسه، لا لأن هذه الحياة بائسة لا تستحق الحفاظ عليها فحسب، ولكن لأن هذه الحياة لا تمثّل البداية والنهاية. وفوق هذا فإن الهوس بالماضي وبالمستقبل يسلب الواقع حقيقته: يصبح الواقع مجرد جزء صغير في موكب أو استعراض. يرى أتباع الحركة الجماهيرية أنفسهم جنودًا يزحفون إلى المستقبل على وقع الطبول المدوية وتحت الأعلام المرفرفة. يتصورون أنفسهم مسهمين في دراما تهزّ أعماق النفس، تمثل أمام جمهور حاشد: الأجيال الماضية والأجيال القادمة. إنهم لا يشعرون بأنفسهم الحقيقية ولكن بأنهم ممثلون يؤدون دورًا، وتتحول أعمالهم، من ثم إلى مسرحية وتفقد صفة الأعمال الحقيقية. حتى الموت يصبح، بدوره مجرد مشهد مسرحي، عملًا من أعمال الخيال.

51

من القدرة على احتقار الحاضر تجيء القدرة على التكهّن بما سيجيء بعده. إن القانعين الراضين لايستطيعون أن يكونوا بارعين في التكهّن. ومن ناحية أخرى، فالذين يحاربون الحاضر هم الذين يزرعون بذور التغيير واحتمالات البدايات الجديدة.

facebook.com/ketabme

إن الحياة الراضية تعمي أعيننا عن احتمالات التغيير الجذري. تجعلنا هذه الحياة تتمسك بالمنطق وبوجهات النظر العملية، أي تجعلنا نشعر بألفة مع الأشياء كما هي في الواقع. إن الشعور بأننا نحيا حياة آمنة سعيدة يجعل كل الحقائق الأخرى مهما كانت محتملة الوقوع، خيالية وغامضة. من هنا نجد أنه عندما تعم الفوضى يفاجأ الواقعيون بما حدث، ويظهرون أمام الآخرين بمظهر الحالمين الذين يتشبثون بأشياء لم يعد لها وجود.

من ناحية أخرى، أولئك الذين يرفضون الحاضر ويوجهون قلوبهم وأنظارهم إلى الأشياء التي سوف تحدث، يستطيعون توقع التغيير ، سيئا كان أو حسنًا. وهكذا نرى أن المحبط والمؤمن الصادق أكثر قدرة على التنبؤ بما سيجيء في المستقبل من القانع الذي لا يود سوى الحفاظ على الوضع القائم.

(كثيرًا ما يكون المتطرفون، لا الخيرون، هم الذين يعثرون على الخيوط التي تقود إلى الحلول القادمة في المستقبل)[1].

52

من المفيد هنا أن نقارن بين الموقف من الحاضر والمستقبل والماضي عند المحافظ، والليبرالي، والمتشكك، والثوري، والرجعي.

يرى المحافظ أنه لا يمكن أن يوجد وضع أفضل من الوضع القائم، ويحاول جهده صياغة المستقبل على مثال الحاضر. يذهب المحافظ إلى الماضي؛ ليطمئن على المستقبل: «لقد كنت أبحث عن الاستمرارية، أريد التأكد من أن أخطاءنا الحالية وجدت منذ أن وجدت الطبيعة البشرية، وأن أفكارنا الجديدة كانت، في الواقع، أفكارًا موجودة منذ القدم، وأن الأشياء المهددّة بالخطر التي نحبّها كانت، هي الأخرى، مهدّدة في الماضي»[2].

(1) Ernest Renan, History of The People of Israel, (Boston: Little, Brown, & Company 1888-1896) Vol. 111. P 416.

(2) John Buchan, Pilbrim's Way (Boston: Houghton Mifflin Company, 1940,) P. 183.

facebook.com/ketabme

وقريب من موقف المحافظ موقف المتشكك: (هل هناك أي شيء يمكن أن يقال عنه: انظر هذا جديد؟ كل شيء كان موجودًا في الماضي الذي سبقنا)[1]. يصبح الحاضر في نظر المتشكك مُحصّلة كل ما كان وكل ما يمكن أن يكون.

(الشيء الذي حدث هو الشيء الذي سيحدث ولا يوجد شيء جديد تحت الشمس)[2]. أما الليبرالي فيرى أن الحاضر هو وليد شرعي للماضي وأنه ينمو ويتطوّر باستمرار؛ ليصبح مستقبلًا أفضل - وأيّ أذى يمسّ الحاضر يصيب المستقبل. كل هؤلاء الثلاثة، المحافظ والمتشكك والليبرالي يحبون الحاضر، وكما يمكننا أن نتوقّع فإنهم لا يستجيبون طواعية لفكرة التضحية بالنفس. إن موقفهم من هذه التضحية يلخّصه المتشكك الذي قال: (إن الكلب الحيّ أفضل من الأسد الميّت. ذلك أن الحيّ يعرف أنه سيموت، أمّا الميت فلا يعرف أي شيء.. كما أن الميّت محروم إلى الأبد من المشاركة في أي شيء تحت الشمس)[3].

أمّا الثوري والرجعي فيكرهان الحاضر ويعدّانه انحرافًا وتشويهًا. والاثنان مستعدان للهجوم، بقسوة وطيش على الحاضر، وكلاهما منفتح على فكرة التضحية بالنفس، أين يختلفان، إذًا؟ الخلاف الأساسي بينهما ينحصر في النظرة إلى الطبيعة البشرية. يؤمن الثوري إيمانًا مطلقًا بقابلية الطبيعة البشرية للتطور إلى الأفضل. إنه يعتقد أن بوسعه عن طريق تغيير بيئة الإنسان وإقامة آليات تعيد صياغته أن ينشئ مجتمعًا جديدًا كل الجدة وغير مسبوق في التاريخ. أما الرجعي فلا يعتقد أن في طبيعة الإنسان مساحة كبيرة يمكن تطويرها إلى الأفضل. ومن هنا فهو يرى أنه إذا أريد لمجتمع مستقر وصحيّ أن يقوم، فلا بد من أن يتبع نماذج الماضي الناجحة. إنه يرى في المستقبل إحياءً عظيمًا لما كان ولا يعدّه فرصة لابتداع ما لم يكن.

والفرق بين الثوري والرجعي، في حقيقة الأمر، ليس دائمًا بهذا الوضوح. ينزع

---

(1) Eccles, Astes 1: 10.
(2) Ibid, 1: 19.
(3) Ibid 9:4, 5,6.

facebook.com/ketabme

الرجعي إلى الثورية عندما يحاول أن يخلق مُثلَ الماضي من جديد. وفكرته عن الماضي لا ترتبط بما كان بالفعل، بل بما يريده في المستقبل. إنه، في الواقع يجدد أكثر مما يعيد التشكيل. وهناك تغير مماثل في حالة الثوري عندما يشرع في بناء عالمه الجديد. إنه يشعر بالحاجة إلى نماذج يستلهمها، وحيث إنه رفض الحاضر وحطّمه فهو مضطر إلى ربط العالم الجديد بنقطة ما في الماضي السحيق. وإذا اضطر الثوري إلى استخدام العنف في تشكيل عالمه الجديد، فإن نظرته إلى الطبيعة البشرية تسوء وتقترب كثيرًا من نظرة الرجعي.

إن المزج بين الرجعي والثوري ظاهرة نلمسها بوضوح عند المنخرطين في حركات الإحياء القومي. أتباع غاندي(*) في الهند والصهاينة في فلسطين يريدون إحياء ماضٍ قديم وخلق يوتوبيا جديدة، في الوقت نفسه. ونلاحظ أن دعوة الأنبياء كانت تشمل الرجوع إلى العقائد القديمة مع إقامة مجتمع جديد بحياة جديدة.

53

من الواضح أن ازدراء الحركة الجماهيرية الحاضر يتمشى مع نزعات الإنسان المحبط. يستغرب المرء عندما يستمع إلى شكاوى المحبط من الحاضر بكل ما فيه ومن السرور الذي ينتابه خلال الشكوى. هذا السرور لا يأتي لمجرد التعبير عن ظلامة ولا بدّ أن يكون هناك شيء آخر. عندما يسرف المحبطون في اتهام الحاضر وانتقاصه، فإنهم في حقيقة الأمر، يخففون من وطأة إحساسهم بالفشل والعزلة، وكأنهم يقولون: «العيب ليس فينا ولكنه موجود عند كلّ معاصرينا. حتى حياة أكثر المعاصرين سعادة وأعظمهم غنى حياة تافهة لا قيمة لها. وهكذا فإنهم يشعرون، عبر ازدراء الحاضر، بنوع غامض من المساواة مع الآخرين.

(*) تولّى موهانداس كرامشاند غاندي (1869 - 1948م) قيادة الحركة الوطنية في الهند بعد عودته من جنوب أفريقيا سنة 1914م واستطاع عن طريق المقاومة السلمية التي نادى بها تحقيق الاستقلال واغتيل على يد متطرف هندوكي (المترجم).

facebook.com/ketabme

وهذا يعني أن الحركة الجماهيرية التي تسعى إلى جعل الحاضر مكروهًا وغير محتمل تلمس وترًا حساسًا لدى المحبطين. والانضباط الذي يمارسه المحبطون لقمع شهيتهم للحياة يعطيهم شعورًا زائفًا بالقوة(*) وتتبنّى الحركة الجماهيرية أهدافًا مستحيلة وغير واقعية يتمشى مع رغبات المحبطين. إن الذين يفشلون في أمورهم الحياتية اليومية ينزعون إلى البحث عن المستحيل كوسيلة لستر عيوبهم. ذلك أننا عندما نفشل في الحصول على الممكن لا نستطيع أن نلوم أحدًا سوى أنفسنا، أمّا عندما نفشل في الحصول على المستحيل، فبإمكاننا أن نعزو الفشل إلى صعوبة المهمّة. والإنسان لا يعرض نفسه للسخرية عندما يشرئب إلى المستحيل بقدر ما يعرضها للسخرية، وهو يحاول الممكن. ومن هنا نجد أن فشل المحبط في القيام بأموره اليومية كثيرًا ما يولد لديه شجاعة غير عادية.

يشعر المحبط بالرضا عن الوسائل العنيفة التي تتّبعها الحركة الجماهيرية أكثر من شعوره بالرضا عن أهداف الحركة. إن فرح المحبط بالفوضى وبسقوط المحظوظين والميسورين لا ينبع من إحساسه أنهم بهذا السقوط يفسحون المجال لقيام مدينة مثالية بقدر ما ينتج عن إحساس بالشماتة. عندما تعلو صرخة المحبطين المتشنجة تطالب (بكل شيء أو لا شيء) فإنهم في حقيقة الأمر، يتطلعون إلى لا شيء.

«الأشياء التي لم تكن»

54

ثمة قاعدة تتضح لنا من تحليل العوامل التي تشجّع على التضحية بالنفس،

(*) يقول عبدالله ثابت: «كنا نشكل جبهة تقف أمام أبواب المركز، وحين يمر الشباب الآخرون من غير المدنيين، وأصوات الموسيقى بسياراتهم، نوقفهم ونتحرش بهم، و كثيرًا ما اعتدينا عليهم، وضربناهم».
ويقول: «فلا نقف عند إشارة مرور بسيارتنا ونرى أحدًا يشرب السجائر، أو يستمع للموسيقى إلا أوقفناه، ووعظناه،... وإن أبى فعليه أن يتحمل شتيمتنا ودعاءنا عليه، وربما تصل الأمور أحيانًا لتأديبه وتلقينه درسًا جسديًا، انظر ص105 - ص117 الإرهابي 20 مرجع سابق (المترجم).

facebook.com/ketabme

وهـي أننـا لا نكون مسـتعدين للمـوت من أجل مـا لدينـا الآن، أو من أجـل هويتنا الحاضـرة، بقـدر ما نكون من أجل مـا نود أن نكون، من أجل هويتنا في المسـتقبل. هناك حقيقة محيرة ومزعجة وهي أن الذين يملكون بالفعل شـيئًا يسـتحق القتال دفاعًـا عنه لا يشـعرون برغبة في القتال. إن الذين يعيشـون حيـاة مليئة ذات قيمة لا يكونون عادة مسـتعدّين للموت في سـبيل وطنهم، أو من أجل قضـية مقدّسة[1]. إن التطلـع إلى الشـيء، لا امتلاكه بالفعل، هو الذي يولّد الاندفـاع الذي يؤدي إلى التضحية بالنفس.

(الأشياء التي لم تكن هي، في الحقيقة، أعظم وأقوى من الأشياء التي كانت)[2] خلال العصور حارب النـاس بشراسة لإقامة مدن لم تبنَ بعد، وحدائق لم تغرس بعد، قال الشـيطان: (سيضحي الإنسان بكل ما يملكه في سبيل الإبقاء على حياته)[3]. إلا أن الإنسان، في الواقع، قد يقبل بأن يموت ولا يضحي بحقه فيما لم يكن بعد.

إنه من الغريب حقًّا أن نجد أن أولئك الذي يحتضـنون الحاضـر ويتمسـكون بـه بكل ما أوتوا مـن قوة هم الأقل اسـتعدادًا للدفاع عنه. بينمـا نجد، في الناحية الأخرى، أن الذين يحتقرون الحاضـر وينفضـون منه أيديهم هم الذين يحصلون، دون أن يطلبوا، على جوائز المعركة.

إن الأحلام والرؤى والآمال الجامحة أسلحة وأدوات فاعلة. تتجلى حكمة القائد الحقيقـي في مدى إدراكه القيمـة الفعلية لهذه الأدوات. إلا أن هـذا الإدراك ينبع، عادة، من احتقار للحاضـر يعود بدوره إلى الفشـل في التعامل مـع الأمور الواقعية. إن رجل الأعمال النـاجح كثيرًا ما يكون قائدًا سياسـيًّا فاشـلًا؛ لأن عقله، لاعتبارات

(1) تبدو أصـداء هذه الحقيقة في رسـالة من النرويج كتبت خلال الغزو النازي: «إن مشكلتنا هي أننا كنا محظوظـين جدًا إلى درجة أن كثيرًا منا فقد الرغبة الصـادقة في التضـحية بالنفس. لقد اسـتمتع الكثيرون بالحياة إلى درجة أن أصبحوا معها غير قادرين على التضحية بها» منقولة عن:
J. D Barry In San Francisco News, June, 1440.

(2) Corinthians 1: 28.

(3) Job 2: 4.

facebook.com/ketabme

تجارية، يظلّ مرتبطًا بما هو كائن، وقلبه يتطلع إلى تحقيق (ما يمكن أن يكون). وعلى العكس، فالفشل في التعامل مع الأمور الواقعية كثيرًا ما يكون المؤهل للنجاح في إدارة الشؤون السياسية. ومن حسن الحظ أن كثيرًا من الرجال الواثقين في أنفسهم عندما يعانون الهزيمة في التعامل مع الأمور العملية لا يشعرون بالإحباط بل يصبحون، فجأة، مليئين بشعور غريب أن بوسعهم أن يديروا أمور المجتمع والدولة.

55

علينا ألاّ نستغرب عندما نجد أناسًا مستعدين للموت من أجل وسام، أو علم، أو شعار، أو رأي، أو أسطورة، أو ما إلى ذلك، وعلى العكس فمن المستغرب أن يضحي الرجل بنفسه في سبيل شيء يملكه: من الواضح أن الحياة نفسها أغلى المقتنيات ومن دونها لا يوجد شيء يستحق أن يقتنى. إن التضحية بالنفس لا يمكن أن تكون تعبيرًا عن مصلحة ذاتية واضحة. حتى عندما نكون مستعدين لأن نموت قبل أن نقتل، فإن الرغبة في القتال لا تنبع من مصلحة ذاتية بقدر ما تنبع من أشياء غير محسوسة كالتقاليد، أو الشرف، وقبل هذا كله: الأمل. عندما لا يكون هناك أمل فإن الناس ينزعون إمّا إلى الهرب أو إلى الانقياد للقتل بلا مقاومة. تصبح الحياة بلا أمل، مجرد ذهول مستسلم من دون ذلك، كيف يمكننا أن نفسر أن الملايين من الأوروبيين يسمحون لأنفسهم بأن يقتادوا إلى معسكرات الإبادة وحمامات الغاز وهم يعرفون، بلا ذرة من شكّ، أنهم مسوقون إلى الموت؟ لقد تمكن هتلر، بمواهبه الشريرة والفظيعة، من قتل الأمل في نفوس معارضيه (في أوروبا على الأقل) وبالإضافة إلى ذلك كان يقينه أنه يبني نظامًا سيبقى ألف سنة بفعل فعله في نفوس أنصاره وأعدائه على حد سواء: شعر أنصاره أنهم حين يقاتلون معه، فإنهم يتعاونون مع القدر المحتوم، بينما أحسّ أعداؤه أن مقاومة نظام هتلر هي مقاومة قدر لا يقهر.

من الجدير بالملاحظة أن اليهود الذين استسلموا للإبادة في أوروبا النازية قاتلوا بشراسة حين انتقلوا إلى فلسطين.

facebook.com/ketabme

وبرغم ما قيل في تفسير ذلك أنهم حاربوا في فلسطين؛ لأنّه لم يكن أمامهم خيار، إذ إن العرب كانوا سيقتلونهم، فإنه يبقى أن إقدامهم واستعدادهم للتضحية بالنفس لم ينبع من اليأس، بل من عقيدة متأججة تستهدف إحياء أرض قديمة وأمّة قديمة. لقد قاتلوا وماتوا بالفعل من أجل مدن لم تبنَ بعد، وحدائق لم تغرس بعد.

العقيدة

56

إن الاستعداد للتضحية بالنفس يعتمد على مدى تجاهل المرء لحقائق الحياة. إن الشخص القادر على أن يراقب تجربته الذاتية ويفحصها ويستخلص منها العبر والنتائج لا يرحّب، عادة بفكرة الشهادة: التضحية بالنفس عمل غير عقلاني ولا يجيء نتيجة بحث وتحليل. من هنا تلجأ كل الحركات الجماهيرية إلى وضع حجاب بين أتباعها وبين حقائق العالم(*) وهي تحقق هذا الهدف بتصوير عقيدتها في صورة الكمال المطلق الذي لا توجد أي حقيقة أو يقين سواه، والحقائق التي يبني عليها المؤمن الصادق النتائج لا تجيء من التجربة أو من الملاحظة، ولكنها تنبع من نصّ مقدّس: «لا بد من التشبث بالعالم، كما أظهره لنا الوحي إلى درجة أنني لو رأيت جميع ملائكة السماء ينزلون ويقولون لي شيئًا مختلفًا لما صدقت حرفًا واحدًا! من كلامهم ولأغلقت دونهم عينيّ وأذنيّ؛ لأنهم لا يستحقون أن يروا أو يسمعوا»[1]. والاعتماد على الأدلة المستقاة من الحواس تعدّ، من هذا المنطلق، هرطقة وخيانة، يصعب أن نتصوّر الحجم الهائل من إنكار الإيمان الضروري

(*) يقول عبدالله ثابت: «فالقراءات التي تغذينا بصرامة الموقف وجديّته، تجاه كل من في الوجود سوانا،... والتطوّر الذي تشهده أيامي يومًا في إثر يوم كان كافيًا لتخديري، وأن يكون حجابًا مكثفًا، لا أستطيع معه رؤية أي شيء غير جميل، غير ما أعيش بداخله وما أنا مفتون به» الإرهابي20 مرجع سابق، ص107. (المترجم).

(1) Luther, «Table Talk, Number 1687». Quoted By Frantz Fanck- Brentano, Luther (London: Jonathan Cape Ltd 1939,) P. 246.

facebook.com/ketabme

للوصول إلى الإيمان. إن ما نعدّه إيمانًا أعمى تساعده حالات لا حصر لها من إنكار الإيمان. رفض اليابانيون المتعصبون المقيمون في البرازيل لعدة سنوات أن يصدّقوا الأدلة التي تثبت هزيمة اليابان. ويرفض الشيوعي المتطرّف أن يصدق أي دليل عن روسيا، كما أن إيمانه لن يتزعزع حتى عندما يرى بعينيه البؤس القاسي داخل أرض السوفييت الموعودة(*).

إن قدرة المؤمن الصادق على أن «يغمض عينيه ويسدّ أذنيه» عن الحقائق التي لا تستحق أن ترى أو تسمع هي التي توجد حماسه الدائم وثباته على موقفه، لا يمكن للمؤمن الصادق أن يخاف الخطر، أو يخشى العقبات، أو يرتبك أمام المتناقضات؛ لأنه يرفض الاعتراف بوجود هذه الأشياء. إن قوة الإيمان كما لاحظ بيرجسون، «لا تتجلى في القدرة على تحريك الجبال، ولكن في القدرة على عدم رؤيتها وهي تتحرك»[1]. إن اعتقاد المؤمن الصادق بعصمة العقيدة التي يعتنقها تجعله لا يقيم أي وزن للشكوك أو المفاجآت أو الحقائق غير السارة التي يمتلئ بها العالم من حوله.

ومن هنا نجد أن فاعلية عقيدة ما لا تقاس بعمقها أو سموّها أو صدق الحقائق التي تنطوي عليها، بل بقدرتها على حجب الشخص عن نفسه وعن العالم، كما هو عليه بالفعل. عن العقيدة الفاعلة قال باسكال إنها: (لابد أن تعارض الطبيعة والمنطق والرغبة)[2].

(*) رفض بعض المسلمين المتزمتين أن يصدقوا أن الإنسان وصل إلى القمر، حتى وهم يشاهدون نزوله في التلفزيون استنادًا إلى فهم مغلوط للقرآن الكريم (المترجم).

(1) Henri L. Bergson, The two sources of Morality And Religon, (New York: Henry Holt & Company, 1935).

(2) Pascal, Pensees.

facebook.com/ketabme

57

إن فاعليــة العقيــدة لا تنبع من مضــمونها، ولكن من عصــمتها عن الخطأ. لا يمكن لأي عقيدة، مهما كانت عميقة وسامية، أن تكون فاعلة ما لم تدّعِ أنها وحدها تحتــوى على الحقيقة الكاملــة. لا بد أن تكون هي الكلمة التي ينبثق منها كل شــيء وينطق بها كل إنســان(1). تتساوى الأشياء السخيفة المضحكة والحقائق السامية في تحفيز الناس على التضــحية بأنفســهم. إذا عدُّوها حقائــق مطلقة لا توجد حقائق سواها.

ليســ مــن الضــروري لكي تصــبح العقيدة فاعلــة أن يفهمها المــرء، ولكن من الضــروري أن يؤمــن بها. ونحن في الحقيقة لا نؤمن إيمانًا أعمى إلا بالأشــياء التي لا نفهمهــا. عندما تصــبح العقيدة مفهومــة تفقد الكثير من قوّتهــا. عندما نتمكن من فهم شــيء ما نشــعر كما لو أن هذا الشــيء ولد داخل أنفســنا. ومن البدهيّ أن الذين يطلب منهم أن يتنكروا لأنفســهم ويضحوا بها لا يستطيعون أن يؤمنوا إيمانًا أعمى بشــيء بدأ داخل أنفســهم. وهكذا نجد أنه يطلب من المؤمنين أن يبحثوا عن الحقيقــة المطلقة بقلوبهم لا بعقولهم: «القلب هو الذي يحسّ بالله وليس العقل»(2). قال رودلف هس(*) سنة 1934، وهو يطلب من الشباب النازي أن يرددوا قسم الولاء خلفه: «لا تبحثوا عن إدولف هتلر بعقولكم: ســتجدونه كلكم في قلوبكم»(3). وعندما

(1) Thomas A. Kempis, of the Imitation of Christ (New York: Mac Millan Company, 1937), chp. 111.

(2) Pascal, op. cit.

(*) كان رودلف هس (1894 - 1987م) الرجل الثاني في الحزب النازي وأقلع بطائرة إلى بريطانيا سـنة 1941 في محاولة طائشــة لإقرار الســلام بين بريطانيا وألمانيا، إلا أن البريطانيين سجنوه وحوكم بعد الحرب ومات منتحرًا في سجن الحلفاء في برلين (المترجم).

(3) Konrad Heiden, Der Fuehrer (Boston: Houghton Mifflin Company, 1944), p. 758.

facebook.com/ketabme

تبـدأ حركة في عقلنة عقيدتها وجعلهـا مفهومة، فمعنى هذا أن فترتها الديناميكية قد انتهت، وأنها أصـبحت حريصة على الاستقرار. إن استقرار النظام يعتمد على ولاء المثقفين، ولهذا يصـبح هم الحركة اسـتقطاب المثقفين بدلاً من همها القديم، وهو تحريض الجماهير على التضـحية بالنفس. من الحرص على الاستقرار يجيء الحرص على شرح العقيدة وعقلنتها.

إذا لم تكن العقيدة غير مفهومة، فيجب أن تكون غامضـة، وإذا لم تكن لا هذه ولا تلك، فلا بد أن تكون غير قابلة لإثبات العكس. يجب أن يذهب المرء إلى السـماء أو إلى المسـتقبل البعيـد؛ لكي يتحقق من صـحة العقيدة الفاعلـة. وعندما يكون في العقيدة جانب واضح، فإن المؤمنين الصادقين ينزعون إلى جعله معقدًا صعبًا. تحمل الكلمات البسـيطة الكثير من المعاني وينظر إليها كما لو كانت رموزًا في شفرة سرّية، ولهذا السـبب نجد قدرًا من الأميّة عند أكثر المؤمنين الصادقين ثقافة. ينزع المؤمن الصـادق إلى استخدام الكلمات، كما لو كان يجهل معناها الحقيقي، ومن هنا يجيء شغفه بالنقاش البيزنطي والجدال العقيم.

58

عندما تمتلك حقيقة مطلقة يمكنك أن تجعل الأبدية نفسها شيئًا أليفًا مفهومًا. لا تواجـه من يعتنـق الحقيقة المطلقة أي مفاجآت أو أشـياء مجهولة: كل الأسـئلة أجيب عنها، كل القرارات اتخذت، وكل الاحتمالات عرفت. لا يعرف المؤمن الصادق الحيرة أوالتردد: (إن الذي يعرف المسيح يعرف سبب الأشياء كلها)[1]. إن العقيدة الصحيحة هي المفتاح الرئيس لكل مشكلات العالم، ويمكننا عن طريق هذا المفتاح أن نبعثر العالم ونعيد تشـكيله من جديد. يقرّر التاريخ الرسـمي للحركة الشيوعية (أن قوة النظرية الماركسية / اللينينية تكمن في أنها تمكن الحزب من معرفة الاتجاه

(1) Pascal, op. cit.

facebook.com/ketabme

الصحيح في أي موقف، تمكنه من فهم الارتباطات الخفية بين الأحداث الجارية، وهذه الرؤية لا تشمل كيفية تطور الأحداث واتجاهاتها في الحاضر، بل تشمل أيضًا المستقبل)[1]. إن المؤمن الصادق يجرؤ على أن يجرب الصعب والمستحيل، لا لأن عقيدته تعطيه إحساسًا بالقوة الخارقة فحسب، بل لأنها تمنحه أيضًا ثقة مطلقة في المستقبل.

إن الحركة الجماهيرية الصاعدة ترفض الحاضر وتركز اهتمامها على المستقبل. هذا الموقف هو الذي يمنحها الثقة، ويجعلها قادرة على أن تمضي قدما، فتعبث بالحاضر وبسلامة أتباعها وثرواتهم وحياتهم. يجب على الحركة أن تتصرف، كما لو كانت قد قرأت كتاب المستقبل حتى نهايته: إن عقيدتها تمثّل في نظرها مفتاح هذا الكتاب.

59

هل يمكن غسل دماغ المحبطين بسهولة لا توجد عند غيرهم؟ هل هم سُذّج يصدقون كل شيء؟ كان باسكال يرى (أن المرء يستطيع أن يفهم الكتاب المقدّس حين يبدأ في كراهية نفسه)[2].

هناك، على ما يبدو علاقة بين عدم الرضا عن النفس والنزعة إلى سرعة التصديق. إن الرغبة في الهرب من أنفسنا، كما هي عليه توجد رفضًا لقبول الحقائق والمنطق الصارم. لا يوجد خلاص للمحبطين فيما هو واقع وما هو ممكن؛ لا يجيء الخلاص إلاّ عن طريق المعجزة التي تتسلل من خلال ثقوب في جدار الحقيقة الحديدي. ما قاله شويسمان عن الألمان ينطبق على المحبطين عمومًا: (إنهم يصلّون لا من أجل خبزهم اليومي فحسب، بل من أجل وهمهم اليومي أيضًا)[3] يبدو أن هناك قاعدة

(1) History of the Communist Party (Moscow: 1945, p. 355). Quoted By John Fischer, Why they Behave Like Russians (New York: Harper & Brothers, 1947), p. 236.

(2) Quoted By Emile Caillet, the Clue to Pascal (Toronto: Macmillan Company, 1944).

(3) Quoted By Michael Demiash kevich, the National Mind (New York: American Book Company, 1938), p. 353.

facebook.com/ketabme

مؤداها أن الذين لا يجدون صعوبة في خداع أنفسهم لا يجدون صعوبة في خداع الآخرين لهم، ومن ثم فمن السهل إقناعهم وقيادتهم.

من الغريب أن السذاجة كثيرًا ما ترتبط عند المرء بدعاوى عريضة ليس لها أيّ أساس. إن امتزاج سهولة التصديق بالكذب ليس من خصائص الأطفال وحدهم، انعدام القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها يقود إلى السذاجة، وإلى الكذب في الوقت نفسه.

التطرّف

60

سبق القول في الجزء الأول أن الحركات الجماهيرية كثيرًا ما تكون ضرورية لتنفيذ تغييرات جذرية وسريعة. ومن العجيب أنه حتى التغييرات المنطقية والمرغوب فيها، مثل تجديد المجتمعات الراكدة، يحتاج تحقيقها إلى جو من الشحن العاطفي، كما أن تحقيقها يصحبه كلّ الأخطاء والحماقات التي ترتكبها الحركات الجماهيرية. ولعلّ استغرابنا يقلّ عندما نتذكر أن همّ الحركات الجماهيرية الأوحد هو أن تغرس في نفوس أتباعها القدرة على العمل الجماعي والتضحية بالذات، وهي تحقق هذا الهدف بتجريد كل كائن إنساني من تميّزه واستقلاله وتحويله إلى ذرة معزولة لا حول لها ولا إرادة ولا منطق. والنتيجة لا تقتصر على ظهور أتباع مترابطين لا يخافون الموت بل هناك، بالإضافة إلى ذلك، عجينة بشرية يمكن للحركة تشكيلها على النحو الذي تريده. وهكذا نرى أن العجينة البشرية الضرورية لتحقيق أهداف جذرية وسريعة هي نتيجة جانبية لعملية الصهر وغسل الأدمغة بفكرة التضحية بالنفس.

والنقطة المهمة، هنا، هي أن التغريب عن النفس، وهو أمر لا بدّ منه لإعداد العجينة وتهيئتها لاعتناق مبدأ الحركة، يتم، في كل الأحوال تقريبًا، في جو من المشاعر المشحونة. إن إثارة المشاعر ليست مجرد وسيلة فاعلة لهزّ التوازن القائم بين الإنسان ونفسه ولكنها، في الوقت نفسه، النتيجة الطبيعية لاختلال هذا التوازن. تستثار المشاعر حتى في الحالات التي يمكن فيها عزل الإنسان عن نفسه بطريقة

facebook.com/ketabme

هادئة تخلو من الانفعال. وحده الفرد الذي يتعايش مع نفسه هو القادر على أن ينظر إلى العالم من حوله بلا انفعال. عندما تزول حالة التعايش يصبح المرء مجبرًا على أن يرفض ويشجب ويسيء الظنَّ في الجميع، ويتحوّل إلى كائن يكتفي بردود الفعل الطائشة. مثل هذا الشخص مثل عنصر كيمائي راديكالي يتوق إلى الالتحام بأي شيء يمكنه أن يصل إليه. هذا الشخص لا يستطيع أن يقف بثبات وثقة بمعزل عن الصراع، ولكنه يجد نفسه مدفوعًا إلى الارتباط التام بهذا الجانب أو ذاك.

تستطيع الحركات الجماهيرية، عبر إثارة المشاعر الملتهبة في قلوب أتباعها، أن تحطّم التوازن النفسي الداخلي، كما أنها تقوم باستخدام طرق مباشرة لضمان اغتراب دائم عن النفس. تصف هذه الحركات أي وجود مستقل متميز بأنه وجود عقيم لا معنى له، بل وتذهب إلى اعتباره وجودًا منحلًا شرّيرًا. الإنسان بمفرده، بائس وملوث وعديم الحيلة. لا يمكن للإنسان الخلاص إلا برفض نفسه، والعثور على حياة جديدة في أحضان كيان جماعي مقدّس، سواء كان هذ الكيان كنيسة، أو أمّة، أو حزبًا. وازدراء النفس هذا يوّلد مشاعر تظل في حالة اشتعال دائم.

61

قدر المتطرّف أن يشعر بالنقص وفقدان الثقة. لا يستطيع المتطرّف أن يستمد الثقة من قدراته الذاتية، أو من نفسه التي تنكّر لها، ولكنه يجدها في الالتصاق المتشنج بالكيان الذي احتضنه. يجد المتطرّف في هذا الالتحام ما يحفّزه على الولاء الأعمى الذي يشبه التديّن، كما أنه يجد فيه نبع الخير والقوة وبرغم أن المتطرّف يهدف، بهذا الولاء الأعمى، في الدرجة الأولى أن يحافظ على بقائه إلا أنه قادر على أن يعدّ نفسه جنديًّا يحمي القضية المقدّسة التي اعتنقها(*). والمتطرف على

(*) يقول عبدالله ثابت: «إذًا فكل ما مضى كان داعيًا للانسجام مع هذه الشريحة، واعتقادها نواة كل خير في الوجود، ولم يكن عندي أدنى شك أنهم المخلّصون من وعثاء الدنيا ومن جحيم الآخرة، فمن يستطيع أن يخلصني من وحدتي وجحيم عائلتي فسيكون جديرًا بأن أضحّي بكل شيء لأجله، وأن أكون معه وله فيما أريد، فكيف وهو يخلصني من الدنيا ليأخذني إلى الله، ويقدّم لي الطمأنينة والسعادة والإخاء والحب، وكل ما حرمت منه!»، الإرهابي 20، مرجع سابق، ص87.

facebook.com/ketabme

استعداد للتضحية بحياته لكي يثبت لنفسه، وللآخرين، أن هذا بالفعل هو دوره، أن يضحي بحياته؛ ليثبت أهمّيته!

من الغنيّ عن الذكر أن المتطرّف مؤمن أن القضـية التي اعتنقها قضية مثالية أبدية، صـخرة تبقى صـامدة على مرّ العصور. ومع هذا فشعوره بالثقة مستمد من التحاق المتشـنج بالقضـية، لا من كون القضـية سـامية بالفعل. من هنا لا نستطيع أن نعدّ المتطرّف إنسـانًا متمسـكًا بالمبادئ: إنه يعتنق قضية ما لا بسبب عدالتها أو سـموّها، ولكن لحاجته الملحة إلى شيء يتمسك به. يعدّ المتطرّف أي قضية يعتنقها قضية مقدّسة.

ليس بالإمكان إبعاد المتطرّف عن قضـيته بالمنطق والنقاش. يخشـى المتطرّف أنصاف الحلول، ومن ثم يستحيل إقناعه بأن يخفف من حدة إيمانه المطلق بعدالة قضـيته المقدّسة. وبرغم ذلك فهو لا يجد صعوبة في القفز، فجأة وبقوة، من قضية مقدّسـة إلى قضية مقدّسـة أخرى. لا يمكن إقناع المتطرّف ولكن يمكن تحويله إلى قضـية أخرى. إن التحاق المتشـنج بقضـية ما هـو العامل الجوهـري، وليس نوعية القضية التي يتبناها.

62

علـى الرغـم مـن أن المتطرفين يظهـرون كما لو كانـوا على طـرفي نقيض مع المتطرفـين في حركـة جماهيرية أخرى، إلا أنهـم جميعًا، في حقيقـة الأمر، يقفون، متزاحمـين، في زاوية واحدة. إن الفـرق الحقيقي ليس بين مختلف أنواع المتطرفين، ولكن بـين المتطرفين والمعتدلين: هؤلاء يظلون متباعدين ويسـتحيل أن يلتقوا. ينظر المتطرفون بعضـهم إلى بعض بشـك، وهم على استعداد للاشـتباك والمواجهة. ومع ذلـك، فهـم جيران، بل إنهم أعضـاء في أسـرة التطرف الواحـدة. والكراهية التي يحسّ بها متطرف نحو متطرف آخر شـبيهة بالكراهية بين الإخوة. من الأسهل على شيوعي متطرّف أن يتحول إلى الفاشية، أو الوطنية المتطرفة، أو الكاثوليكية، من أن

facebook.com/ketabme

يتحول إلى ليبرالي معتدل.

إن نقيض المتدين المتعصب ليس الملحد المتعصب، ولكن المتشكك الذي لايتخذ موقفًا محددًا من الدين، الملحد متدين من نوع ما؛ لأنه يعتنق الإلحاد كما يعتنق المرء دينًا جديدًا[1]. والملحد يتبع مبدأه بحماسة وقوة. يقول رينان: (عندما يكفّ العالم عن الإيمان بالله فإن الملحدين سيكونون أشد الناس تعاسة»[2]. ومن المنطلق نفسه، نجد أن نقيض الوطني المتطرّف ليس الخائن، بل المواطن المنطقي المعتدل الذي يحب الحاضر، ولا يتطلع إلى الاستشهاد والمغامرات البطولية. كثيرًا ما يكون الخائن متطرفًا -من النوع الراديكالي أو الرجعي- ينحاز إلى العدو؛ ليسارع في تحطيم العالم الذي يكرهه. وأكثر الخونة، خلال الحرب العالمية الثانية، كانوا ينتمون إلى اليمين المتشدّد (يبدو أن هناك خيطًا رفيعًا يفصل بين القومية العنيفة المتطرفة والخيانة)[3].

ونحن الذين عاصرنا مدة هتلر، ندرك أن الروابط التي تجمع بين الرجعي والراديكالي أكثر من الروابط التي تجمع أيًّا منهما بالليبرالي أو المحافظ.

63

من المستبعد أن يستطيع المتطرّف الذي هجر قضيته المقدّسة، أو الذي وجد نفسه، فجأة، بلا قضية أن يتأقلم مع وجود فردي مستقلّ. الأغلب أنه سيصبح باحثًا عن قضية أخرى، شأنه شأن المسافر المفلس الذي ينتظر مرور سيارة تحمله مجانًا.

إن الوجود الفردي حتى عندما يكون ذا معنى يبدو، في عين المحبط، تافهًا وغير

(1) Fedor Dostoye Yesky, the Idiot, Part iv, chp, p. 7.

(2) Ernest Renan, op. cit, vol. v, p. 159.

(3) Harold Ettlinger, the Axis on the Air, (Indiana polis: Bobbs- Merill company, 1943, p. 39.

facebook.com/ketabme

مُجِّد، أشبه ما يكون بالخطيئة. يرى المحبط في التسامح علامة الضعف والسطحية والجهل، ويظل متعطشًا إلى تلك الثقة المطلقة التي لا تجيء إلا بالاستسلام الكامل، بالالتحام، قلبًا وقالبًا، بعقيدة وبقضية. ولا تهم هنا طبيعة القضية بقدر ما يهمّ أن يلتصق بها ويتواصل مع أتباعها. بل إننا نجده على استعداد للانضمام إلى حرب مقدّسة ضد قضيته السابقة شريطة أن تكون الحرب شاملة متطرفة بعيدة عن التسامح تعدّ عقيدتها الحقيقة الأولى والأخيرة.

كان المتطرفون السابقون في ألمانيا واليابان المهزومتين أشد تجاوباً مع الدعوة الشيوعية والدعوة الكاثوليكية المتعصبة، فهم مع التعاليم التي تنادي بالحياة الديمقراطية. ونجاح الشيوعي، هنا لا يعتمد على أساليبها الفاعلة بقدر ما يعتمد على بذرة التطرف الذي يوجد في نفوس المتطرفين السابقين في اليابان وألمانيا. إن الذين يدعون إلى الديمقراطية لا يستطيعون تقديم قضايا مقدّسة يمكن الالتحام بها، ولا جمهورًا متماسكًا يستطيع المرء أن يذوب فيه. تستطيع روسيا الشيوعية بسهولة، أن تحول سجناء الحرب اليابانيين إلى شيوعيين متطرفين في الوقت الذي تعجز فيه الدعاية الأمريكية، مهما كان ذكاؤها وتطورها، من أن تقنعهم بالتحوّل إلى ديمقراطيين يعشقون الحرية.

الحركات الجماهيرية والجيوش

64

من المفيد، هنا، قبل أن نغادر موضوع التضحية بالنفس، أن نلقي نظرة على وجوه الشبه والفوارق بين الحركات الجماهيرية والجيوش، وهي المشكلة التي سبق لنا التطرق إليها في قسم «35»، وقسم «37» من هذا الكتاب.

إن وجوه الشبه كثيرة: كل من الحركات الجماهيرية والجيوش تنظيمات جماعية؛ كلّ منهما يسلب الفرد استقلاله وتميزه؛ كل منهما يتطلب التضحية

facebook.com/ketabme

بالنفس، والطاعة العمياء، والولاء المطلق؛ كل منهما يستعين بالخيال والأوهام للتحفيز على المغامرة والعمل الجماعي (راجع قسم «47»)؛ وكل منهما يصبح ملجأ للفرد المحبط الذي لا يستطيع أن يتحمل وجوده المستقل. بوسع تنظيم عسكري، كالفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي، أن يجتذب كثيرًا من العناصر التي تستهويها الحركات الجماهيرية. ومن الملاحظ أن ضابط التجنيد العسكري، والناشط الشيوعي، والداعية التبشيري، يصيدون الأسماك من البحيرة نفسها: بحيرة المحبطين.

ومع ذلك، فإن هناك فروقًا جوهرية بين الجيوش والحركات الجماهيرية: لا يهدف الجيش إلى إيجاد أسلوب جديد للحياة؛ ولا يشكل طريقًا للخلاص. صحيح أن بإمكان سلطة قمعية ما أن تستخدم الجيش هراوة لفرض أسلوب جديد من الحياة على الذين يرفضون هذا الأسلوب، إلا أن الجيش، في الأساس، أداة للحفاظ على نظام قائم أو أداة لتوسّعه، سواء كان النظام قديمًا أو جديدًا. والجيش أداة يمكن أن تفعل، بالتجنيد ويمكن أن تحل بالتسريح. إلا أن الحركة الجماهيرية تعدّ نفسها منظمة أبدية، والأعضاء الذين ينضمون إليها ينضمون مدى الحياة. إن الجندي السابق محارب قديم، وقد يكون بطلًا، أما المؤمن الصادق السابق فمجرد خائن. الجيش أداة لتقوية الحاضر وحمايته ومدّ نطاقه. أما الحركة الجماهيرية فهدفها نسف الحاضر، وهي مسكونة بهاجس المستقبل، الأمر الذي يمنحها الكثير من العزيمة والقوة. وعندما تبدأ الحركة الجماهيرية في الانشغال بالحاضر، فمعنى هذا أنها حققت هدفها. في هذه المرحلة ينتهي كونها حركة، وتتحول إلى كيان مؤسسي، كنيسة منظمة، أو حكومة، أو جيش (من الجنود والعمّال). يحمل الجيش الشعبي الذي كثيرًا ما يكون من إنتاج حركة جماهيرية بعض خصائص هذه الحركة: الخطاب المثير، والشعارات الملتهبة والرموز المقدّسة. إلا أنه، كأي جيش آخر، يحتفظ بتماسكه لا بسبب العقيدة والحماسة بل بفضل التدريب المستمر والضبط وأخوة السلاح. بعد مدة، يفقد الجيش الشعبي سمات الحركة الجماهيرية

facebook.com/ketabme

ويصبح جيشًا مولعًا بالحاضر، وبما يتيحه من ملذات ومتع، شأنه شأن الجيوش كلها.

يتعامل الجيش، بوصفه أداة من أدوات الحاضر، أساسًا مع الأهداف الممكنة، ولا يعتمد قادته على وقوع معجزات، حتى عندما يحمل الجيش عقيدة مقدّسة فإن بالإمكان إقناعه بقبول حلول وسط. يعرف الجيش أنه من الممكن أن يهزم ويعرف، من ثم، كيف يستسلم. من الناحية الأخرى، نجد أن قائد الحركة الجماهيرية يشعر باحتقار هائل للحاضر، بكل حقائقه، بما فيها حقائق الجغرافيا والمناخ، ويحاول أن يتجاوزها بالإيمان بالمعجزات. ويصل احتقاره للماضي أوْجه عندما يزداد الموقف الذي يواجهه خطورة. إنه على استعداد لتدمير بلاده وشعبه قبل أن يستسلم.

تنبع التضحية بالنفس داخل جيش ما من الانقطاع للواجب، من الخيال والأوهام، من الروح الجماعية، من التدريب والتمرين، من الإيمان بالقائد، من المغامرة، والتعطش إلى المجد. وهذه الأدوات، على خلاف أدوات الحركات الجماهيرية، لا تنبع من احتقار الحاضر وكراهية النفس، وبالإمكان تفعيلها دون حاجة إلى جو مشحون بالتوتر. إن الجندي المتطرف، عادة، متطرّف تحول إلى جندي، وليس العكس وروح التضحية عند الجيش تعكسها بدقة كلمات قائد عسكري عندما اكتسح جيشه العدو: (لو كان بوسعنا، بالفرار من هذه الحرب، أن نفرّ من الشيخوخة والموت، لما وجدتني أقاتل هنا، ولكن مع وجود الموعد الذي يطاردنا على نحو لا نستطيع تفاديه، فمن الأفضل أن نصمد ونقاتل، ونحقق الأمجاد لرجال غيرنا، ونظفر بها نحن)[1].

(1) Homer, Iliad.

facebook.com/ketabme

إن الفارق الذي يسترعي الانتباه بين الحركات الجماهيرية والجيوش يتضح في نظرة كل منهما إلى الغوغاء.

يلاحظ دي توكيفيل أن الجنود (هم الذين يفقدون حياتهم بسهولة، ويبدو ضعفهم خلال أيام الثورة)[1] ينظر قائد الجيش إلى الغوغاء باعتبار أن جيشه سيصبح منهم إذا ما تفكك. وهذا القائد يرى في الغوغاء النزعة إلى الفوضى والتخريب قبل أن يلحظ نزعتها إلى التضحية بالنفس. يرى في الغوغاء بقايا من بناء جماعي تهدم، ولا يعدّهم المادة الخام لغد أفضل. وهكذا نجد أن موقفه مزيج من الخوف والاحتقار: يستطيع أن يقمع الغوغاء، ولكنه لا يستطيع أن يستميلهم، أما قائد الحركة الجماهيرية فيستمد الإلهام من المجموع ووجوهها الملتفتة إليه، ويعد زئير المجموع في أذنيه صوت القدر. يرى في الغوغاء قوة قاهرة تحت تصرفه، قوة يستطيع هو وحده التحكم فيها، وعن طريقها يستطيع تدمير الجيوش والأمبراطوريات، والحاضر كله، برغم قوته. يبدو وجه المجموع، في نظر قائد الحركة وجهًا قادمًا من الأعماق، وجهًا يستطيع أن يخلق العالم الجديد.

(1) Alexis de Tocqueville, Recollections (New York: Macmillan Company, 1896) p. 5.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل الرابع عشر

العوامل التي تشجع العمل الجماعي

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الكراهية

65

الكراهية هي أكثر العوامل الموحّدة شمولاً ووضوحًا. تجتذب الكراهية الشخص من نفسه، وتنسيه ما حوله، يومه ومستقبله، وتحرّره من الشعور بالغيرة والرغبة في الإنجاز.

وهكذا يصبح الشخص جزءًا لا هويّة له يتحرّق بالرغبة إلى الالتحام بالأجزاء التي تشبهه؛ ليكوّنوا جمهورًا شديد الاشتعال[*] ويرى هاين أن ما لا يمكن تحقيقه بالحبّ على الطريقة المسيحية يمكن تحقيقه بالكراهية الجماعية[1].

تستطيع الحركة الجماهيرية أن تبدأ وتنتشر دون أن تؤمن بالله، ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك دون الإيمان بالشيطان. ويمكن ، عادة، أن نقيس قوة الحركة الجماهيرية بمدى نجاحها في إيجاد شيطانها وتجسيده، عندما سُئل هتلر عمّا إذا كان من الضروري إبادة اليهود قال: (كلا.. لو زال اليهود لكان علينا أن نخترعهم... من الضروري أن يكون هناك عدو ملموس لا مجرد عدو مفترض)[2]. ويروي أف. إي. فويجت قصة بعثة يابانية وصلت برلين سنة 1923م لتدرس الحركة النازية. سأل فويجت أحد أعضاء هذه البعثة عن رأيه في هذه الحركة، فكان جوابه: (إنها رائعة. أتمنى أن توجد حركة مشابهة في اليابان، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك؛ لأنه لا يوجد لدينا يهود)[3].

(*) يقول عبد الله ثابت: «... عدت من هذه الرحلة وأكثر نقطة في الكون بغضًا إلى قلبي بيت أهلي المليء بالمعاصي والكفريات، ولتعود الخلافات والمناجزات بيني وبينهم من جديد، ولعظيم ما بي من الإقبال على هؤلاء والإدبار عن أهلي، حدثت... المسؤول عني عما أعيشه. فأمرني بترك البيت مجددًا، والنوم بالمساجد، وسيعطيني ما أحتاجه من المال، فامتثلت لأمره وغادرت بيت أهلي». الإرهابي 20، مرجع سابق، ص95.

(1) Heinrich Heine, Religion And Philosophy In Germany (London: Trubner & Company, 1882), p. 234.

(2) Hermany Rauschning, Hitler Speaks, (New York: G. p. putnam's sons, 1940), p. 234.

(3) Fritz August Vol 6t, unto caesar (New York: G. P. Putnams Sons, 1938), p. 301.

facebook.com/ketabme

إن براعة الشخص الذي يعرف كيف يبدأ حركة جماهيرية ويطلقها، أو كيف يبقيها، تتجلى في معرفة كيف يختار العدو الملائم بقدر ما تتجلّى في قدرته على اختيار العقيدة الملائمة ووضع برامج لتنفيذها. لم يصبر المنظرون في الكرملين حتى تهدأ مدافع الحرب العالمية الثانية قبل أن يختاروا الغرب الديمقراطي، والولايات المتحدة على وجه الخصوص، عدوًّا للشيوعية. ومن المشكوك فيه أن أي مبادرات سلمية أو تنازلات كانت ستخفّف من حدة الهجوم العنيف الذي أخذ ينصبّ على الغرب من الكرملين.

ولعلّ أفدح الأخطاء التي ارتكبها تشانج كاي شيك كان فشله في أن يجد العدو الجديد الملائم بعد أن اختفى جيش الاحتلال الياباني من المسرح في نهاية الحرب العالمية الثانية. كان الجنرال شديد الطموح، ولكنه كان يفتقر إلى الذكاء الذي يوضّح له أن ما أبداه الصينيون من حماسة وترابط واستعداد للتضحية بالنفس لا ترجع إلى شخصه هو، بل إلى وجود الشيطان الياباني المحتل.

66

تستطيع الكراهية الجماعية أن توحّد العناصر المتنافرة. بل إن هذه الكراهية يمكن أن توجد رابطًا مشتركًا مع عدو على نحو ينخر قواه ويضعف مقاومته. لقد استطاع هتلر أن يستغل كراهية اليهود، لا لكي يوحد ألمانيا فحسب، بل ليضعف مقاومة دول تكره اليهود، مثل بولندا ورومانيا وهنغاريا، وحتى، في النهاية، فرنسا. كما استطاع أن يستخدم كراهية الشيوعية بالطريقة نفسها.

67

إن الرب ربّ واحد، والشيطان في الحركات الجماهيرية شيطان واحد. وهنا لنا أن نصغي إلى هتلر، أعظم خبير في طبيعة الشياطين، وهو يقول: إن عبقرية الزعيم تتجلّى فى التركيز على عدو واحد على نحو (يجعل حتى الخصوم المتنافرين داخل

facebook.com/ketabme

هذا العدو يظهرون كما لو كانوا كتلة واحدة)[1]. وعندما اختار هتلر اليهود شيطانًا لحركتـه، فإنـه عمد إلى ملء العالم كلّـه تقريبًا خارج ألمانيا باليهـود أو عملائهم: (خلف إنجلترا يقف اليهود، وخلف فرنسـا، وخلف الولايات المتحدة)[2] وسـتالين، بدوره، آمن بضـرورة اختيار شيطان واحد. في الماضي كان هذا الشيطان الفاشية، ثم أصبح الرأسمالية الأمريكية.

يتمتع شـيطان الحركة الجماهيرية بحضـور دائم وقوي لا حـدود له. وعندما سُئِل هتلر عما إذا كان يبالغ في الأهمية التي يضفيها على اليهود؟ أجاب: (لا! لا! لا! من المستحيل أن نبالغ في وصف القوى الهائلة للعدوّ اليهوديّ)[3]. وهكذا يصبح أي فشل داخل الحركة من فعل الشيطان، وأي نجاح تحقق فمن الشيطان ومخططاته.

ويبـدو، ختامًـا، أن الشـيطان المثالي لا بدّ أن يكـون أجنبيًّا. ومـن هنا فإنه لا بدّ، لكي تكتمل الصـورة من منح الشيطان المحلي أصـولًا أجنبية. كان بوسع هتلر، بسـهولة، أن يدفـع اليهود الألمان بوصـمة الأجانـب. وقد ركّزت الحركة الروسـية الثورية على الأصـول الأجنبية للاستقراطية الروسـية[4]. وخلال الثورة الفرنسية اعتُبر الارسـتقراطيون (أحفاد الألمان المتوحشـين، أما الفرنسيون العاديون فكانوا أحفاد الرومان والفرنسـيين القدامى المتحضـرين[5]) وفي أثناء الثورة الإنجليزية اعتبر الملكيون (من النورمان المنحدرين من الغزاة الأجانب)[6].

68

نحـن، عـادة، لا نبحث عـن حلفاء عندما نحـبّ. حقيقـة الأمر أننـا نعدّ من

(1) Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Houghton Mifflin Company, 1943), p. 118.

(2) Quoted By Herman Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. P. Putnam's Sons, 1940), p 234.

(3) Ibid.

(4) Crane Brinton, the Anatomy of Revolution (New York: w. w. Norton & Company, Inc., 1938) p. 62.

(5) Ibid.

(6) Ibid.

facebook.com/ketabme

يشاركوننا حُبّنا منافسين ومعتدين، إلا أننا، دومًا، نبحث عن حلفاء عندما نكره.

مـن طبيعة الأمـور أنه يجـب أن نبحث عن آخريـن يقفون معنـا عندما تكون لدينـا ظلامة مشـروعة تجعلنا نتـوق إلى الانتقام من أولئك الذيـن ظلمونا. إلاّ أن الشـيء المُحيّـر هو أنه حتى عندمـا لا تنبع كراهيتنا من ظلامة واضـحة ولا تقوم على أساس، فإن الحاجة إلى حلفاء تصبح أشدّ إلحاحًا. إن الكراهية غير المنطقية هي التي تدفعنا إلى الانضـمام إلى أولئك الذين يكرهون كما نكره، وهذا النوع من الكراهية هو الذي يتحول إلى عامل فاعل من عوامل الوحدة.

من أين تأتـي هذه الكراهية غير المنطقية ولماذا تتحوّل إلى عامل توحيد؟ إنها تعبير عن محاولة يائسـة من جانبنا لإخفاء شـعورنا بالنقص، أو بقلة أهميتنا، أو بالذنـب، أو بأي عيوب أخـرى تنبع من داخلنا. يتحـول احتقارالنفس، هنا كراهية للآخريـن، مع محاولة مسـتميتة لإخفاء هذا التحوّل. من الواضـح أن أكثر الطرق فاعلية لتحقيق التحوّل هو أن نجد أكبر عدد ممكن من الأشـخاص الذين يكرهون كمـا نكـره. نحتاج هنا إلى قدر كبير مـن التوافق، وجهدنا لتحقيـق هذا التوافق لا يتعلّـق بنـوع العقيدة التي نبشـر بها، بـل بالكراهية غير المنطقية التـي نود أن تعمّ الجميع.

حتّى عندما تكون هناك ظلامة مشروعة، فإن كراهيتنا لا تنبع من الظلم الذي مسنا بقدر ما تنبع من إحساسنا بالعجز والفشل والجبن، بعبارة أخرى من احتقارنا أنفسـنا. عندما نشـعر بالتفوق علـى أعدائنا فإننا نعاملهم باحتقار، وربما بشـيء مـن الشـفقة، ولكننا لا نكرههم. إن العلاقة بين الظلم والكراهية ليسـت واضـحة ومباشـرة، كما يتضـح لنا من الحقيقـة التي تثبت أن الكراهية التـي يبعثها الظلم لا توجّـه، دائمًا، نحو الظالمـين. كثيرًا ما يحدث عندما يظلمنا شـخص أن تتحوّل كراهيتنا إلى شخص آخر، أو جماعة أخرى لا علاقة لها بالأمر، من السهل استثارة الروسـ الذين يعانون القمع على يد بوليس سـتالين السـرّي ضـد (تجار الحروب

facebook.com/ketabme

الرأسماليين)؛ وقد انتقم الألمان الذين شعروا بالظلم الذي أوقعته بهم معاهدة فرساي بإبادة اليهود؛ وعمد الزولو الذين كان البوير يضطهدونهم في جنوب أفريقيا إلى ذبح الهندوس؛ ولجأ رعاع البيض الذين يحتقرهم الأرستقراطيون البيض في جنوب الولايات المتحدة إلى شنق السود(*). إن احتقار النفس يولّد (أكثر النزعات إجرامًا؛ لأنه يجعل الشخص ينطوي على كراهية قاتلة للحقيقة التي تدينه هو، وتظهر عيوبه)[1].

69

تتّضح لنا الحقيقة التي تقول: إن الكراهية تنبع من احتقار النفس أكثر مما تنبع من الظلامة المشروعة عندما نتفحّص العلاقة الحميمة بين الكراهية وتأنيب الضمير.

لا توجد طريقة أكثر فاعلية لكره شخص ما من إيقاع ظلم فادح بهذا الشخص. إن كون الآخرين يملكون ظلامة حقيقية تدعوهم إلى كرهنا يجعلنا نكرههم أكثرمما لو كنّا نملك ظلامة حقيقية ضدّهم. ونحن لا نجعل الناس متواضعين وديعين نادمين على تصرفاتهم عندما نكشف لهم عن ذنوبهم؛ الأرجح أننا سنثير فيهم مشاعر الكبرياء والعدوانية. إن شعورنا أننا على حق مطلق لا يعدو أن يكون ضجة عالية نحاول أن نغرق فيها شعورنا المترسخ بالذنب الكامن في أعماقنا.

هناك شعور بتأنيب الضمير خلف كل الكلمات والأفعال المتعالية على الآخرين وخلف كل إعلان عن الرضا التام عن النفس.

70

نصبّ المزيد من الوقود على كراهيتنا عندما نظلم الذين نكرههم. وعلى

(*) يمكننا أن نضيف هنا أن الإسرائليين انتقموا من المحرقة الألمانية بصب جام غضبهم على الفلسطينيين (المترجم).

(1) Pascal, Pensees.

facebook.com/ketabme

النقيض، فنحن عندما نتعامل مع العدو بتسامح نضعف من كراهيتنا له.

71

أكثر الطرق فاعلية لخنق تأنيب الضمير إقناع أنفسنا والآخرين أن الذين أخطأنا بحقهم هم، بالعقل، مخلوقات شريرة تستحق أقصى العقوبات، بما فيها الإبادة. ليس بوسعنا أن نشفق على الذين ظلمناهم، ولا أن نتصرف إزاءهم بحياء. لا بدّ أن نكرههم ونضطهدهم وإلا أبقينا الباب مفتوحًا أمام احتقارالنفس.

72

يعاني أتباع الأديان السامية شعورًا بالذنب عندما تتسع الهوة بين تعاليم دينهم وواقعهم المليء بالمعاصي. وعندما يدخل التطرف الصورة، فإن الشعور بالذنب يتحوّل إلى كراهية سافرة. وهكذا نجد أنه كلما ازداد التطرف عند أتباع مذهب ما، مهما كان المذهب نفسه ساميًا، كلما نما لديهم الشعور بالكراهية.

73

إن كراهية عدو لديه جوانب طيّبة أسهل من اختيار عدو سيئ تمامًا. يصعب علينا أن نكره أولئك الذين نحتقرهم احتقارًا تامًا. خلال الحرب العالمية الثانية، كانت لدى اليابانيين ميزة على الغرب، إذ كان اليابانيون معجبين بالغربيين أكثر مما كان الغربيون معجبين بهم، ولهذا فقد كان بوسعهم كراهية الغربيين بحدّة لم توجد عند الغربيين. وقدرة الأمريكيين على الكراهية أقلّ من قدرة غيرهم بسبب شعورهم بالتفوق على كل الأجانب. إن كراهية الأمريكي أمريكيًّا آخر (الرئيس هوفر(*) أو الرئيس روزفلت(**) مثلًا) أكثر عنفًا من أي كراهية يمكن أن يشعر بها

(*) تولّى هيربرت هوفر (1874 - 1964م) رئاسة الولايات المتحدة بين سنتي (1929 - 1932م) وفي عهده حصل الانهيار الاقتصادي الشامل الذي سُمّي الكساد العظيم (المترجم).

(**) تولى فرانكلين روزفلت (1882 - 1945م) الرئاسة بعد هوفر وكان الرئيس الأمريكي الوحيد الذي انتخب ثلاث مرات، وتمكن عن طريق سياسات مالية مبتكرة من القضاء على الكساد، وقاد الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية ويعدّ من أعظم الرؤساء الأمريكيين (المترجم).

facebook.com/ketabme

نحو الأجانب. ومن اللافت للنظر أن الجنوب المتخلف في الولايات المتحدة يشعر بكراهية الأجانب بدرجة لا توجد في بقية البلاد. وعندما يبدأ الأمريكيون في كراهية الأجانب من أعماقهم، فسوف يكون هذا بمنزلة اعتراف بأنهم فقدوا إيمانهم بتفوق أسلوبهم في الحياة(*).

إن امتزاج الإعجاب بالكراهية يتّضح في نزعتنا إلى تقليد من نكرههم. وهكذا نرى أن كل حركة جماهيرية تصوغ نفسها على نحو يناسب شيطانها المختار. مارست المسيحية في عنفوانها سلوكًا شبيهًا بسلوك المسيح الدجّال. ومارس اليعاقبة في فرنسا كل شرور الطغيان الذين ثاروا عليه. وحققت روسيا السوفييتية أقصى ما يمكن أن يحققه الاحتكار الرأسمالي. وقد جعل هتلر من كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) نموذجًا اتبعه وطبقه بكل تفاصيله[1].

من المفزع حقًّا أن نلحظ كيف يعمد المظلومون، دومًا، إلى صياغة أنفسهم على شكل ظالميهم. وما يقال من أن الشرّ يبقى حتى بعد أن يذهب فاعلوه صحيح، ومرجع ذلك أن الذين لديهم سبب لكراهية الشر يشكلون أنفسهم على شاكلته، ومن ثم يديمون وجوده. من الواضح، إذًا، أن تأثير التطرف يتجاوز بكثير حدود قدراته، من خلال الدعوة إلى الشر ونشره، يصور المتطرّف العالم كله على مثاله. لقد وضعت المسيحية المتطرفة بصماتها على العالم القديم عن طريق احتضان أتباع جدد وعن طريق دفع أعدائها الوثنيين إلى المزيد من القسوة. وقد فرض هتلر نفسه على الدنيا بنشر النازية وبإجبار الديمقراطيات على أن تصبح متطرفة وقاسية. وروسيا الشيوعية تصوغ كلاًّ من أعدائها وأصدقائها على مثالها.

وهكذا نرى أن الكراهية وسيلة سهلة لتحفيز جماعة ما للدفاع عن نفسها، إلاّ أنها، على المدى البعيد، ذات ثمن باهظ، ونحن ندفع هذا الثمن عندما نتخلّى عن

(*) هل بقي هذا الموقف الأمريكي من الأجانب بعد تفجيرات سبتمبر (2001)؟
سؤال أتركه مفتوحًا! (المترجم).

(1) Herman Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. p. Putnam's sons, 1940) p. 235.

facebook.com/ketabme

القيم التي كنّا في البداية ندافع عنها، أو عن بعضها.

تمكن هتلر، الذي أدرك عنصر الإعجاب في الكراهية، من الوصول إلى استنتاج مذهل، قال: إنه من الضروري للحركة النازية أن تستثير كراهية أعدائها الحادّة، وأن تستحقها. هذه الكراهية، في رأيه، هي الدليل على تفوّق النازية: (إن أصدق دليل على قيمة النازية وصدق عقيدتها وقوة إرادتها هو العواء الذي تقابل به من جانب العدوّ)[1].

74

نحن، عندما نشعر بالظلم نتيجة معرفتنا بقلّة أهميتنا، لا نرى أنفسنا أحطّ من البعض وأرقى من البعض، بل نرى أنفسنا في الحضيض، وعندها نكره العالم كلّه ونصب جام غضبنا على الخليقة بأكملها.

إن المحبطين يشعرون بكثير من السعادة عندما يشهدون سقوط المحظوظين وفضائح المثاليين. يرى المحبطون في الانهيار الشامل وسيلة لإقامة الإخاء بين الجميع. الفوضى، كالقبور، مكان يضمن المساواة. إن شعور المحبطين المتحرق بضرورة إيجاد حياة جديدة ونظام جديد يغذيه الاعتقاد أنه لا بد من هدم القديم تمامًا قبل البدء في بناء الجديد. أن تشوقهم إلى عهد جديد مليء بكراهية كل ما هو قائم، والتطلع إلى نهاية العالم.

75

بوسع الكراهية المتقدة أن تمنح الحياة الفارغة معنى وهدفًا. ومن هنا، فإن الأشخاص الذين يعانون تفاهة حياتهم يعمدون إلى البحث عن معنى جديد، لا عن طريق اعتناق قضية مقدّسة فحسب، بل باحتضان ظلامات متطرفة. وتتيح الحركة الجماهيرية للمحبطين تحقيق الهدفين.

(1) A dolph Hitler, op. cit, p. 351.

facebook.com/ketabme

76

قال باسكال: (الناس، بطبيعتهم، يكرهون بعضهم بعضًا) وقال: (إن الحب والإحسان ليسا سوى صورة خارجية مزيفة تخفي في قاعها الكراهية)[1]. وسواء كان ما قاله باسكال صحيحًا أو لم يكن، فإنه يصعب علينا أن ننكر أن الكراهية عامل لا يغيب عن تصرفاتنا الفردية والجماعية. والكراهية نتيجة طبيعية لانهيار ولائنا وعواطفنا وآمالنا. ومن الناحية الأخرى، فإنه بوسعنا أن نستغل الكراهية لصنع الولاء والحماس والأمل. قال مارتن لوثر: (عندما أشعر أن قلبي بدأ يبرد، وأعجز عن الصلاة بحرارة، أجلد نفسي بتصوّر جحود أعدائي وقلة إيمانهم، أعني البابا وأعوانه.. عندها يمتلئ قلبي بالغضب الصادق والكراهية، وأستطيع أن أصلي بقوة ودفء: «تبارك اسمك، وجادت مملكتك، وتمت إرادتك! كلما ازداد غضبي زادت حماستي للصلاة»[2].

77

إن الوحدة والتضحية بالنفس، في حد ذاتهما، حتى عندما يكونان نتيجة عوامل سامية يخلقان قدرة على الكراهية. حتى عندما يتحد الناس بقوة لنشر التسامح والسلام على الأرض، فإنه من المتوقع ألا يشعروا بأي تسامح إزاء أولئك الذين لا يشاركونهم معتقدهم.

لا يمكن من دون غربة عن النفس أن تكون هناك تضحية بالنفس أو التحام كامل في المجموع وهذه الغربة تخلق، كما سبقت الإشارة، نزعة نحو المواقف المتطرفة، التي تشمل الكراهية الحادة. وهناك عوامل أخرى تساعد على نشوء الكراهية في محيط الوحدة والتضحية بالنفس. إن الاستعداد للتضحية بالذات يجعلنا قادرين على القسوة، خالية من الرحمة في مواجهة الآخرين. هناك

(1) Pascle, op. cit.

(2) Luther, «Table Talk, Number 2387 a- b» Quoted In Frantz Funck- Brentano, Luther (London: Jonathan Cape Ltd. 1939), p. 319.

facebook.com/ketabme

اعتقاد شائع أن المؤمن الصادق، والمتدين بصفة خاصة، هو إنسان متواضع. إلا أن الحقيقة هي أن التخلص من النفس وإذلالها قد يقود إلى الغرور والكبرياء. ينزع المؤمن الصادق إلى اعتبار نفسه واحدًا من الصفوة المختارة، ملح الأرض، نور العالم العظيم المتستر تحت رداء التواضع،الشخص الذي سيرث الأرض ويرث ملكوت السماء[1]. أنه يرى أن الذين ليسوا من عقيدته من الأشرار، وكل من يرفض الاستماع إليه يجب أن يهلك[*].

وهناك نقطة أخرى: عندما نهرب من أنفسنا ونصبح جزءًا من مجموع، فإننا لا نتخلى عن المزايا الشخصية فحسب، بل من كل مسؤولية شخصية. لا يستطيع أحد أن يتوقع حدود القسوة والعنف التي يمكن أن يصل إليها الإنسان عندما يتحرّر من مخاوفه وتردده وبقايا الطيبة في نفسه، أي من الأشياء التي تذهب مع ذهاب المسؤولية الشخصية. عندما نصهر استقلالنا في مجموع الحركة الجماعية، فإننا نعثر على حرية جديدة: حرية الكراهية والتخويف والكذب والتعذيب والقتل والخيانة دون خجل أو ندم. وهنا، بلا شك، نجد جزءًا من جاذبية الحركة الجماهيرية. نجد هنا (الحق في الانتهاك) الذي يزعم دستوفسكي أن له جاذبية لا تقاوم[2]. كان هتلر يحتقر القسوة التي يمارسها شخص بإرادته المستقلة: (أي عنف لا ينبع من قاعدة روحية صلبة سوف يكون مشوبًا بالتردد والشكّ. هذا العنف يفتقر إلى عنصر الاستقرار الذي لا يوجد إلا في الموقف الجماعي المتطرف)[3].

(1) Matthew 5.

(*) يصف عبدالله ثابت شعوره عندما أصبح واحدًا من الجماعة المتطرفة: «يا إلهي.. أيّ مجد هذا الذي أنا فيه، فمن كل حرماني الذي مضى إلى جنديّ في سبيل الله، يخطط ويعمل ويقدم ويؤخر لإقامة شريعة الله بدولة جديدة. ها أنا بعد كل هذا من الطائفة المنصورة التي ينصرها الله من بين كل الطوائف، ومن الفرقة الناجية التي ستذهب كل الفرق عداها للنار، وأنا من الذين يجددون للأمة دينها، ويخرجونها من الظلمات إلى النور، ويحيونها بعد مواتها» الإرهابي 20، مرجع سابق ص91.

(2) Fedor Dostoyevsky, the Possessed, Part Ic, Chap. 6.

(3) Adolph Hitler, op. cit, p 171.

facebook.com/ketabme

وهكـذا نرى أن الكراهية، كما تكون وسـيلة للتوحيد تكـون نتيجة له. يقول رينان: إننا لم نسـمع بأمة رحيمة واحدة منذ بدء الخليقة[1] ويمكننا أن نضـيف أننا لم نسمع بكنيسـة رحيمة أو حزب ثوري رحيم. إن الكراهية والقسـوة النابعين من الأنانية ليسا بشيء مقارنة بالسم والقسوة النابعين من التضحية بالذات.

عندمـا نرى سـفك الدمـاء والرعب والدماء الناشـئ من حماسـة نبيلة كحب الخالـق، أو حب المسـيح، أو حب الأمـة، والتعاطف مع المظلومين، وهلـم جرّا، فإننا، عادة، ننسـب هذه الفظائع إلى مسلك القيادة الأنانية المتعطشة إلى السلطة. حقيقة الأمـر، إن الوحـدة التـي توجدهـا هذه الحماسـة، لا مكـر القيادة، هـي التي تحوّل النزعـات النبيلة إلى واقع من الكراهية والعنف. إن تجريد الإنسـان من فرديته، هو شـرط أساسي لدمجه فى المجموع، وجعله قابلًا للتضحية بالنفس، هو إلى حد كبير، تجريد له من إنسانيته. إن قبو التعذيب مؤسسة جماعية!

التقليد

78

التقليد عامل أساسـي من عوامل التوحيد. لا يمكن تصـور مجموعة متلاحمة تمامًا دون انتشار أنماط السلوك المتشابهة خلالها. إن الوحدة التي تفخر الحركات الجماهيرية بتحقيقها تعود إلى التقليد بقدر ما تعود إلى الطاعة. والطاعة نفسـها تتجلّى في تقليد النموذج، كما تتجلّى في أتباع المبدأ.

علـى الرغم من أن القدرة على التقليد موجودة عند الناس جميعًا، إلا أنها قد تكون أقوى عند البعض من البعض الآخر. والسـؤال المطروح هنا يتعلق بالمحبطين. هل هناك علاقة بين الإحباط والاسـتعداد للتقليد؟ هل يصبح التقليد، على نحو أو آخر، وسيلة للفرار من المشكلات التي تحاصر المحبطين؟

(1) Ernest Renan, History of the People of Israel (Boston: Little, Brown, Company, 1888- 1846), vol 1. p. 130.

facebook.com/ketabme

إن مشكلة المحبطين الأساسية شعورهم بعيوب أنفسهم وانعدام فاعليتها. وهدفهم الرئيس هو التخلّص من هذه الأنفس المكروهة والمبدأ من جديد. يحاول المحبطون تحقيق هذه الرغبة إمّا بالعثور على هويّة جديدة أو محاولة القضاء على تميزهم الفردي وإخفائه، وكلا هذين الهدفين يتحقق عن طريق التقليد.

بقدر ما يقل رضانا عن أنفسنا بقدر ما تزيد رغبتنا في أن نكون مثل الآخرين. ومن هنا فنحن ننزع إلى تقليد الذين يختلفون عنا أكثر من تقليد من يشابهوننا. كما أننا نقلد أولئك الذين نعجب بهم، لا أولئك الذين نحتقرهم. إن ما نراه من نزعة للتقليد لدى المظلومين (السود واليهود) هو أمر لافت للنظر.

إن محاولة التشويش على النفس وإخفائها لا تتحقق إلا عن طريق التقليد: أن نصبح مثل الآخرين بقدر ما يمكننا. إن الرغبة في الانتماء إلى الآخر هي، في الوقت نفسه، رغبة في الإفلات من النفس.

وأخيرًا، نجد أن نقص ثقة المحبطين في أنفسهم يشجعهم على التقليد. بقدر ما نفقد الثقة في أحكامنا وفي مصيرنا بقدر ما يزداد استعدادنا لتقليد نماذج الآخرين.

79

إن رفض النفس في حد ذاته، حتى عندما لا يصاحبه بحث عن هويّة جديدة يمكن أن يقود إلى المزيد من التقليد. تفقد النفس المرفوضة قدرتها على إثبات تميزها، ومن ثم، تزيل العقبة التي تحول بينها وبين التقليد. إن الموقف هنا لا يختلف عن موقف الأطفال، وعن موقف البالغين الذين لا يشعرون بأي تمايز فيما بينهم، حيث يعني غياب الفردية المتميّزة ترك العقل مفتوحًا أمام التأثيرات القادمة من الخارج.

facebook.com/ketabme

80

إن الشعور بالتفوق يقف حجر عثرة أمام التقليد. لو كان المهاجرون الذين قدموا إلى الولايات المتحدة قومًا متميزين، صفوة المجتمعات التي قدموا منها، لما كان بالإمكان أن توجد ولايات متحدة واحدة، بل خليط من جماعات ثقافية وحضارية متنوعة. إلا أن كون معظم المهاجرين كانوا من قاع السّلم الاجتماعي ومن أشد الطبقات فقرًا، وكانوا منبوذين ومرفوضين، في أوطانهم القديمة، هو الذي أدّى إلى امتزاج العناصر المتنافرة امتزاجًا تامًّا سهلًا. لقد قدم المهاجرون إلى الوطن الجديد برغبة صادقة في طرح هوية العالم القديم والولادة من جديد في حياة جديدة، وكانوا مزوّدين، تلقائيًا، بقدرة فائقة على التقليد وعلى تبني ما هو جديد.

لقد كان اختلاف الوطن الجديد عن أوطانهم الأصلية عنصر جذب لا تنافر: كانوا يتوقون إلى هوية جديدة وحياة جديدة، وكلّما كان العالم الجديد مختلفًا كلما اتفق ذلك مع رغباتهم. وبالنسبة إلى غير الأنجلو/سكسونيين كان اختلاف اللغة عنصر جاذبية إضافية: تعلّم لغة جديدة يؤكد الاعتقاد بأنهم يولدون من جديد.

81

كثيرًا ما يكون التقليد طريقًا مختصرًا إلى الحلّ. نحن نقلّد عندما لا تكون لدينا الرغبة أو القدرة أو الوقت لتطوير حل جديد. ومن هنا فإن المستعجلين يقدمون على التقليد أكثر من أولئك الذين لا يوجد لديهم حافز على الاستعجال. وهكذا نجد أن التقليد عند المجموعة الأولى يقود إلى التماثل. وعندما نكون بصدد صهر أفراد في مجموعة متلاحمة يصبح التقليد عنصرًا مهمًّا في عملية الصهر.

82

إن التوحيد في حد ذاته، وسواء كان سببه الاقتناع أو القمع أو الاستسلام التلقائي، ينزع إلى زيادة القدرة على التقليد. إن المدني الذي ينخرط في الجهاز

facebook.com/ketabme

العسكري المترابط يصبح أكثر قدرة على التقليد، مما كان عليه يوم كان مدنيًّا، والشخص الذي يتم صهره في مجموعة متلاحمة يفقد ذاته المتميزة ويفقد معها القدرة على مقاومةالتأثيرات الخارجية. ولعلّ ما نلحظه عند الشعوب البدائية من نزعة إلى التقليد يرجع إلى كونهم أعضاء في قبائل وعشائر مترابطة أكثر من كونهم في مرحلة بدائية من التطوّر.

إن قدرة الجماعة المتلاحمة على التقليد تشكل في الحركات الجماهيرية عنصر قوة وعنصر خطر في الوقت نفسه. من السهل صهر أتباع الحركة في المجموع، إلا أنهم يبقون عرضة للتأثيرات الخارجية، وهذا ما يخلق الانطباع بأن المجموعة المتلاحمة تمامًا يسهل إغراؤها وإفسادها. ومن هنا نجد أن أدبيات الحركات الجماهيرية مليئة بالتحذير من تقليد النماذج الأجنبية (واتباع مناهجها الشيطانية. تعدّ هذه الأدبيات تقليد الأجانب خيانة وردّة). (كل من يقلّد الأجنبي يهين الأمة، شأنه شأن الجاسوس الذي يسمح بدخول العدوّ من باب جانبي)[1]. تتبع كل الوسائل لمنع أي اتصال بين الأتباع المؤمنين وبين غير المؤمنين. بل إن بعض الحركات الجماهيرية تصل إلى حد أخذ أتباعها إلى الصحراء؛ حتى يتاح للأنماط الجديدة أن تستقر في نفوسهم من دون أي مؤثرات خارجية.

إن احتقار العالم الخارجي هو الوسيلة الأكثر فاعلية لمنع أثر التقليد المخل بوحدة الجماعة. إلا أن الحركة الجماهيرية النشطة تصنع الكراهية في منزلة تفوق الاحتقار السلبي، والكراهية لا تحول دون التقليد و كثيرًا ما تحفّز عليه. أما في الجماعات الصغيرة المحاطة ببحر من الأجانب والتي تصر على الاحتفاظ بتميزتها، فيمكن للاحتقار أن يعزلها عن محيطها وأن يبقيها منطوية على ذاتها لا ترحب بأتباع جدد.

(1) Julien Benda, the Treason of Intellectuals, (New York: William Morrow Company, 1928), p. 39.

facebook.com/ketabme

إن النزعة إلى التقليد تمنح الجماعة المتحدة المتماسكة الكثير من المرونة والقدرة على التأقلم. تستطيع هذه الجماعة تبني التجديدات وتغيير التوجهات بسهولة متناهية. إن التطوّر السريع الذي شهدته كل من اليابان وتركيا المتحدتين يختلف تمامًا عمّا شهدته الصين من تطور بطيء وتأقلم مؤلم مع العادات الجديدة. إن روسيا السوفييتية المتحدة تمامًا تستطيع أن تتبنى أساليب وطرقًا جديدة على نحو لم يكن متاحًا لروسيا القيصرية التي لم تصل إلى الدرجة نفسها من التماسك. كما أنه من الواضح أن الشعب البدائي الذي يتمتع بتنظيم جماعي متماسك يستطيع أن يتطور بسهولة، لا تتاح للشعب البدائي الذي لا يملك سوى تنظيمات قبلية ومجتمعية منهارة.

الإقناع والقمع

83

ينزع الناس - في أيامنا هذه - إلى المبالغة في تأثير الإقناع بوصفه وسيلة لنقل الأفكار وصياغة السلوك، ويعدّون الدعاية سلاحًا لا مثيل لفاعليته. وهم، من المنطلق نفسه، يعزون النجاحات المذهلة التي حققتها الحركات الجماهيرية في هذا العصر إلى الدعاية، بحيث أصبحوا يخافون من الكلمة خوفهم من السيف.

إلا أن الواقع يثبت أن كثيرًا من النجاحات الرائعة التي تنسب إلى تأثير الدعاية لا علاقة لها بالدعاية. لو كان للدعاية هذه الفاعلية الخارقة التي تنسب لها لكانت الأنظمة الشمولية في روسيا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا ستبدو مقبولة إلى حد ما. كانت ستظهر متبجحة ومتعالية، ولكن من دون الوحشية المرعبة التي مارسها البوليس السري ومراكز الاعتقالات والإعدامات الجماعية. الحقيقة أن هذه الأنظمة كانت تعتمد على القمع أكثر من اعتمادها على الدعاية.

يبدو أن الدعاية، وحدها، لا تستطيع أن تشق طريقها إلى العقول التي ترفضها، ولا تستطيع أن تفرض على الناس مواقف جديدة كل الجدة؛ ولا تستطيع أن تبقيهم

facebook.com/ketabme

على المبادئ التي كفروا بها، تتغلغل الدعاية في العقول المفتوحة لها بالفعل، وبدلاً من أن تفرض آراء جديدة، فإنها تعمل على ترسيخ الآراء الموجودة في هذه العقول وتطويرها. إن الدعائي الموهوب هو الذي يفجر العواطف والمشاعر التي كانت تختمر في عقول السامعين، وهو بهذا يحاكي أعمق أحاسيسهم الداخلية. وهذا الدعائي لا يحاول فرض آراء، ولكنه يسعى إلى إقناع الناس بصدق الأشياء التي كانوا يعرفونها من قبل.

إن الدعاية، وحدها، لا تنجح، عادة، إلا مع المحبطين. يجد هؤلاء أنفسهم محاصرين بالمخاوف والأوهام التي تحول بين مداركهم وبين العالم الخارجي، إنهم لا يستطيعون أن يروا إلا ما كانوا يتخيلونه، ولهذا تجيء كلمات الدعائيّ الذي يدغدغ مشاعرهم، وكأنها موسيقى تنبع من أنفسهم الخفيّة. والمحبطون، في الحقيقة، أقدر على التعرف على مشاعرهم في الشعارات الضخمة والكلمات الكبيرة الجوفاء منهم على تبينها في الكلمات المتزنة المنطقية.

إن الدعاية، وحدها، مهما كانت مؤثّرة لا تستطيع أن تبقي على إيمان الناس بعد أن فقدوه. ومن هنا تعمد الحركات الجماهيرية عندما ترى أن الناس لم يعودوا مؤمنين بها، كما كانوا من قبل إلى إجبارهم باستخدام القوّة[1].

إن الكلمات أداة لا بدّ منها لتهيئة الأرض للحركة الجماهيرية. إلا أنه عندما تبدأ الحركة الجماهيرية نشاطها تفقد الكلمات الكثير من فاعليتها القديمة، على الرغم من أنها تظل أداة نافعة للحركة. عبر زلة لسان اعترف الدكتور جوبلز خبير الدعاية الشهير أنه (لا بدّ من وجود سيف حاد يقف خلف الدعاية إذا أريد لها أن تكون فاعلة حقًّا)[2]. بل إن جوبلز يكاد يكون اعتذاريًا عندما يقول: (لا يمكن أن ننكر أن بوسعنا أن نحقق عن طريق الدعاية المؤثرة، ما لا نستطيع تحقيقه في غيابها)[3].

---

(1) Nicclo Mach, Avelli, The Prince, chap. vi.

(2) The Goebbels Diaries, (Garden city: Double day & company. Inc, 1948), p. 460.

(3) Ibid. p. 298.

facebook.com/ketabme

84

عكس ما قد يتوقعه المرء، تصبح الدعاية هيستيرية، ولا عقلانية عندما تعمل جنبًا إلى جنب مع القمع، بخلاف الوضع عندما تعتمد الدعاية على فاعليتها وحدها.

كلٌّ من الذين اعتنقوا المبدأ الجديد باقتناع، والذين اعتنقوه قسرًا، يحتاجون إلى إيمان قاطع أن هذا المبدأ وحده هو المبدأ الصحيح. من دون هذا الإيمان القاطع يتحوّل الإرهابي في نظر نفسه إلى مجرم، كما أن الأتباع الذين تمّ ضمهم قسرًا سيعدّون أرواحهم مجرد بضائع معروضة للبيع.

وهكذا نجد أن الدعاية تساعدنا على تبرير ما نفعله، لا على إقناع الآخرين، وكلما ازداد شعورنا بالذنب ازدادت حاجتنا إلى الدعاية.

85

إن المقولة التي تذهب إلى أن العنف يولّد التطرف صحيحة، كأختها التي تقول: إن التطرف يولّد العنف. كثيرًا ما يكون من المتعذر أن نعرف من الذي سبق الآخر، العنف أو التطرف. كل من الذين يمارسون العنف، والذين يخضعون له، ينزعون إلى تطوير عقليات متطرفة. يقول فيرريرو عن إرهابي الثورة الفرنسية: (كلما سفكوا المزيد من الدماء ازدادت حاجتهم إلى الإيمان بمبادئهم باعتبارها الحقيقة المطلقة. هذا الإيمان هو، وحده، القادر على أن يغفر لهم ما ارتكبوه من جرائم، وعلى أن يبقي طاقتهم متأججة. إنهم لم يسفكوا كل تلك الدماء؛ لأنهم آمنوا بسيادة الشعب باعتبارها حقيقة دينية مطلقة، بل على النقيض، اعتبروا إيمانهم بها حقيقة مطلقة بدافع من الخوف الذي دفعهم إلى سفك الدماء الغزيرة)[1]. إن ممارسة العنف تخدم المؤمن الصادق، لا لأن الرعب يخيف الخصوم ويسحقهم

(1) Guglielmo Ferrero, Principles of Power (New York: G. P. Putnam's sons, 1942), p. 100.

facebook.com/ketabme

فحسـب، بل لأنه يقوّي إيمانه ويجعله أكثر حدّة. إن عمليات شـنق السـود التي كان يقوم بها بعض البيض في جنوب الولايات المتحدة لم تكن ترعب السـود فحسب، بل كانت تغذي إيمان العنصريين البيض وتقوّيه.

يمكـن للقمـع أن يولّد التطرف، حتـى في حالة المقموعين، هناك ما يشـير إلى أن الشـخص الذي أجبر بالعنف على اعتناق مبدأ ما كثيرًا ما يصـبح متطرفًا في إيمانه بالمبدأ الجديد، شـأنه شـأن الشخص الذي آمن بالمبدأ عن اقتناع، وربما أكثر منه. إن المقولة التي تذهب إلى «أن الذي اسـتجاب برغم إرادته سـيبقى على آرائه القديمة لا تصـح في كل الأحوال. في الفتوح الإسـلامية أبدى المسلمون الجدد من الحماسة للدين الجديد ما لم يبده المسـلمون القدامى. ويرى رينان أن الإسـلام أصبح بفضل المسلمين الجدد «دينًا يقوى باسـتمرار»(1). إن العقيدة المتطرفة في كل الحركات تأتي في مرحلة لاحقة على بدء الحركة، عندما تصـبح الحركة قويّة تسـتطيع فرض مبادئها بالإقناع والقسر معًا.

هكذا نجد أن القمع، عندما يكون عنيفًا ومسـتمرًا، يملك قدرة لا تجارى على الإقناع، لا في التعامل مع البسطاء والسذج وحدهم، بل في التعامل مع أولئك الذين يفخرون بنزاهة مواقفهم الفكرية وصلابتها. عندما يصدر الكرملين قرارًا تعسفيًّا يجبر العلماء والكتاب والفنانين علـى الاعتراف بأنهم تخلوا عن مبادئهم وارتكبوا أخطاءً، فمن غير المستبعد أن تمثل اعترافاتهم تحولًا حقيقيًّا في مواقفهم، لا مجرد مظاهر لفظية، إننا نحتاج إلى عقيدة متطرف لتبرير جبننا.

86

لا تـكاد توجد حالة واحـدة لحركة جماهيرية ذات أبعاد واسـعة وتنظيم دائم تمكنت من تحقيق ما حققته عن طريق الإقناع وحده. يلاحظ البروفسـور، ك. س. لا توريـت، وهـو مؤرخ بميول مسـيحية واضـحة، أنه (مهمـا كان التناقض بين روح المسيح والقوة المسلّحة، ومهما كان الاعتراف بالحقيقة مؤلمًا، فإن التاريخ يقول لنا،

(1) Ernest Renan, The Poetry of the celtic Races, (London: w. scott, ltd, 1896), Essay on Islamisim, p. 97.

facebook.com/ketabme

ببساطة إن القوة المسلحة كثيرًا ما كانت العامل الذي نشر روح المسيح ومحاها)[1].

كان السيف الدنيوي هو المسؤول عن جعل المسيحية دينًا عالميًا. تمشى التبشير والغزو يدًا بيدًا، و كثيرًا ما استخدم التبشير مبررًا للغزو. وفي الحالات التي فشلت فيها المسيحية في الحصول على دعم دولة ما، أو الاحتفاظ بهذا الدعم، فإنها لم تستطع تحقيق وجود واسع أو دائم. (واجهت المسيحية في فارس ديانة وطنية تدعمها قوة التاج، ولهذا بقيت محصورة في أقلية صغيرة)[2] وفي الفتوح الإسلامية الأسطورية كان الفتح، نفسه، هو العامل الأساسي، أما الحصول على أتباع جدد للدين، فقد جاء في المرتبة الثانية: (إن أكثر عصور الإسلام ازدهارًا كانت أيام قوته السياسية، وفي هذه الأوقات استقبل الإسلام الكثير من المعتنقين الجدد من خارج دائرته)[3]. لم تستطع حركة الإصلاح البروتستانتي تحقيق أيّ تقدم، إلا عندما حظيت بدعم أمير حاكم أو سلطة محلية. قال ميلانشتون، أكثر مساعدي لوثر حكمة: (دون تدخل السلطة السياسية ماذا كان سيحدث لمبادئنا؟ كانت ستبقى مجرد مبادئ على الورق)[4] وعندما اصطدمت هذه الحركة بقوة الدول، كما حدث في فرنسا، غرقت في بحر من الدماء، ولم تنهض ثانية. وفي حالة الثورة الفرنسية كانت جيوش الثورة، لا أفكارها، هي التي تغلغلت في أوروبا بأكملها[5]. لم تكن المسألة مسألة عدوى فكرية.. قال ديموريز عن الفرنسيين (كانوا يعلنون مبدأ الحرية المقدّس، كما لو كان القرآن، وهم يشهرون السيوف.[6] وخطر الشيوعية،

(1) Kenneth Scott Latourette, The Unquench Able light, (New York: Harper & Brothers, 1941), p. 33.

(2) Kenneth Scott Latourette, A History of the Expansion of Christianity (New York: Harper & Brothers 1937) vol 1, p. 164.

(3) Charles Reginald Haines, Islam, as a Missionary Religion (London: Society For Promoting Christian Knowledge, 1889), p. 206.

(4) Quoted by Frantz Funck. Brentano, op, cit. p. 260.

(5) Gugilelmo Ferrero, The Gamble, (Toronto: Oxford University Press, 1939), p. 297.

(6) Crane Brinton, A Decade of Revolution (New York: Harper and Brothers, 1934), p. 168.

facebook.com/ketabme

في الوقت الحاضر، لا ينبع من قوة أفكارها، ولكن من كونها مدعومة بجيش من أقوى جيوش العالم.

يبدو أنه كلما كان أمام الحركة الجماهيرية خيار الإقناع والقمع، فإنها تنزع إلى اختيار القمع. إن الإقناع عملية صعبة ذات نتائج غير مضمونة. قال القديس الأسباني دومينيك[1] لجماعة متهمة بالهرطقة: (عبر سنين طويلة رجوتكم بلا جدوى، وكنت أعظكم برفق، وأنصحكم بالصلاة والبكاء). إلا أن المثل الأسباني يقول: «عندما لا تنفع الدعوة الرقيقة، فإن الضربات قد تنفع. سوف أثير عليكم الأمراء والحكام... وستنفع الضربات، حيث فشلت الدعوة الرقيقة»[2].

87

إن المقولة التي تذهب إلى أنه لا يمكن إيقاف حركة جماهيرية بالقوة لا تصحّ على علاّتها. تستطيع القوة أن توقف أشد الحركات حيوية وتسحقها إلا أنها لكي تتمكن من فعل ذلك، فلا بدّ من وجود العقيدة عاملاً لا يمكن الاستغناء عنه. إن استخدام القوة استخدامًا عنيفًا مطردًا لا يمكن أن ينبع إلا من عقيدة متطرفة. (كل عنف لا ينبع من قاعدة روحية صلبة سيتصف بالتردد وفقدان الهدف. إنه يفتقر إلى الثبات الذي لا يمكن أن يستند إلا على مبدأ متطرف[3]. ولا يمكن للإرهاب النابع من قسوة فردية أن يذهب إلى المدى المطلوب أو يبقى المدة المطلوبة. مثل هذا العنف الفردي متقلب يتحكم فيه المزاج ويعتريه التردد. (بمجرّد أن تتردد القوة أو تقترن بفترات من التسامح، فإن المبدأ المطلوب طمسه سوف يعود المرة بعد المرة، بل إنه سيستمد المزيد من القوة نتيجة ما عاناه من اضطهاد)[4]. الرعب المقدّس لا يعرف الحدود، ولا يعرف التردد.

(1) عاش القديس دومينيك بين سنتي (1170 - 1221م) وإليه ينسب المذهب الكاثوليكي المُسمى باسمه والذي يركز على أهمية التبشير والتعليم. (المترجم).

(2) «Dominic» Encyclopaedia Brittannica.

(3) Adolph Hitler, op. cit, p. 171.

(4)Ibid p. 171.

facebook.com/ketabme

وهكـذا يبدو أنــه لا بدّ لنا من إيمــان متحمس، لا لكي نســتطيع مقاومة القمع فحسب، بل لكي نستطيع ممارسته بفاعلية.

من أين تأتي الرغبة في التبشير؟

88

إن قــوة العقيدة ليســت العامل الرئيس الذي يدفع حركة جماهيرية إلى نشــر عقيدتهــا في جهــات الأرض الأربــع: (إن الأديان التــي يؤمن بها أتباعها بحماســة كثيرًا ما تكتفي بازدراء العقائد الأخرى واحتقار أتباعها)[1] كما أن التبشــير ليس تعبيرًا عن قوة هائلة لا بدّ، كما قال بيكون (أن تفيض وتغمر كل شــيء، مثل طوفان عظيم[2].

يبــدو أن الرغبة في التبشــير تجيء من شــك عميق، من شــعور بعدم الثقة في صــميم الحركة. ويمكن النظر إلى التبشــير بوصــفه محاولة عاطفيــة للبحث عن شــيء لم نجــده نحن بعد قبل أن يكــون محاولة لإعطاء العالم شــيئًا نملكه بالفعل: إنــه بحــث عن إثبات نهائي قاطــع أن الحقيقة المطلقة التي نؤمــن بها هي، بالفعل، الحقيقــة المطلقة الوحيدة. والتبشــيري المتطرّف يغذي إيمانــه هو عن طريق إقناع الآخرين باعتناق عقيدته. والمذهب الذي تســهل مهاجمة شرعيته سوف يكون أكثر المذاهب حرصًا على التبشير. من المشكوك فيه أن حركة لا توجد في عقيدتها أشياء خياليــة وغــير عقلانية يمكن أن يتملكها ذلك الشــعور الطاغي بأنــه (لا بد من أن نضــم إلينــا العالم، أو ندمر العــالم). كما أنه يمكن القــول: إن تلك الحركات التي تعاني بشدّة من الهوة بين العقيدة والممارسة، وبعبارة أخرى، الحركات التي يتفشى فيها الشــعور بالذنب ســتكون الأكثر حماســة لفرض عقيدتها علــى الآخرين. كلما ظهر عجز الشيوعية عن تحقيق منجزات في روسيا، وكلّما اضطر قادتها إلى تغيير

(1) Jacob Burckhardt, Force and Freedom, (New York: Pantheon Books, 1943), p. 129.

(2) Francis Bacon, «of Vicissitude of thing, Bacons' Essays, Everyman's Library Edition (New York: E. p. Dutton & Company, 1932), p. 171.

facebook.com/ketabme

مبادئها الأصلية وتعديلها، كلما زاد هجوم هؤلاء القادة على العالم غير الشيوعي حدة ووقاحة. أصبح مالكو الرقيق في جنوب الولايات المتحدة أكثر إصرارًا على نشر أسلوب حياتهم عندما أصبح من الواضح أن هذا الأسلوب لم يعد مقبولًا في الحياة العصرية. وعمدا يفرط الاقتصاد الحر في التبشير بقضيته المقدّسة فإن هذا دليل على أن مزاياه وفاعليته لم تعد ظاهرة لا تحتاج إلى بيان(1).

يمكن النظر إلى النزعة المتحرّقة إلى التبشير والنزعة المتحرّقة إلى السيطرة على العالم بوصفهما أعراضًا لمشكلة خطيرة في صميم الحركة. ولعلّه من الصحيح أن المبشرين، والغزاة باسم الدين، شأنهم شأن اللاجئين، يذهبون إلى الشطآن البعيدة؛ هربًا من واقع لا يمكن تحمله في الوطن. والفئات الثلاث، في حقيقة الأمر، كثيرًا ما تتلاقى، وتختلط، وتتبادل الأدوار فيما بينها.

القيادة

89

برغم الأهمية البالغة التي نعلّقها على دور القيادة في صعود الحركة الجماهيرية، فإنّه من المؤكد أن القائد لا يستطيع خلق الظروف التي تجعل صعود حركة جماهيرية أمرًا ممكنًا، أي لا يستطيع صنع الحركة من فراغ، لا بد أن يكون هناك توقٌ إلى الانقياد والطاعة وشعور عميق بعدم الرضا عن الأوضاع الراهنة قبل أن تظهر الحركة وتظهر قيادتها. وفي غياب الظروف المواتية فإن القائد، مهما كان موهوبًا ومهما كانت قضيته المقدّسة جذابة، فسيبقى بلا أتباع. كانت الحرب العالمية الأولى، وما تلاها، المسؤولة عن تهيئة التربة التي سمحت بظهور الحركات البلشفية والفاشية والنازية. لو أن تلك الحرب لم تقم، أو لو تأخرت عقدًا أو عقدين، لكان مصير لينين وموسوليني وهتلر لا يختلف عن مصير الكثير من المتآمرين

(1) لعل هذا بدأ يحدث مؤخرًا في العالم الرأسمالي (المترجم).

facebook.com/ketabme

في القرن التاسع عشر، وهم الذين فشلوا في تحويل الاضطرابات والأزمات التي واجهوها إلى حركات جماهيرية شاملة. كان هناك شيء غائب عن الصورة: لم تكن الجماهير الأوروبية، حتى أحداث الحرب العالمية الأولى المفصلية، قد فقدت الثقة تمامًا في الحاضر، ولم تكن مستعدة للتضحية به في سبيل حياة جديدة وعالم جديد. حتى القادة الوطنيون الذين عملوا بفاعلية تفوق فاعلية الثوار لم يتمكنوا من جعل القومية قضية مقدّسة، كما حدث فيما بعد. ظهرت القومية المتطرفة والثورية المتطرفة في الوقت نفسه.

وفي بريطانيا، بدورها، كان على القائد أن ينتظر حتى تنضج الظروف المواتية؛ لكي يستطيع القيام بدوره. خلال الثلاثينيات كان القائد المحتمل، تشرشل، معروفًا ومشهورًا يصل صوته إلى الناس، يومًا بعد يوم. إلا أن الرغبة في اتباع القائد لم تكن موجودة. كان لا بد من الانتظار إلى أن جاءت الأزمة وهزت البلاد بعنف وأقنعت الناس بضرورة اتباع القائد.

هناك مدة من الانتظار، والانتظار الطويل أحيانًا، في الكواليس قبل ظهور القادة الكبار على المسرح في لحظة تبدو لنا اللحظة المفصلية في تاريخ الحركة. إن الأحداث والمصادفات وسلوك الآخرين هي العوامل التي تهيئ المسرح قبل أن يظهر القادة ويمارسوا أدوارهم. (إن البطل الرئيس في نهاية يوم حافل يبدو كما لو كان المصادفة الأخيرة في يوم مليء بالمصادفات)[1].

90

عندما يصبح المسرح جاهزًا فإن ظهور القائد الموهوب يصبح أمرًا محتومًا. من دون هذا القائد لا يمكن أن تولد الحركة الجماهيرية. إن أكثر الظروف نضجًا لا تنتج، بالضرورة، حركة جماهيرية، كما أن الانتخابات والتشريعات والمكاتب الإدارية لا تستطيع أن تفرّخ الحركة. كان لينين المسؤول عن تحويل مجرى الأحداث

(1) John Morley, Notes on Politics and History (New York: Macmillan Company, 1914), pp. 69- 70.

facebook.com/ketabme

إلى قناة الثورة البلشفية. لو أنه مات في سويسرا، حيث كان يعيش، أو في طريقه إلى روسيا سنة 1917م، لكان في حكم المؤكّد أن ينضم قادة البلاشفة إلى حكومة ائتلافية، ولكانت النتيجة جمهورية ليبرالية تتحكم فيها الطبقة البورجوازية. وفي حالة هتلر وموسوليني، تشير الحقائق، على نحو قاطع، أنه من دونهما لم يكن من الممكن قيام النازية والفاشية.

وتثبت التطورات في بريطانيا في الوقت الحاضر (1951م) ضرورة وجود قائد موهوب لبلورة حركة جماهيرية. كان بوسع قائد كهذا، تشرشل بنزعات اشتراكية، على رأس حكومة العمال أن ينفذ برامج التأميم الجذرية في جو حركة جماهيرية مندفعة، بدلاً من تنفيذها على نحو مملّ بعيد عن الإثارة. كان بوسعه تصوير العامل البريطاني في دور المنتج البطولي الرائد في عملية التصنيع، وكان بوسعه أن يشرح للبريطانيين أن دورهم الرئيس هو أن يظهروا للعالم كلّه، ولا أمريكا وروسيا بالذات، ما يمكن لأمة متحضرة أن تحققه عندما تتحرّر مما يواكب الرأسمالية من ارتباك وهدر وجشع، وما يواكب الشيوعية من بيروقراطية وجهل وتخلّف. كان بوسعه أن يبث في دماء الشعب البريطاني الاعتداد والأمل اللذين كانا عونه الأكبر في أحلك ساعات الحرب العالمية الثانية.

يتطلب الأمر إرادة حديدية ورؤية لدى قائد استثنائي يمكن تحويل الآراء والاتجاهات السائدة إلى مجرى الحركة الجماهيرية. يجسّد هذا القائد صدق المبدأ وتحدّي القوة وعظمتها. ويعبر عن النقمة المخزونة في صدور المحبطين ويجد لها التبريرات. ويشعل رؤى غد مشرق رائع؛ ليبرّر التضحيات في الحاضر العابر. ويبني مسارح الخيال التي لا بُدّ منها لضمان التضحية بالذات والعمل الجماعي. ويبني صورة جذابة للمجموع تساعد المحبطين على الانفلات من وجود فردي تافه بلا معنى.

ما هي المواهب اللازمة للقيام بهذا الدور القيادي؟ إن الذكاء الخارق ونبل الشخصية والابتكار لا تبدو أمورًا ضرورية، بل قد لا تكون أمورًا مرغوبًا فيها.

facebook.com/ketabme

الصفات التي تبدو ضرورية هي الشجاعة والاستمتاع بالتحدّي؛ الإرادة الحديدية؛ الإيمان الذي لا يقبل نقاشًا أنه وحده يمتلك الحقيقة المطلقة الإيمان بمصيره وسعد طالعه؛ القدرة على الكراهية المتّقدة؛ احتقار الحاضر، القدرة على تحليل الطبيعة البشرية؛ الولع بالرموز (المشاهد الرائعة المثيرة)؛ الثقة المطلقة التي تصل حد الاستخفاف بالعدالة والمنطق؛ معرفة شوق الجموع إلى الالتحام بكيان جماعي والذوبان فيه؛ القدرة على كسب ولاء مجموعة من المساعدين الأكفاء والاحتفاظ به - وهذه الخصلة الأخيرة واحدة من أهم الصفات وأندرها. إن قوة القائد الأسطورية لا تتجلّى في تحكمه في الجماهير الغفيرة بقدر ما تظهر في قدرته على السيطرة التامة على مجموعة صغيرة من الرجال الأكفاء. يجب أن يكون هؤلاء الرجال شجعانًا، معتدين بأنفسهم، أذكياء قادرين على تحقيق منجزات كبرى، ومع ذلك كله يجب أن يخضعوا كليّة لإرادة القائد، وأن يستمدوا الإلهام منه وحده، وأن يعدّوا هذا الخضوع غاية المجد.

وباستعراض الصفات السابقة نجد أنها ليست على مستوى واحد من الأهمّية. أهم الصفات المطلوبة في قائد الحركة الجماهيرية الشجاعة والإيمان المطلق بقضيته المقدّسة، وإدراكه أهمية قيام كيان جماعي متلاحم، وأهم من ذلك القدرة على خلق ولاء أعمى عند مجموعة من المساعدين الفاعلين. لقد فشل تروتسكي[1] نتيجة عجزه عن إيجاد مساعدين أكفاء يدينون له بالولاء المطلق. لم يكن قادرًا على اجتذاب الحب ولا قادرًا على الاحتفاظ به[2]. كما أنه كان يعاني من مشكلة أخرى هي احترامه الكامل للفرد، والفرد المبدع بالذات. لم يكن يرى أن الوجود الفردي المستقل يرقى إلى الخطيئة، ولم يكن يعي أهمية التحام الفرد بالمجموع

(1) كان تروتسكي (1879 - 1940م) من أبرز قادة الثورة البلشفية وكان رفيقًا قريبًا من لينين وقد نفاه ستالين، ثم قام باغتياله في المكسيك (المترجم).

(2) Angelica Balabanoff, My Life As Rebel, (New York: Harber, Brothers, 1988), p. 152.

facebook.com/ketabme

لنجاح الحركة الجماهيرية. وفي الصين تمكن سن يات سن [1] (من أن يجذب عددًا من الأعوان القادرين، مستثيرًا خيالهم برؤاه عن الصين الجديدة وموجدًا لديهم روح الولاء والتضحية بالذات)[2]. أمّا تشانج كي شيك فيبدو، بخلافه، مفتقرًا إلى كافة الصفات الضرورية في قائد الحركة الجماهيرية. من الناحية الأخرى، يبدو ديجول[3] قائدًا يتوقع منه الكثير. أما قادة الأحزاب الشيوعية خارج روسيا فهم عاجزون، مع خضوعهم المطلق لستالين والمكتب السياسي، من الوصول إلى مستوى القادة، ويقتصر دورهم على كونهم من المساعدين الأكفاء. ولكي تنجح الشيوعية حاليًا في أي دولة غربية فلا بدّ من ظهور أحد نقيضين: إمّا أن تبرز شخصية ستالين وتتجسّد على نحو يبلور الحركة، وإما أن يقطع الحزب الشيوعي المحلّي صلاته بروسيا، كما فعل تيتو[4]، ويتحدّى الرأسمالية والشيوعية معًا. لو كان لينين رئيس حزب شيوعي يعيش بعيدًا عن روسيا لكان من المشكوك فيه أن يمارس تأثيره الحاسم على التطورات في روسيا.

91

إن الآراء الفجّة التي يصبر عنها عدد من قادة الحركات الجماهيرية والعصرية قد تدفع المرء إلى الاعتقاد بأن قدرًا من السذاجة ينفع القائد، إلا أن

(1) يعدّ سن يات سن (1866 - 1925) مؤسس الصين الحديثة، وقد أنشأ الحزب الوطني، وقضى على النظام الأمبراطوري، وأسس جمهورية سنة 1911م، وظل حتى وفاته الحاكم الفعلي للصين (المترجم).

(3) Frank wilson Price «Sun Yat- Sen» Encyclopaedia of Social Sciences.

(2) قاد الجنرال شارل ديجول (1890 - 1970م) حركة فرنسا الحرة على إثر استسلام فرنسا في الحرب العالمية الثانية وترأس الحكومة الفرنسية المؤقتة (1944 - 1964م) وأسس الجمهورية الخامسة سنة 1959م وتولى رئاستها حتى استقال سنة 1969 (المترجم).

(3) قاد المارشال جوزف بروزتيتو (1892 - 1980م) حركة المقاومة اليوغسلافية ضد الاحتلال الألماني في الحرب العالمية الثانية وأسس الحزب الشيوعي وقاده، ثم نأى بنفسه عن موسكو واختط سياسة حيادية بين المعسكرين (المترجم).

(4) كانت آمي ميكفرسون (1890 - 1944م) مبشرة أمريكية مثيرة للجدل، تمكنت من تحقيق ثروة طائلة وصيت ذائع واجتذبت جموعًا غفيرة من الأتباع المخلصين (المترجم).

facebook.com/ketabme

هذه الملاحظة غير صحيحة. لم تكن سذاجة هتلر أو آمي ميكفرسون [1] هي التي مكنتهما من اجتذاب الأتباع؛ كان السبب الثقة المطلقة في النفس، هذه الثقة التي تمكن القائد من عرض أفكاره، مهما كانت مشوشة وسطحية، بكل جرأة واعتداد، ويمكن للقائد الحكيم الذي يتبع مسار حكمته إلى النهاية أن يحقق قدرًا مماثلًا من النجاح، ومن الأفكار، في حد ذاتها، لا تتعب سوى دور صغير في قيادة الحركة الجماهيرية، ما يهم هو المبادرات الجريئة والقدرة على تجاهل آراء الآخرين وعلى تحدّي العالم بأسره.

إن شيئًا من الخداع أمر ضروري في تكوين القيادة الجماهيرية الفاعلة. لا يمكن أن تقوم حركة جماهيرية من غير تشويه متعمد، يغير الحقائق ويجعلها تجتذب الأتباع وتجعلهم متحمسين ومخلصين حتّى الموت. يجب أن يكون القائد واقعيًّا وعمليًّا، ولكن يجب أن يتحدث بلغة المثالي صاحب الرؤية المثالية.

إن الابتكار ليس شرطًا ضروريًا لنجاح القائد. بل إننا نجد أن من الصفات القيادية القدرة على تقليد الأصدقاء والأعداء، على حد سواء، في الحاضر أو الماضي.

إن الجرأة المطلوبة للقيادة تتضح في الجرأة على التقليد بقدر ما تتضح في الجرأة على تحدّي العالم. إننا نلحظ في شخصية البطل قدرة غير محدودة على التقليد، وإصرارًا على اتباع نموذج سابق. وهذا يدفعنا إلى أن نلاحظ أن الرغبة المفرطة في التقليد تدلّ على أن البطل لم يستطع تحقيق ذاته، وأن في شخصيته الكثير من الجوانب السطحية المكبوتة. وعلى ذلك، فهو قادر على تحقيق ما يحققه بطمس نقاط الضعف كلها والتركيز على نقاط القوَّة.

(1) كانت آمي ميكفرسون (1890 - 1944م) مبشرة أمريكية مثيرة للجدل، تمكنت من تحقيق ثروة طائلة وصيت ذائع واجتذبت جموعًا غفيرة من الأتباع المخلصين (المترجم).

facebook.com/ketabme

92

إن التخلي التام عن الذات المستقلة شرط أساسي لتحقيق الوحدة والتضحية بالنفس، ولعله لا توجد طريقة تسهّل هذا التخلي مثل غرس الطاعة العمياء في نفوس الأتباع. عندما يجبر ستالين العلماء والكتاب والفنانين على الزحف على بطونهم والتنكر لذكائهم وإبداعهم وحسّهم الأخلاقي، فإنه لا يفعل ذلك إرضاءً لنزعة سادية، بل ليبرز الأهمية القصوى للطاعة العمياء ويكرّسها. والحركات الجماهيرية كلها تعدّ الطاعة أهم السمات وتجعلها معادلة للإيمان: (إن اتحاد العقول لا يمكن أن يتحقق بمجرد الإيمان بعقيدة واحدة، بل لا بد من أن يكون الاستسلام للكنيسة والبابا في روما مساويًا للاستسلام لله)[1] ليست الأديان وحدها هي التي تتطلب الطاعة، بل إن الطاعة هي المبدأ الأول في كل حزب ثوري، وكل قومية متحمسة. (أطع - ولا تسأل عن السبب) - هو المبدأ الذي تعدّه الحركات الجماهيرية المثل الأعلى للسلوك.

إنّ ما يواكب الحركات الجماهيرية من فوضى وسفك دماء ودمار قد يدفع المرء إلى الاعتقاد أن جميع أتباع الحركة، بطبيعتهم، من الأشرار المجرمين. غير أن القسوة الجماعية، في حقيقة الأمر، ليست بالضرورة دليلًا على قسوة فردية. إن الغضب الفردي يحول بين صاحبه وبين العمل الجماعي ويدفعه إلى تصرف فردي. مثل هذا الغضب ينتج المكتشف والمغامر ورجل العصابة، أما عضو الجماعة الجماهيرية فهو، أساسًا، فرد مطيع خانع، حتى عندما تكون أفعاله عنيفة فوضوية. إن المتظاهر الشيوعي العنيف هو عضو مطيع مستسلم لإرادة الحزب. والعنف الياباني والنازي تم على يد أفراد ربّما كانوا الأكثر انضباطًا في تاريخ العالم. وفي

---

(1) Leo X 111 , Sapientiae christtianae.

ويرى لوثر في عدم الطاعة «خطيئة أكبر من القتل، والتهتك، والسرقة، والخيانة».

Quoted by Jerome Frank, Fate and Freedom (New York: Simon and Sch 4 Ster, Inc. 1945, p. 281.

facebook.com/ketabme

الولايات المتحدة يجد ربّ العمل أن الرجل الجنوبي المتطرّف الذي ينزع إلى العنف يصبح في المصنع عاملًا مطيعًا وديعًا. وهذا الجنوبي نفسه عندما ينضم إلى الجيش يكون مستعدًا تمامًا للانضباط.

93

يبدو أن الأشخاص الذين يعيشون حياة فارغة تفتقر إلى الثقة بالنفس يبدون استعدادًا للطاعة يفوق استعداد الأشخاص الذين يمتلكون الثقة بالنفس. إن التحرّر من المسؤولية، في نظر المحبطين، أكثر جاذبية من التحرّر من القيود. والمحبطون على استعداد للتخلّي عن استقلالهم مقابل التخلص من أعباء الاختيار والقرار وتحمل نتائج الفشل المحتوم. يُسلم المحبطون بكل سهولة زمام حياتهم لرؤساء يقومون نيابة عنهم بالتخطيط وإصدار الأوامر وتحمل المسؤولية كاملة. وفوق ذلك، يبدو الخضوع التام لإرادة القائد الأعلى وسيلة لتحقيق المساواة التامة.

في الأزمات، خلال الفيضانات والزلازل والأوبئة والمجاعات والحروب، تنعدم جدوى الجهود الفردية ويصبح الناس، بجميع مستوياتهم، مستعدين لإطاعة القائد والسير خلفه. في هذه الظروف تصبح الطاعة القاعدة الصلبة الوحيدة في وجود من الفوضى.

94

إن المحبطين أكثر الناس قدرة مع أن يكونوا أتباعًا مخلصين. والملحوظ في الجهود الجماعية أن أقل الناس استقلالًا هو آخر من يزعجه احتمال الفشل. وسبب ذلك أن المحبطين يشاركون في عمل جماعي، لا ليضمنوا نجاح مشروع يهمهم، بل ليتجنبوا التعرض للوم إذا فشل المشروع. عندما يفشل مشروع جماعي يتفادى المحبطون الشيء الذي يخافونه أكثر من أيّ شيء آخر، وهو ما يكشف عيوبهم الفردية. يبقى إيمانهم بعد الفشل كما كان قبله، وتبقى لديهم الرغبة في المحاولة من جديد.

facebook.com/ketabme

يتبع المحبطون القائد، لا لأنه سيقودهم إلى الأرض الموعودة، بل لأنه يقودهم بعيدًا عن أنفسهم التي يكرهونها. الاستسلام للقائد ليس وسيلة، ولكنه غاية في حد ذاته، أمّا الاتجاه الذي يسير فيه القائد فأمرٌ لا يهم كثيرًا.

95

هناك، على ما يبدو، فارق أساسي بين قائد حركة جماهيرية وبين القائد في مجتمع حرّ. في المجتمعات التي تتمتع، على نحو أو آخر، بالحرية، لا يحتفظ القائد بولاء الناس، إلا عندما يكون لديه إيمان مطلق بحكمتهم وطيبتهم.

إن قائدًا من الدرجة الثانية يملك هذا الإيمان سوف يكون أنجح من قائد من الدرجة الأولى يفتقر إليه. وما يعنيه هذا هو أن القائد في المجتمع الحرّ يتبع الناس، حتى وهو يقودهم. عليه كما قال البعض، أن يعرف اتجاه الناس؛ لكي يستطيع أن يقودهم في هذا الاتجاه. أما عندما يحتقر القائد في المجتمع الحرّ الناس، فإنه يبدأ التصرف كما لو كان كل الناس حمقى، وسرعان ما ينتهي بالهزيمة. إلا أن الأمور تختلف عندما يكون بوسع القائد استخدام القمع العنيف: يستطيع قائد الحركة الجماهيرية فرض الطاعة العمياء فرضًا، والتصرف على أساس أن كل الناس جبناء، وهذا افتراض صحيح في هذه الحالة.

من أسباب فشل القادة الشيوعيين في التنظيمات النقابية الغربية أنهم يتبعون تعليمات الحزب الشيوعي حرفيًا، ويتصرفون وكأنهم قادة حركة جماهيرية، بينما هم في الواقع، أعضاء في منظمات تضمّ رجالًا أحرارًا.

العمل

96

إن الانغماس في العمل عامل توحيد. والتميز الفردي الذي يوجد بين ممارسي العمل الفعلي، عامل البناء، والجندي، والرياضي، وحتى العالِم، أقل بكثير من

facebook.com/ketabme

التميز الموجود لدى الأشـخاص الذين ينبع إبداعهم من تواصلهم مع أنفسـهم. لا يصبح المرء جاهـزًا للعمل إلا عندمـا يتخلص من فرديته وتميّـزه الذاتي. وهكذا نرى أن النشطين المنهمكين في العمل ينزعون إلى اتباع أنماط موحّدة من السلوك. من المشـكوك فيه، لولا الجهود الخارقة التـي يتطلبها غزو قارة بأكملها، أن يتمكن الأمريكيون، وهم أمة من المهاجرين، من تحقيق التجانس الاسـتثنائي الذي حقّقوه في مـدة زمنية قصـيرة. كل الذيـن قدموا إلى أمريـكا ليعملوا، أي لجينـوا أرباحًا ماديـة، تأقلمـوا مـع الوطن الجديد بسـهولة لم تكـن متاحة لأولئـك الذين قدموا لتحقيق أهداف مثالية سـامية. شـعر أفراد الفئة الأولى بتعاطف فوري مع الملايين الراكضـين وراء الهدف نفسه، وأحسّـوا أنهم أعضاء في أسرة واحدة. أدرك هؤلاء في وقت مبكر أنه لكي ينجحوا، فلا بدّ لهم من أن ينسجموا مع محيطهم، أن يفعلوا ما يفعله الآخـرون، أن يتعلموا اللغة ويعرفوا قواعد اللعبة. وفوق هذا، فإن الاندفاع الجنوني الذي وجدوا أنفسهم في غماره حال بينهم وبين إظهار شخصياتهم الفردية المتميزة، حتى عندما كانوا راغبين في إظهارها، ولم يدع لديهم القدرة على مقاومة المحيط الجديد. ومـن الناحية الأخرى، فإن أولئك الذين قدموا لتحقيق مثل عليا، تتعلق بالحرية أو العدالة أو المسـاواة، وجدوا البلاد بعيدة عن ممارسـة القيم التي يؤمنون بها، وقادهم هذا إلى شعور بالتفوّق أبقاهم في معزل عن بيئتهم الجديدة.

97

يصـعب أن يعمل رجال الفكر يدًا بيد، أما رجال العمل فتوجد بينهم رفقة كرفقة السـلاح. إن العمل فريقًا واحدًا نادر بين المفكرين، بينما هو أمر ضـروري عند رجال العمل. إن الصيحة لنذهب لنبن مدينة أو برجًا[1] هي، دومًا، نداء للعمل الجماعي.

(1) Genesis, 11. 4.

facebook.com/ketabme

قد يكون قوميسار الصناعة الشيوعي أقرب إلى الصناعي الرأسمالي منه إلى المنظر الشيوعي. والرابطة الشيوعية الدولية الحقيقية هي رابطة بين عمال، لا بين منظرين.

98

كل الحركات الجماهيرية تعد العمل وسيلة للتوحيد. إن المعارك التي تثيرها الحركة الجماهيرية وتبحث عنها لا تقضي على أعداء الحركة فحسب، بل تعمل على تجريد أتباعها من تميزهم الذاتي، وتجعلهم أكثر قابلية للذوبان في المجموع. والمشاريع الكبرى، مثل تسوية الأراضي، وبناء المدن، والاكتشافات الجغرافية والصناعات الضخمة تقوم، إلى حدّ ما، بتحقيق هدف مماثل. حتى المشية العسكرية، فإمكانها أن تكون عنصر توحيد، وقد استغلت النازية إلى أبعد حد هذه الجزئية. في البداية كان روشننج يرى أن هذه الطوابير العسكرية التي لا نهاية لها مضيعة للوقت والجهد إلا أنه أدرك، فيما بعد، تأثيرها الخفيّ: (المشي في الطابور العسكري يتطلب التركيز التام، ويقتل التفكير، ويقضي على الفردية)[1].

إن دعوة الحركة الجماهيرية إلى العمل تلقى استجابة متحمسة من المحبطين الذين يرون في العمل شفاءً لجميع أمراضهم. ينسيهم العمل أنفسهم ويمنحهم شعورًا بالأهمية. إن الإحباط ينبع أساسًا من العجز عن العمل، وأشدّ المحبطين توترًا هم أولئك الذين تؤهلهم مواهبهم وأمزجتهم لحياة من العمل بينما تجبرهم ظروفهم على الفراغ والصدأ. هذا وحده ما يفسّر لنا كيف أن أشخاصًا مثل لينين وتروتسكي وموسوليني وهتلر قضوا معظم سنواتهم يثرثرون في المقاهي والاجتماعات، ثم برزوا، بغتة، كأكفأ قادة جيلهم وأشجعهم.

(1) Hermann Rauschning, The Revolution of Nihilism (Chicago: Alliance Book Corporation, 1939), p. 48.

facebook.com/ketabme

99

ينظم الإيمان نفسية الفرد ويعدها للعمل. أن يشعر المرء أنه يمتلك الحقيقة الوحيدة المطلقة ولا يشك، قطّ، في صحتها؛ أن يشعر أنه محميٌّ بقوة يمكن أن تكون الله، أو القدر، أو حتمية التاريخ؛ إنه يعتقد أن أعداءه تجسيد للشر ويجب سحقهم؛ أن يبتهج بإنكار الذات والانقطاع للواجب، هذه مؤهلات رائعة تحفّز على العمل القاسي الجاد في أي ميدان، لقد ثبت أن الذين يرددون المقطوعات الدينية، خلال عملهم، سواء كانوا جنودًا أو مكتشفين أو رجال أعمال، أو حتى رياضيين، رجال صعبون شديدو المراس. ويمكن للحماسة القومية أو الثورية أن تحقق الهدف نفسه: أن تحوّل الرجال الكسالي التافهين إلى مقاتلين وعاملين نشطين. من هنا يمكن القول: إنه لا بد من ظهور حركة جماهيرية، من نوع ما؛ ليمكن تطوير المجتمعات الجامدة المتخلفة.

إلا أن استعداد المؤمن الصادق لانتهاج حياة من العمل يمكن أن يفيد الحركة الجماهيرية، كما يمكن أن يكون خطرًا عليها. قد تعجل الحركة بنهايتها عندما تفتح ميادين واسعة للعمل المحموم. قد يصبح العمل الناجح هدفًا في حد ذاته ويحوّل كل طاقات الفرد؛ لتصبّ في مجراه. عندها يتحوّل الإيمان والقضية المقدّسة من كونهما الهدف الأسمى إلى مجرد وقود للعمل. والمؤمن الصادق الذي ينجح في كل مساعيه ينجح في استعادة الثقة، ويستطيع أن يتعايش مع نفسه ومع الحاضر.

وعندما يصل الفرد إلى هذه المرحلة، ويكف عن اعتبار نسيان النفس وذوبانها في المجموع وتحريرها من الإرادة والاختيار والمسؤولية السبيل الوحيد للخلاص يصبح معتقدًا أن خلاصه في العمل، وفي إثبات قيمته، وفي تأكيد هويته الفردية. حتى عندما يفشل العمل في تحقيق ذات المحبط، فإنه ينجح في تبرير وجودها. وعندما يبقى المحبط، على عقيدته فإنه يفعل ذلك لتغذية ثقته ومنح نجاحه الشرعية. وهكذا نرى أن طعم النجاح الفردي المستمر في العمل يؤثر سلبًا على روح المجموع. والشعب الذي دأب على الانهماك في العمل سوف يكون، على الأرجح، أقل

facebook.com/ketabme

تطرفًا وأقلّ ثورية من غيره. إن ما نراه من ترابط اجتماعي ومن تسامح سياسي وديني لدى الشعوب الأنجلوسكسونية هو -إلى حدّ ما- نتيجة توفر الرغبة والمهارة لدى أفراد الشعب، بالإضافة إلى وجود فرص عمل وفيرة. كان العمل هو البديل عن الحركات الجماهيرية.

وفي المقابل، فإن اختفاء فرص العمل نهائيًا، سواء بسبب ركود حاد أو هزيمة عسكرية، سينتج إحباطًا عنيفًا تكون نتيجته تهيئة الأرض، بحيث تجد الحركة الجماهيرية المناخ الملائم لرعايتها. كان الوضع المتفجر في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى نتيجة الجمود الذي فرض قسرًا على شعب، يعرف أنه مهيًّأ تمامًا للعمل. ثم جاء هتلر ومنح الألمان فرصًا للعمل الدائب المثير، ومنحهم حركة جماهيرية. لا غرو، بعد ذلك، أن اعتبروه المنقذ.

الشّك

100

رأينا، فيما سبق، كيف تتحوّل إفرازات العقل المحبط، المكوّنة أساسًا من الخوف وسوء النية، إلى حافز يجعل من المحبطين مجموعًا واحدًا متماسكًا. إن الشّك واحد من هذه الإفرازات، ويمكن له، بدوره، أن يكون عامل توحيد.

إن إحساس المحبط بعيوبه ونواقصه يجعله يرى سوء النية واللؤم عند جميع البشر. واحتقار النفس، حتى عندما يكون خفيًّا، يجعلنا أكثر قدرة على اكتشاف عيوب الآخرين: نحاول جهدنا أن نكتشف لدى الآخرين العيوب التي نعاني منها. وهكذا يصبح الجوّ عندما يجتمع المحبطون في حركة جماهيرية مليئًا بالشك: هناك تلصّصٌ وتجسس ومراقبة دائمة وشعور حاد أن المرء تحت المراقبة. والمدهش، هنا، هو أن هذا الشك المَرَضي بين أفراد الجماعة لا يقود إلى الخلاف، بل إلى العمل الجماعي المنضبط. ينزع أتباع الحركة الذين يشعرون أنهم تحت مراقبة دائمة إلى إزالة الشكوك عنهم بالالتزام الكامل بتوجيهات الحركة والمسلك الذي تتطلّبه.

facebook.com/ketabme

إن الانضـباط المفرط قد يكون نتيجة الشـكوك المتبادلة، وقـد يكون نتيجة الإيمان المتحمّس.

تعتمد الحركات الجماهيرية اعتمادًا كبيرًا على الشّـك بوصفه آلية من آليات السـيطرة. كانت الحركة النازية تجعل أتباعها يشعرون أنهم عرضة للمراقبة طيلة الوقت، الأمر الذي قادهم إلى حالة دائمة من الخوف والشعور بالذنب.[1] يبدو أن القاعـدة في الحـركات الجماهيرية هي الحذر من جيران المرء وأصـدقائه، وحتى أقاربه. بين الحين والحين، يتم اتهام أشـخاص أبرياء عمدًا، ويُضحَّى بهم؛ لينطلق الشـك حيًّا في الصـدور. تعمد الحركة لإبقاء حدة الشّـك إلى ربط أي معارضة في صفوفها بالعدوّ الذي يهددها من الخارج.

وهذا العدوّ/ الشـيطان الذي لا يمكن لأي حركة الاسـتغناء عنه، حاضر دائمًا وأبدًا. إنه يتآمر من داخل صفوف الحركة، كما يتآمر من خارجها. صوته هو الذي يتكلّـم من خلال المعارضـين. والمنحرفـون عن الخط هم عمـلاؤه. وعندما يحدث أي خطأ داخل الحركة، فهو السـبب. إن الشـك واجب مقدّس مـن واجبات المؤمن الصادق، الذي يجب عليه أن يظل على حذر، طيلة الوقت من المخربين والجواسيس والخونة.

101

إن الوحدة الجماعية ليست محصّلة الحب الأخويّ الذي يكنه الأتباع، بعضهم لبعض، إن ولاء المؤمن الصـادق هو للمجموع، الكنيسـة، أو الحزب، أو الوطن، وليس لزملائه أتباع الحركة. إن الولاء الحقيقي في العلاقة بين الأفراد لا يمكن أن يظهر إلاّ في مجتمـع يتمتـع بقدر من الحرية واسـتقلالية الأفراد. لا بـدّ أن يكون النـازي المتطـرّف أو الشـيوعي المتطـرّف على اسـتعداد للتضـحية بالأقارب والأصـدقاء؛

(1) Ibid, p. 40.

facebook.com/ketabme

لكي يثبت ولاءه لقضيته المقدّسة. تعدّ الحركة الجماهيرية النشطة روابط الدم والصداقة الشخصية إضعافًا لترابط المجموع. ومن هنا، فإن الشك المتبادل بين الأتباع ليس أمرًا متمشيًا مع قوة المجموع فحسب، بل يوشك أن يكون شرطًا من شروط هذه القوّة. يراقب الرجال الذين يعتنقون مبادئ صلبة، وينطوون على مشاعر قوية، بعضهم بحذر، ويستمدون قوتهم من هذا الحذر؛ إن الشك المتبادل يخلق خوفًا متبادلًا، ويربط الأشخاص بسلسلة من حديد تمنع الفرار وتمنحهم القوة في لحظات الخوف[1].

جزء من التضحية بالنفس التي تتطلّبها الحركة الجماهيرية هو التضحية بالنوازع الأخلاقة التي تقيد طبيعتنا البشرية. إن حماستنا تستطيع صنع المستحيل، عندما تدعمها الكراهية والقسوة والطموح والجشع واحتقار الآخرين والتمرّد[2].

نتائج العمل الجماعي

102

إن التوحيد الكامل، سواء جاء نتيجة الاستسلام العفوي، أو الإقناع، أو القمع، أو الضرورة، أو العادة المتأصّلة، أو مزيج من هذه العوامل، ينزع إلى تقوية الرغبات والاتجاهات التي تنحاز إلى الجماعة على حساب الفرد. سبق أن رأينا كيف تقوّي الوحدة النزعة إلى الكراهية، كما تقوّي القدرة على التقليد. إن الشخص الذي يتم صهره في المجموع أكثر قابلية للتصديق والطاعة من الشخص الذي لا يزال يتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي. صحيح أن قيادة الحركة تحرص على إبقاء الكراهية مشتعلة، وتشجع التقليد، والقابلية للتصديق وتنشر الطاعة، إلا أنه من الصحيح، أيضًا، أن التوحيد، في حد ذاته، حتى عندما لا تتدخل ألاعيب القيادة، يقوّي ردود الفعل التي تعمل في اتجاه الوحدة.

(1) Ernest Renan, Antichrist (Boston: Roberts Brothers, 1897), p. 381.

(2) Montaigne, Essays, Modern Library Edition (New York: Random House, 1946) p.3.

facebook.com/ketabme

قد يبدو هذا، لأول وهلة، محيرًا. سبق أن رأينا أن معظم عوامل التوحيد تنبع من الكراهية التي يحس بها المحبط تجاه نفسه التي لا يحبّها، ووجوده الذي لا يطيقه. إلا أن المؤمن الصادق الذي ينصهر كليّة في مجموع كليّ متماسك لا يصدق عليه وصف المحبط: لقد وجد هويّة جديدة وحياة جديدة. أصبح يعدّ نفسه واحدًا من الصفوة المختارين، الذين تحميه قوى لا تقهر، حتى يحقق مصيره ويرث الأرض. وهذه العقلية الجديدة على النقيض تمامًا من عقلية الشخص المحبط. إلا أن المؤمن الصادق برغم ذلك، يُبدي، على نحن متزايد، ردود الفعل التي تدل على صراع داخلي ونقص في الثقة.

ماذا يحدث للفرد الذي يتم صهره في المجموع؟

إن التوحيد عملية تعني اختزال شخصية الفرد لا تنميتها. لكي يتم دمج الفرد في المجموع لا بد من تحريره من تميزه الذاتي، وحرمانه من حرية الاختيار والأحكام المستقلة، ولا بدّ من طمس الكثير من نزعاته واتجاهاته الطبيعية أو كسر شوكتها. كل هذه عوامل تنخر في الشخصية المستقلة. أما العناصر الجديدة التي يضيفها الصهر، العقيدة، الأمل، الكرامة، الثقة، فهي عناصر سلبية في جوهرها. ما يشعر به المؤمن الصادق من رضا وبهجة لا ينبع من مخزون من القوة والحكمة، بل من شعوره بالتحرّر من الأعباء التي ترهق وجوده المستقل. (نحن الألمان سعداء جدًا. نحن أحرار من الحرية)[1] يجيء إحساسه بالسعادة من كون نفسه لم تعد النفس القديمة والهجوم على شخصيته لا يؤثر فيه. وما لديه من قوة الاحتمال عندما يواجه عدوًّا لدودًا أو ظروفًا بالغة الصعوبة تفوق قوى الاحتمال عند الشخص المستقل. إلا أن هذه القوة تعتمد على الحبل السرّي الذي يربطه بالمجموع الكليّ: ما دام يشعر في قرارة نفسه أنه جزءٌ من هذا المجموع، وليس من أي شيء آخر، فإنه

(1) من رسالة كتبها نازي شاب قبيل الحرب العالمية الثانية: انظر:

I. A. R. wylie, «the Quest of our Lives Reader's Digest, May, 1948, p. 2.

facebook.com/ketabme

يظل خالدًا وصامدًا. وهكذا تتمحور كل طاقاته ومشاعره حول هذا الحبل السري. يصبح تطلعه إلى أقصى حد ممكن من الوحدة أقوى من الحنين الغامض، الذي يعمل في نفسية المحبط، إلى الإفلات من ذاته الفاشلة. لا يزال أمام المحبط خيار، فهو يستطيع أن يجد حياة جديدة، لا بأن يصبح جزءًا من كل فحسب، بل بتغيير بيئته والانغماس كلية في جهود تستنفد طاقاته، أما الشخص الذي تم صهره في المجموع فلا يملك هذا الخيار. لا بد له أن يلتصق بشدة بالجماعة أو يسقط كورقة ذابلة من شجرة، وينتهي. من الصعب على القسيس الذي طرد من الكنيسة، أو الشيوعي الذي فصل من الحزب، أو الوطني المتهم بالخيانة، أن يجد راحة البال، وهو فرد مستقل. لا يمكنه الوقوف على رجليه، ولهذا فلا بُدّ له من تبني قضية جديدة والانضمام إلى مجموعة جديدة.

إن العضو الذي انصهر في الجماعة يظل، دائمًا وأبدًا، يعاني من شعور بعدم النضج وغياب الثقة في النفس.

103

من المثير أن نلاحظ كيف تؤكد الحركة الجماهيرية ما يحسّ به أتباعها من غياب الثقة في النفس. عندما تصنع الحركة العقيدة في منزلة تفوق منزلة المنطق، فإنها تشلّ حركة الذكاء الفردي. وبالإضافة إلى هذا، تعمل الحركة على جعل أتباعها معتمدين عليها ماليًّا عن طريق تركيز المال في يدها وإحداث نقص متعمد في ضروريات الحياة، فضلًا عن حشر الأتباع في مساكن جماعية مزدحمة وفرض العمل اليوم الشاق عليهم في المشاريع العامة. وما تفرضه الحركة من رقابة صادقة على الأدب والفن والموسيقى والعلم يمنع الأقلية المبدعة من القيام بأيّ نشاط إبداعيّ مستقل. والولاء الذي يفرض فرضًا، للكنيسة، أو الحزب، أو الوطن، أو القائد، يعمل، بدوره، على إبقاء الشعور بالنقص حيًّا لدى العضو. يصبح كل عمل من أعمال الولاء شبيهًا بمكبس كهربائي في النفس، يحتاج، باستمرار، إلى تيّار كهربائي من الخارج.

facebook.com/ketabme

وهكذا تتم صياغة الأشخاص المنخرطين في الحركة الجماهيرية على نحو يجعلهم، دومًا، معدومي الشخصية، معتمدين على الآخرين، حتّى عندما يحملون في داخلهم بذور شخصيات مستقلّة. برغم أنهم يصبحون بمنأى عن الإحباط القديم والظلامات القديمة، إلا أنهم يبدون كل سمات الأفراد الذين يتوقون إلى طمس أنفسهم، والتخلّص من وجود يرونه معيبًا بلا أمل في الخلاص.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

القسم الرابع

البداية والنهاية

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل الخامس عشر

رجال الكلمة

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

104

لا تصعد الحركات الجماهيرية، عادة، إلا بعد أن تتم تعرية النظام القائم. وهذه التعرية لا تجيء عفويًا نتيجة أخطاء النظام وسوء استغلال السلطة، بل عن طريق عمل متعمد يقوم به رجال الكلمة الذين يحملون ظلامات ضد النظام. عندما يغيب القادرون على صياغة الكلمات، أو عندما يوجدون ولا يحملون أي ظلامة، فإن النظام القائم، مهما كان فاسدًا وضعيف الإرادة، قد يستمر في الوجود، حتى ينهار ويسقط من تلقاء نفسه. ومن ناحية أخرى، فإن النظام القائم سيحرم نفسه من كثير من القدرة والحيوية إذا فشل في اجتذاب هذه الأقلية المبدعة.

إن نشوء حركة جماهيرية وبقاءها، كما سبق أن رأينا، أمر يعتمد على القوة. والحركة الجماهيرية في عنفوانها ظاهرة مخيفة تتركز قيادتها في أفراد متطرفين يستخدمون الكلمة لإضفاء طابع العفوية على الاستسلام الذي حصلوا عليه بالقوة، إلا أن هؤلاء المتطرفين لا يستطيعون أن يتحركوا ويأخذوا زمام الموقف، إلا بعد تعرية النظام القائم وتجريده من شرعيته لدى الجماهير. ولا يمكن لهذا العمل التمهيدي، الذي يستهدف تقويض المؤسسات القائمة وتعويد الجماهير على فكرة التغيير وإيجاد الجو الملائم لقبول العقيدة الجديدة، أن يتم إلا عن طريق رجال هم، أولًا وقبل كل شيء، رجال فكر وأدب، يعترف لهم الجميع بهذه الصفة. طالما ظلّ النظام القائم يؤدي واجباته على نحو منتظم، فستظل الجماهير متعايشة معه. قد تفكر الجماهير في الإصلاح، ولكنها لا تريد التغيير الشامل. يبدو المتطرّف في نظر هذه الجماهير خطرًا أو خائنًا أو غير واقعي أو مجنونًا، ولن تكون على استعداد للاستماع إليه، اعترف لينين بنفسه أن التربة عندما لا تكون مهيّأة

facebook.com/ketabme

للشـيوعية (فإن الشيوعيين سيجدون من الصعب عليهم التواصل مع الجماهير، أو حتى إقناعها بالاسـتماع إليهم)[1]. وفوق ذلك، فإن السـلطات، حتى عندما تكون ضـعيفة ومتسـامحة، تنزع إلى الردّ بعنف على تحركات المتطرف، وقد تسـتمد من نشاطاته حيّوية جديدة.

إلا أن الأمـر يختلـف بالنسـبة لرجـل الكلمة العـادي، غير المتطرف. تسـتمع الجماهـير إليه؛ لأنهـا تدرك أن كلماته، وإن حملت طابع الاسـتعجال، لا تسـتطيع تحقيق نتائج فورية. كما أن السـلطات تنزع إلى تجاهله نهائيًا أو اسـتخدام وسائل ناعمة لإسـكات صـوته. وهكذا، ودون أن يشـعر أحد، يمكن لرجل الكلمة أن يهدّد المؤسسات القائمة، وأن يدين المتربعين على مقاعد السلطة، وأن يُضعف الانتماءات والولاءات القائمة، وأن يهيئ التربة لحركة جماهيرية.

إن التفرقـة بين رجال الكلمة والمتطرفين ورجال العمل، التي سـترد فيما يلي، لا يجب أن تؤخذ على علاّتها. هناك رجال، مثل غاندي وتروتسـكي، بدؤوا حياتهم رجال كلمة لا تأثير لهم، إلا أنهم في وقت لاحق، أبدوا قدرة اسـتثنائية على القيادة والإدارة. إن متطرفًا مثل لينين كان سيد الكلمة الخطابية، بالإضافة إلى كونه رجلًا من رجال العمل. ما تستهدف التفرقة إيضاحه هو أن تهيئة التربة لحركة جماهيرية تُؤدّى على أفضل وجه على يد رجال موهبتهم الأساسية استخدام الكلمة المسموعة أو المقـروءة، وأن ولادة الحركـة الفعليـة تتطلـب مزاجًا ومواهـب لا تتوافر إلا عند المتطرف، وأن استقرار الحركة وشكلها النهائي هو أساسًا مهمة الرجال العمليين.

(1) G. E. G Catlin, The Story of the Political Philosophers, (New York: mc Graw- Hill Boot Company, 1939), p. 48.

facebook.com/ketabme

عندما تظهر على مسرح الأحداث أقلية تجيد صياغة الكلمة، لم تكن موجودة من قبل، فإن ظهورها يمكن أن يشكّل حركة ثورية محتملة. قامت القوى الغربية على نحو غير مباشر، وربّما غير مقصود، بتهيئة الجو لحركات جماهيرية في آسيا، لا بسبب ما أثارته من نقمة ولكن بخلق أقليات مثقفة عن طريق التعليم الذي كان، في معظمه، أهليًّا وخيريًّا. تلقى عدد كبير من القادة الثوريين، في الهند والصين وأندونسيا، تعليمهم في مؤسسات غربية محافظة. وكانت الجامعة الأمريكية في بيروت، التي يديرها ويدعمها مسيحيون أمريكيون أتقياء محافظون، مدرسة للثورة في العالم العربي الأميّ. ولا يوجد أدنى شك أن أساتذة المدارس التبشيرية المسيحية الأتقياء كانوا، من غير قصد، ضمن أولئك الذين أعدّوا المسرح للثورة الصينية.

105

ينتمي رجال الكلمة إلى عدة فئات مختلفة. قد يكونون قساوسة، أو كتابًا، أو فنانين، أو أساتذة، أو طلابًا، أو مثقفين عمومًا وإجمالًا. في بلد مثل الصين، حيث تصعب الكتابة والقراءة، يمكن أن يعدّ كلّ من تحرر من الأمية رجلًا من رجال الكلمة. وكان الوضع نفسه موجودًا في مصر الفرعونية، حيث كان فنّ الكتابة بالرسوم حكرًا على أقلية صغيرة.

ومهما كان نوعهم، فإن هناك رغبة مشتركة تجمع كل رجال الكلمة، وتحدد موقفهم من النظام القائم: الحرص على الاعتراف بهم، والحرص على حصولهم على وضع يميزهم عن العامة. قال نابليون: (الغرور والطموح صنعا الثورة؛ أما

facebook.com/ketabme

الحرية فكانت التبرير). يبدو أن هناك شعورًا بالنقص لا يمكن تجاوزه في داخل كل مثقف، سواء كان مبدعًا أو غير مبدع. ويبدو أنه حتى أكثر المثقفين إنتاجًا وموهبة يعيش في حالة دائمة من الشك في نفسه، ويحتاج إلى إثبات ذاته من جديد كل يوم. ينطبق على المثقفين ما قاله رجل من رجال الكلمة عن زميل له في المهنة: (لديه من الاعتداد أكثر مما لديه من الطموح، وهو يؤثر التقدير على الطاعة، ويفضّل خيال القوة الوهمي على القوة الحقيقية، استشره أولًا، ثم افعل ما تريد. سوف يلاحظ ما تظهره له من احترام أكثر مما يلاحظ ما تقوم به من تصرفات[1].

هناك لحظة ما، في حياة كل رجل من رجال الكلمة تقريبًا، يمكن فيها اجتذابه إلى صف النظام عن طريق مبادرة سلام وتقدير يقوم بها الحاكمون. وهناك، في مرحلة من المراحل، استعداد لدى معظم رجال الكلمة للانضمام إلى النظام القائم وخدمته. هناك من يرى أن البابا لو منح لوثر رتبة الكاردينال لخفف ذلك من حماسته لقيادة الثورة ضد الكنيسة. وربما كان بالإمكان اجتذاب كارل ماركس[2] في شبابه إلى العمل في حكومة بروسيا؛ بعرض لقب رنان ووظيفة مهمة، كما كان من الممكن اجتذاب لاسال[3] بوظيفة مرموقة في البلاد. إلا أنه بمجرد أن يطور رجل الكلمة فلسفة، ويعلن عن برنامجه، فسوف يكون مخلصًا لهما، ولن تجدي معه الوعود أو الوعيد.

(1) Quoted by Alexis de Tocqueville, Recollections (New York: Macmillan Company, 1896, p. 33.

(2) كارل ماركس (1818-1883م) مفكّر ألماني وضع النظرية الشيوعية عبر كتابه الشهير «رأس المال» والمانفستو الشيوعيّ (المترجم).

(3) كان فردينانـد لاسال (1825-1864م) من تلامذة ماركس، وأبرز قادة الحركة الشيوعية في ألمانيا (المترجم).

facebook.com/ketabme

إن الظلامات التي تحرك رجل الكلمة، بصرف النظر عما يدّعيه من أنه يمثل المسحوقين والمظلومين، هي، باستثناءات لا تكاد تذكر، ظلامات فردية وشخصية. قد يتحدث عن الرحمة، إلا أن مشاعره الفعلية نابعة من كراهيته للنظام القائم[1]. إن الذين يشعرون بحب نحو الإنسانية، بحيث يتمردون على الظلم والمعاناة، بالرغم من عدم تأثرهم شخصيًّا بهما، أفراد نادرون[2] يعرض ثورو المسألة بوضوح تام: (إنني أعتقد أن الذي يزعج الصلح، مهما كانت درجة تقواه وصلاحه، هو ألمه الشخصي وليس الشفقة على الآخرين، ولو حُلّت مشكلته الشخصية لتخلّى عن الآخرين دون كلمة اعتذار[3]. عندما يعترف النظام القائم بوضع مميّز لرجل الكلمة، فإنه سينخرط في صفوفه وسيجد مبررات نبيلة لوقوفه مع القويّ ضد الضعيف. كان لوثر، في بداية تمرده على الكنيسة، يتحدث بحرارة (عن الفقراء البسطاء المساكين)[4]. ولكنه، في وقت لاحق، عندما احتضنه الأمراء الألمان أعلن (أن الله يفضل أن تكون هناك حكومة، مهما كانت شريرة، على الفوضى التي تتيح للرعاع الإخلال بالأمن، مهما كانت ظلاماتهم مشروعة)[5] وبيرك[*]، عندما تبناه اللوردات والنبلاء تحدث عن (الغوغاء الخنازيرية)، ونصح الفقراء (بالصبر والجدّ والبعد عن المسكرات والتوفير والتديّن)[6]. لم يشعر رجال الكلمة

---

(1) Multatule, Max Harelaar, (New York: Alfred A. Knopf, Inc 1927). Introduction by D. H. Lawrence.

(2) Bertrand Russell, proposed Roads to Freedom (New York: Blue Ribbon Books, 1931), Introduction, p. v 111.

(3) Henry Thoreau, walden, Modern Library Edition (New York: Random House, 1937), p. 70.

(4) Quoted by Frantz Funck- Brentato, Luther, (London: Jonathan cape, Ltd, 1939) p. 65.

(5) Quoted by Jerome Frank, Fate and Freedom. (New York: Simon and Schuster, inc 1945), p. 281.

(*) كان أديموند بيرك (1729 - 1797م) رجل دولة ومنظرًا سياسيًّا بريطانيًّا منحازًا إلى التفكير المحافظ (المترجم).

(6) Ibid, p. 133.

facebook.com/ketabme

الذين جندتهم النازية في ألمانيا والبلشفية في روسيا بأي دافع للوقوف مع المظلومين والمقموعين ضد القادة الطغاة وبوليسهم السّري.

106

لا يمكن أن يطول بقاء عهد ما، برغم عدم كفاءته، إلا إذا كان هناك غياب كامل للطبقة المثقفة، أو كان هناك تحالف وثيق بين الحاكمين ورجال الكلمة. وعندما يكون جميع المثقفين من الكهنوت، تصبح للكنيسة سلطة مطلقة. وعندما يكون جميع المثقفين موظّفين، أو عندما يتمتعون بوضع متميز عن وضع الآخرين، فإن النظام القائم سوف يكون بمنأى عن الاضطرابات والمعارضة.

انحدرت الكنيسة الكاثوليكية إلى أدنى مستوياتها في القرن العاشر أمام البابا جون الثاني عشر. كانت الكنيسة في تلك المدة أسوأ بكثير منها في مدة الإصلاح البروتستانتي. إلا أنه، في القرن العاشر، كان جميع المثقفين من رجال الكهنوت. أما في القرن الخامس عشر نتيجة ظهور المطابع والورق، فلم يعد التعليم حكرًا على الكنيسة. كان المثقفون، من غير الكنهوت، طليعة الإصلاح. أما مثقفو الكنيسة المرتبطون بها، أو بالبابا في روما والمتمتعون بالمزايا (فقد أبدوا الكثير من التسامح نحو الأوضاع الكنسية وتجاهلوا الانحرافات الدينية ولم يكونوا، إجمالاً، يهتمون (بالرعاع الذين ظلّوا في ظلام الجهل الذي يليق بوضعهم)[1].

(1) «Reformation» Encyclopaedia Britannica.

facebook.com/ketabme

كان استقرار الوضع في الصين الأمبراطورية، شأنها شأن مصر الفرعونية، نتيجة تحالف وثيق بين الطبقة الحاكمة والمثقفين. إنه لمن المثير للانتباه أن تمرد تايبنج(*)، الذي يمثل الحركة الجماهيرية الفاعلة الوحيدة في المدة التي شهدت حيوية الأمبراطورية، كان بقيادة مثقف فشل، المرة تلو المرة، في اجتياز الامتحان الحكومي الذي يؤهل لشغل المراتب العليا في الدولة[1].

إن بقاء الأمبرطورية الرومانية الطويل كان، إلى حدّ ما، نتيجة التحالف التام بين الحكام الرومان ورجال الكلمة اليونانيين. أحسّ اليونانيون المهزومون أنهم منحوا الفاتحين القوانين والحضارة وأنه لمن المذهل حقًّا أن نقرأ أن نيرون، الطاغية المستبد، والذي كان معجبًا بالحضارة اليونانية إلى حد الوله، استقبل بحماسة هيستيرية من قبل اليونانيين خلال زيارة اليونان 67 ق. م. اعتبره اليونانيون مثقفًا مثلهم وفنانًا مثلهم. (جمع اليونانيون، في محاولة للتقرب منه، جميع الألعاب في سنة واحدة، وأرسلت كل المدن اليونانية له جوائز مسابقاتها. وحيثما ذهب كانت هناك جموع في انتظاره تناشده أن يعزف ويغني[2]. وقام نيرون، بدوره، بإغراق اليونانيين في الهدايا والمنح.

في كتابه «دراسة للتاريخ»، يستشهد البروفسور ا.ج. توينبي بالأشعار التي

(*) كان تمرد تايبنج (1850-1864م) إعصارًا دينيًا سياسيًا هز الصين من أقصاها إلى أقصاها وتجاوز عدد ضحاياها عشرين مليون نسخة (المترجم).

(1) Rene Fullop Miller, Leaders, Dreamers and Rebels (New York: The viking & Press, 1935), p. 85.

(2) Ernest Renan, Anti christ, (Boston: Roberts Brothers, 1897), p. 245.

facebook.com/ketabme

كتبها الشاعر كلوديان، المقيم في الإسكندرية، والتي يتغنى فيها بروما بعد خمسة قرون تقريبًا من دخول قيصر إلى مصر، ويضيف توينبي بأسى: «من السهل أن نثبت أن الاستعمار البريطاني في الهند كان، من نواحٍ عدة، أكثر تسامحًا ونفعًا للناس من الأمبراطورية الرومانية، إلا أنه يصعب أن نعثر على مديح له يشبه مديح كلوديان في أي مدينة من مدن الهند[1]. ولعلّه ليس من الإغراق في الخيال أن نقول: لو أن البريطانيين في الهند، بدلًا من التحالف مع المهراجات والقيادات التقليدية حاولوا اجتذاب المثقفين الهنود وعاملوهم معاملة الند للند وشجعوهم وأشركوهم في السلطة لبقوا في الهند مدة أطول بكثير. إلا أن ما حدث هو أن حكام الهند البريطانيين كانوا من عقلية لا تستطيع التعامل مع المثقفين في أي بلد، وخاصة في الهند. كانوا رجالًا عمليين بعيدين عن النظريات يؤمنون بالتفوق الطبيعي للبريطانيين. في معظم الأحوال، لم يظهر هؤلاء الحكام سوى الاحتقار للمثقف الهندي، سواء بصفته رجل كلمة أو بصفته هنديًا. حاول البريطانيون في الهند حصر كل الأنشطة في أيديهم، ولم يبذلوا مجهودًا يذكر لتشجيع الهنود على أن يصبحوا مهندسين، أو خبراء زراعيين، أو تقنيين مهرة. لم ينتج النظام التعليمي الذي أقاموه غير رجال كلمة نظريين، والمفارقة هي أن هذا النظام بدلًا من أن يحمي الحكم البريطاني ساعد في نهايته.

كما أن فشل بريطانيا في فلسطين يرجع، جزئيًا، إلى انعدام التفاهم بين الموظفين الاستعماريين البريطانيين وبين رجال الكلمة. كانت أغلبية اليهود في فلسطين، برغم انهماكهم في العمل، من رجال الكلمة الذين يشعرون بحساسية

(1) Arnold. T. Toynbee, A study of History Abridgment by D. C. Somervell (Toronto: Oxford University Press, 1947) P. 294.

facebook.com/ketabme

مفرطة تجاه الانتقاد. كانوا يعانون من الاحتقار الذي لمسوه لدى البريطانيين الذين اعتبروا اليهود مشاغبين لا يعترفون بالجميل الذي أسداه لهم الحكم البريطاني بحمايتهم من العرب. كما أن اليهود شعروا بالنقمة من الوصاية التي مارسها موظفون بريطانيون يفتقرون إلى الخبرة والذكاء. لو كان هؤلاء الموظفون يتمتعون بالذكاء والحكمة لبقيت فلسطين جزءًا من الأمبراطورية البريطانية(*).

في كل من الأنظمة النازية والبلشفية هناك شعور عميق بأهمية العلاقة المفصلية بين الدولة وبين رجال الكلمة. في روسيا يتمتع الكتاب والفنانون والمثقفون بالمزايا التي تحصل عليها النخبة الحاكمة، بل إنه يمكن اعتبارهم جميعًا موظفين من درجة عالية لدى الدولة. وبرغم أنهم مجبرون على اتباع الخطر الرسمي للحزب، إلا أن الانضباط المفروض عليهم هو الانضباط نفسه المفروض على النخبة الحاكمة، وفي حالة هتلر كان هناك نوع من الواقعية الشيطانية يستهدف التعليم حكرًا على النخبة التي ستحكم الأمبراطورية العالمية التي كان يحلم بها، بينما تبقى الجماهير في أميّة شبه كاملة.

107

يُعدّ الكتّاب الفرنسيون في القرن الثامن عشر المثال التقليدي لمثقفين فتحوا الطريق أمام حركة جماهيرية. إلاّ أن نمطًا مماثلًا يمكن أن يشاهد في الفترات التي تسبق قيام معظم الحركات الجماهيرية هُيِّئَت التربة للإصلاح البروتستانتي على أيدي المثقفين الذين سخروا من كهنوت روما ونددوا به، وكان انتشار المسيحية السريع في الأمبراطورية الرومانية يعود، جزئيًّا، إلى أن المذاهب الوثنية التي حلت

(*) جانب المؤلف، هنا، الصواب، فقد كان هدف الصهاينة، منذ البداية، إنشاء دولة يهودية مستقلة، ولم يكونوا ليجدوا من هذا الهدف مهما كان مستوى ذكاء الحكام البريطانيين (المترجم).

facebook.com/ketabme

المسيحية محلها أصبحت مرفوضة تمامًا. هوجمت هذه المذاهب قبل ظهور المسيحية وبعدها، من قبل فلاسفة اليونان الذين سخروا منها في المدارس والشوارع. ولم تستطع المسيحية تحقيق أي تقدّم في مواجهة اليهودية؛ لأن هذه الديانة الأخيرة حظيت بولاء متحمسة من قبل رجال الكلمة اليهود. كان الحاخامات وتلامذتهم يتمتعون بموقع ممتاز في حياة اليهود اليومية، حيث تضافرت المدرسة والكتاب للوقوف مع المعبد ومع التراب. ولو تصورنا نظامًا يتمتع فيه رجال الكلمة بسلطة مطلقة، فسيكون نظامًا مُحصّنًا ضد أي معارضة من الداخل وضد أي حركة جماهيرية في الخارج.

كانت الريادة في قيام الحركات الجماهيرية المعاصرة، سواءً كانت اشتراكية أو قومية، دومًا للشعراء والمؤرخين والباحثين والفلاسفة، ومن إليهم. والعلاقة بين المثقفين المنظّرين وبين الحركات الثورية لا تحتاج إلى تأكيد. إلا أنه من الضروري أن نلاحظ أن الحركات الوطنية كلّها من الثورة الفرنسية إلى آخر تمرّد في أندونسيا لم يوجدها رجال عمليون، بل مثقفون هاجموا الأوضاع السائدة. إن الضباط الكبار ومالكي الأراضي ورجال الأعمال الذين يعدّون رموز الحركة الوطنية لا يصعدون على المسرح، عادة، إلا متأخرين بعد ظهور الحركة وبدأ نشاطها. إن الجهد الأكبر المبذول في المرحلة الأولى من أي حركة وطنية تنصب على إقناع الرموز الوطنية المشار إليها واجتذابها إلى صفوف الحركة. قال المؤرخ التشيكي بالاكي: (لو أن السقف انهار ذات ليلة عليه، وعلى عدد من رفاقه خلال تناولهم العشاء، لما كانت هناك حركة تشيكية وطنية) [1]. كان هناك، دومًا، عدد محدود من رجال الفكر غير العمليين وراء جميع الحركات الوطنية.

(1) Carlton J. h Hayes, The Historical Evolution of Modern Nationalism (New York: R. R. Smith, 1931), p. 294.

facebook.com/ketabme

صاغ المثقفون الألمان فكرة القومية الألمانية كما صاغ المثقفون اليهود فكرة الصهيونية. إن شوق رجل الكلمة إلى موقع متميّز هو الذي يجعله مفرط الحساسية تجاه أي إهانة توجه إلى الطبقة أو الجماعة التي ينتمي إليها، سواء كانت عرقية أو لغوية أو دينية، ومهما كان الانتماء سطحيًا. كانت الإهانة التي وجهها نابليون إلى الألمان، وإلى البروسيين تحديدًا هي التي دفعت عددًا من المثقفين الألمان إلى دعوة الجماهير إلى الاتحاد في دولة قوية تستطيع السيطرة على أوروبا. وكان هرتزل(*) ورفاقه مدفوعين إلى الصهيونية؛ نتيجة الإهانات التي تلقاها ملايين اليهود في روسيا، ونتيجة المآسي التي تعرض لها اليهود في أوروبا مع نهاية القرن التاسع عشر. وإلى حد ما، وجدت الحركة الوطنية التي أخرجت بريطانيا من الهند بدايتها في الإهانات التي لاحقت غاندي في جنوب أفريقيا.

108

من السهل أن نرى كيف يستطيع رجال الكلمة عن طريق الانتقادات المستمرة والسخرية المطردة أن يهزوا العقائد والولاءات القائمة. إلا أنه يصعب أن نتوقع الكيفية التي تتحول عبرها هذه الإدانة إلى عقيدة جديدة. ما يثير الانتباه هو أن رجل الكلمة النشيط الذي يتابع النظام القائم ويكشف ضعفه وظلمه[1] كثيرًا ما يهيئ المسرح لا لمجموعة من الأفراد المستنيرين، بل لحركة شمولية همها الأول والأخير فرض الوحدة ونشر الولاء المطلق. وهكذا نرى أن انتشار التذمر من نظام ما، وزوال هيبته كثيرًا ما يقود إلى نتائج غير متوقعة، ما أبدته مرحلة النهضة

(*) تيودور هرتزل (1860-1904م) الكاتب الهنغاري أول من تبنى فكرة الدولة اليهودية ومن أوائل الذين أسسوا الحركة الصهيونية (المترجم).

(1) Pascal, Pensees.

facebook.com/ketabme

من احتقار للأوضاع القائمة فتح الباب أمام تطرف جديد جسدته حركة الإصلاح البروتستانتي والحركة المناوئة لها. كما أن المثقفين الفرنسيين الذين هاجموا الكنيسة والتاج في القرن الثامن عشر، ونادوا بالتسامح وتحكيم المنطق أثاروا مدًّا عنيفًا من التطرف الثوري والقومي استمر مدة طويلة. وكل ما فعله ستالين ورفاقه بعد أن هاجموا الأديان والنشاط التجاري المحموم هو أنهم أدخلوا تطرفًا جديدًا تجسّد في الشيوعية والاشتراكية والوطنية الستالينية والرغبة في السيطرة على العالم بأسره.

إننا عندما نهاجم عقيدة أو نزعة متطرفة لا نقضي على جذور التطرف، بل نمنع تسربه من نقطة مُعينة، الأمر الذي قد ينتج عنه تسربه من نقطة أخرى. وهكذا نرى أن رجل الكلمة المعارض بانتقاض الولاءات والعقائد القائمة يخلق في الجماهير، دون قصد، شوقًا إلى عقيدة جديدة. لا يستطيع معظم الناس تحمل ما في حياتهم من خواء وخيبة إلا إذا كان لديهم ولاء قويّ، أو مجهود دائب يمكن أن ينغمسوا فيه كلية. هكذا يصبح رجل الكلمة المعارض، شاء أو لم يشأ، مبشرًا بعقيدة جديدة.

إن المثقف الحقيقي ليس بحاجة إلى الإيمان المطلق بقضية ما. بوسعه أن يعدّ البحث عن الحقيقة في أهمية الحقيقة ذاتها، وأن يستمتع بصراع الأفكار، وما يثيره الجدال من حيوية. حتى عندما يطوّر هذا المثقف فلسفة ومذهبًا، فإنه يفعل ذلك ليثبت ذكاءه وقدرته دون أن يعدّ ما قام به برنامجًا يتطلب التنفيذ، أو عقيدة يجب الالتزام بها. صحيح أن غروره قد يقوده إلى الدفاع عن نظرياته بصلابة وعنف إلا أنه، برغم ذلك، يحتكم إلى المنطق، لا إلى الإيمان الأعمى. إلاّ أن الجماهير المتعطشة إلى الإيمان، بقيادة المتطرفين، كثيرًا ما تضفي على هذه

facebook.com/ketabme

النظريات عصمة الكتب المقدّسة وتجعل منها نواة دين جديد. لم يقل المسيح: إنه مسيحي، ولم يقل ماركس: إنه ماركسي.

تلخيصًا لما تقدم يمكن أن نقول: إن رجل الكلمة المعارض يهيئ التربة لقيام حركة جماهيرية، وذلك:

أولًا: بانتقاص المذاهب والمؤسسات القائمة وزعزعة شرعيتها عند الناس.

ثانيًا: بأن يوجد، بطريق غير مباشر، جوعًا إلى الإيمان في قلوب أولئك الذين لا يستطيعون العيش من غير هذا الإيمان، بحيث تلقى العقيدة الجديدة حين تجيء قبولًا حارًّا من الجماهير المحبطة.

ثالثًا: بأن يصوغ العقيدة الجديدة وشعاراتها.

رابعًا: بأن يهاجم «الصفوة» التي لا تحتاج إلى عقيدة على نحو يفقد أفرادها القدرة على مقاومة التطرف الجديد حين يجيء. يصبح هؤلاء مقتنعين أنه لا جدوى من الموت في سبيل المبادئ التي يؤمنون بها ويستسلمون للنظام الجديد بلا مقاومة[1].

هكذا يصبح المشهد عندما ينهي رجل الكلمة المعارض مهمته: (يفتقر أفضل الناس إلى المبادئ، بينما تسود الحماسة الجارفة أسوأ الناس. وعندها يقال: إن هناك شيئًا جديدًا سينزل: لا بد أن عودة المسيح قد اقتربت)[2] أصبح المسرح، الآن، جاهزًا للمتطرفين.

---

(1) جاء في رسالة كتبها مصري في هولندي: «لا نود نحن الهولنديون أن نصبح شهداء، شأننا شأن معظم معاصرينا الذين لا يريدون الاستشهاد». انظر:

Demaree Bess, «The Bitter Fate of Holland» Saturday Evening Post Feb, 1, 1941.

(2) William Butler Yeats, «The Second Comine» Collected Poems (New York: Macmillan Company, 1933.

facebook.com/ketabme

109

إن الأشخاص المأساويين في تاريخ الحركات الجماهيرية هم، عادة، المثقفون الذين مهّدوا للحركة، والذين عاشوا ليروا سقوط النظام القديم على يد الجماهير.

إن الوهم السائد الذي يذهب إلى أن الحركات الجماهيرية تولد من عزم الجماهير على التخلص من الطغيان وشوقها إلى الحرية يعود إلى ضجيج الكلمات التي أطلقها المثقفون ضد النظام القائم. إلا أن الواقع يقول: إن الحركات الجماهيرية خلال صعودها تمنح، عادة حريات أقل من التي كانت موجودة في عهد النظام القديم. و كثيرًا ما ينسب هذا إلى مكر الفئة المتسلطة التي خطفت الحركة في بدايتها، وحرمت الجماهير من فجر الحرية الذي يوشك أن يشرق. إلا أن الأشخاص الوحيدين الذين خُدعوا هم -في الواقع- المثقفون. تحرك المثقفون ضد النظام القائم، يعيبون عليه عدم عقلانيته وعدم كفاءته، ويشككون في شرعيته ويدينون ظلمه، مطالبين بالحرية، معترضين أن الجماهير التي تستجيب لنداءاتهم وتصطف وراءهم تؤمن بالأهداف ذاتها. إلا أن الجماهير، في الحقيقة، لا تتوق إلى حرية التعبير وتحقيق الذات، بل إلى التحرر من العبء الثقيل الذي يخلقه وجود الفرد المستقلّ. إنها تريد الحرية (من ذلك القيد الثقيل: حرية الاختيار) [1] إنها تريد الخلاص من المسؤولية الثقيلة التي يواجهها الأفراد المحبطون، والتي تتطلب منهم العيش مع أنفسهم التي يكرهونها وتحمل المسؤولية عن أعمالهم. لا تريد

(1) Fedor Dostoyevsky, The Brothers Karamazof Book V, Chap, 5.

facebook.com/ketabme

الجماهير حرية الضمير، ولكنها تريد الإيمان، الإيمان الشامل الأعمى. والجماهير التي تطيح بالنظام لا تود إقامة مجتمع من أفراد أحرار مستقلين، بل بناء مجتمع يتميز بالتماثل ويجسد الوحدة التامة ويلغي الهويات الفردية.

لم تكن ثورة الجماهير منصبة على شرور النظام القديم، بل على ضعفه؛ لا على ظلمه، بل على فشله في تحويل الجماهير إلى كيان قويّ موحد. إن رجل الكلمة المعارض لا يقنع الناس بمساوئ النظام القديم بقدر ما يقنعهم بضعفه وعجزه، وما تفعله الحركة الجماهيرية يتمشى، عادة، مع رغبات الناس ولا يمكن القول: إن الحركة خدعتهم.

ينتظر المثقفين الذين ساعدوا على ولادة الحركة الجماهيرية مصيرٌ مرعبٌ، يظل هؤلاء المثقفون، مهما مجَّدوا العمل الجماعي، فرديين في تصرفاتهم وإفكارهم، يؤمنون أن السعادة يمكن أن تكون فردية، كما يؤمنون بالرأي الفردي والمبادرة الفردية، إلا أنه بمجرد أن تبدأ الحركة عملها تقع السلطة في يد أولئك الذين لا يؤمنون بالفرد، ولا يقيمون له أي وزن. والسبب الذي يجعلهم مسيطرين على الموقف لا يكمن في استخفافهم بحقوق الفرد والقوة التي يستمدونها من هذا الاستخفاف، ولكن من كون موقفهم من الفرد يتمشى تمامًا مع عواطف الجماهير الملتهبة.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل السادس عشر

المتطرفون

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

110

المتطرّف، وحده، هو الذي يستطيع، عندما تجيء اللحظة المناسبة، أن يفرّخ حركة جماهيرية حقيقية. في غياب المتطرف، يظلّ التذمر الذي أثاره رجال الكلمة المعارضون بلا هدف، ويمكن أن يتبدد في اضطرابات لا غاية لها يسهل القضاء عليها. وأي إصلاحات جديدة، حتى عندما تكون جذرية، لا تستطيع في غياب المتطرف، تغيير نمط الحياة القديم. وأي انتقال للسلطة، في غياب المتطرف، لا يتجاوز، عادة، نقل الحكم من رجال عمليين إلى رجال عمليين مثلهم، باختصار، يمكن القول: إنه بدون المتطرف، لا يمكن أن تكون هناك بداية جديدة.

عندما يبدأ النظام القديم في التهاوي نجد أن عددًا كبيرًا من رجال الكلمة المعارضين، الذين صلّوا من أجل هذا اليوم، يصابون بالهلع. ينتابهم من النظرة الأولى إلى الفوضى العارمة فزع يشل قواهم العقلية. وهنا ينسون كل ما قالوه عن (الناس الطيبين البسطاء) ويهرعون إلى طلب الحماية من الرجال العمليين - النبلاء والضباط الكبار والإداريين ورجال البنوك ومالكي الأراضي - الذين يستطيعون التعامل مع الغوغاء وإيقاف مدّ الفوضى.

ليس هذا شأن المتطرف: إن الفوضى هي البيئة التي يبدع فيها. عندما يبدأ النظام القديم في التصدع يتقدم المتطرّف بكل جرأة؛ ليؤجج نيران الغضب على هذا النظام. يجد المتطرّف الرضا والمتعة في رؤية العالم القديم ينتهي بغتة، ولتذهب الإصلاحات إلى الجحيم. لم يبقَ سوى الأنقاض، ولا يوجد ما يدعو إلى إصلاح الأنقاض. يبرر المتطرّف نزعته إلى الفوضى تبريرًا منطقيًا، إذ يقول: إنه من المستحيل أن تكون هناك بداية جديدة، والنظام القديم يزحم الأرض. يزيح

facebook.com/ketabme

المتطرّف رجال الكلمة جانبًا، إذا كانوا لا يزالون على المسرح، ومع ذلك يستمر في تمجيد المذاهب التي صاغوها، وترديد الشعارات التي ابتكروها. المتطرف، وحده، هو الذي يعرف الرغبة المعتملة في صدور الجماهير الزاحفة: الرغبة في الوحدة والتكتل وحشد الصفوف والتخلص من الفردية الممقوتة، ليحل محلها جلال الكيان الواحد وعظمته. يصبح المستقبل هو الملك، والويل لمن يحاول التمسك بالحاضر، سواء من داخل الحركة أو من خارجها.

111

من أين يجيء المتطرفون؟ يجيئون، غالبًا، من صفوف رجال الكلمة غير المبدعين. إن أهم تفرقة بين رجال الكلمة هي بين أولئك الذين يحصلون على الرضا والشعور بالاعتزاز نتيجة عملهم وبين أولئك الذين لا يشعرون بشيء من هذا. إن رجل الكلمة المبدع، برغم انتقاداته المريرة للنظام القائم هو، في الحقيقة، إنسان مرتبط بالحاضر، يتطلّع إلى الإصلاح لا إلى الهدم. وعندما تبقى الحركة الجماهيرية في عهدته، فإنه ينزع إلى تحويلها إلى حركة سلمية، وأي إصلاحات يقوم بها تظل سطحية تجري الحياة تحتها دون انقطاع. إلا أن بقاء رجل الكلمة المبدع في قيادة الحركة لا يتحقق إلا بغياب الفوضى من المسرح، إما لأن النظام القديم تنازل بلا مقاومة، أو لأنه حالف رجالًا عمليين أقوياء قبل انفلات الفوضى من عقالها. إلا أنه عندما يكون الصراع مع النظام القديم مريرًا تسوده الفوضى، وعندما يتعذر الانتصار دون العمل الجماعي والتضحية بالذات، فإن رجال الكلمة المبدعين يدفعون جانبًا وتصبح السيطرة على الأحداث في يد رجال كلمة غير مبدعين، لا يستطيعون الانتماء إلى الحاضر، ولا يكنّون له سوى الكراهية.

إن الرجل الذي يودّ أن يكتب كتابًا عظيمًا، أو يرسم لوحة رائعة، أو يصمم

facebook.com/ketabme

مخططًا معماريًّا استثنائيًّا، أو يصبح عالمًا شهيرًا، ويعلم أنه لا يستطيع أن يقوم بشيء من هذا، ولو منح الأبدية، هذا الرجل لا يجد طعمًا للسلام في نظام اجتماعي مستقر، سواء كان قديمًا أو جديدًا. يرى هذا الرجل أن حياته قد فسدت بلا أمل في علاجها، ويرى العالم المحيط به مختلًا ومعيبًا، ولا يشعر بالراحة إلا في جو من الفوضى. وعندما يلتزم هذا الرجل بالانضباط أو يفرضه على الآخرين، فإنه يفعل ذلك لأنه يرى أن هذا الانضباط يمكنه من المضيّ في عملية تغيير لا تنتهي. لا يستطيع المتطرّف العيش مع نفسه - ولهذا فهو يخاف الاستقرار والأوضاع الهادئة المنتظمة. بإمكاننا أن نعد قادة الثورة الفرنسية الدمويين ولينين وموسوليني وهتلر أمثلة صارخة لمتطرفين خرجوا من صفوف رجال الكلمة غير المبدعين(*)، يلاحظ بيتر فيريك أن معظم القياديين في الحركة النازية كانت لديهم طموحات فنية وأدبية لم يتمكنوا من تحقيقها. جرّب هتلر الرسم والهندسة المعمارية؛ وجرّب جوبلز المسرح والرواية والشعر؛ وجرّب روزنبرج الهندسة المعمارية والفلسفة؛ وجرّب فون شيراك الشعر؛ وجرب فنك الموسيقى؛ وجرب ستريجر الرسم. (كان الجميع فاشلين لا بمعايير النجاح الموضوعية فحسب، بل حسب معاييرهم هم). كانت طموحاتهم الفنية والأدبية، في الأساس، أعمق بكثير من طموحاتهم السياسية، وكانت جزءًا لا يتجزأ من شخصياتهم»[1].

لا يشعر رجل الكلمة المبدع بالراحة في جو الحركة الجماهيرية النشطة، بل يحسّ أن حيويتها وعواطفها المتأججة تمتص طاقاته المبدعة: ما دام الإبداع يسري

(*) نلاحظ، في هذا السياق، دون تعليق أن اثنين من الزعماء الثوريين العرب المعاصرين كشفوا عن طموحات أدبية لا تدعمها سوى موهبة شديدة التواضع! (المترجم).

(1) Peter Viereck, Meta Politics (New York: Alfred A. Knopf, 1941), pp. 156, 170.

facebook.com/ketabme

في دمائه، فهو لا يجد أي متعة في قيادة الملايين وتحقيق الانتصارات، والنتيجة الحتمية، عندما تبدأ الحركة هديرها، هي أن يتخلى عن موقعه طوعًا أو يزاح بالقوة. ونظرًا إلى أن رجل الكلمة المبدع لا يستطيع خنق حاسته النقدية، فإنه يتحوّل، بالضرورة، إلى منحرف عن العقيدة السليمة. ومن هنا نرى أن رجل الكلمة المبدع، إذا لم يستطع خنق الحركة الوليدة بالتحالف مع رجال عمليين أقوياء، وإذا لم يمت في اللحظة المناسبة، فليس أمامه سوى أن يصبح معزولًا ومهمشًا ومنسيًا، أو أن يواجه الإعدام.

112

يكمن خطر المتطرّف على تطور الحركة الجماهيرية في عجزه عن الهدوء. عندما يتم النصر، ويبدأ النظام الجديد في التبلور، يصبح المتطرّف عامل توتر وإرباك. يدفعه جوعه إلى إثارة العواطف العنيفة إلى البحث عن أسرار جديدة لا بد أن تكشف، وأبواب سرية جديدة لا بد أن تفتح، كما يدفعه إلى البحث المستمر عن أشدّ المواقف تطرفًا. ومن هنا تجد معظم الحركات الجماهيرية نفسها غداة انتصارها في قبضة الشقاق والخلاف. تتحول الحماسة، التي كانت، في السابق، تتجلى في صراع حتى الموت مع أعداء خارجيين إلى صراعات عنيفة وصدام بين الأجنحة، وتتحول الكراهية إلى عادة متأصلة. بمجرد أن يغيب الأعداء الخارجيون يبدأ المتطرفون معاداة بعضهم بعضًا. استطاع هتلر، الذي كان هو نفسه متطرفًا، أن يحلل بدقة عقلية المتطرفين الذين تآمروا عليه ضمن صفوف الحركة النازية. في الأمر الذي وزعه على زعيم البوليس السرّي الذي عينه بعد القضاء على الزعيم السابق روهم، تحدث هتلر عن (أولئك الذين يرفضون أن يهدؤوا، الذين وجدوا في العَدَمية، دون أن يشعروا، عقيدتهم النهائية.. أن ما يشعرون به من قلق وتذمر

facebook.com/ketabme

يحرمهـم الرضـا ويدفعهم إلى التآمـر، وإلى التخطيط المسـتمر لتدمير كل ما هو قائم في الوقت الحاضر)[1] وكما هو الحال، عادة مع هتلر، فإن اتهاماته لأعدائه، داخل ألمانيا وخارجها، أشـبه ما تكون باعترافات شخصـية. وهو نفسـه، في أيامه الأخيرة، وجد في العدمية (الفلسفة النهائية والتبرير النهائي)[2].

ينـزع المتطرفـون، إذا سـمح لهـم بحرية العمـل، إلى شـقّ الحركـة وإدخال انحرافـات وخلافات تهدد بقاءها. وحتـى عندما لا يتعمّد المتطرفون إثارة الفرقة، فإنهم يسـتطيعون تحطيم الحركة بدفعها نحو أهداف يسـتحيل تحقيقها. لا ينقذ الحركة شيء في هذه المرحلة سوى دخول رجل من الرجال العمليين.

(1) Hans Bernd Gisevius, To the bitter end (Boston: Houghton Mifflin Company, 1974), pp. 121- 122.
(2) H. R. Trevor- Roper, The Last Days of Hitler (New York: Macmillan Company, 1947), p. 4.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل السابع عشر

الرجال العمليون

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

113

باختصـار ، الحركة الجماهيرية يخطط لها رجال الكلمة، ويظهرها إلى حيز الوجود المتطرفون، ويحافظ على بقائها الرجال العمليون.

قـد يكون من فائدة الحركة، بل قد يكون شـرطًا من شـروط بقائها، أن يؤدي هذه الأدوار المختلفة رجال مختلفون يأتي الواحد منهم بعد الآخر حسـب متطلبات المرحلـة. عندما يقود الشـخص نفسـه، أو أشـخاص بطبيعة واحـدة، الحركة من بدايتها إلى نهايتها، فإن الحركة تنتهي، عادة، بكارثة، لم يحدث أي تغيير في قيادة الحركة النازية أو الحركة الفاشـية، وانتهت الحركتان نهاية مأساوية. كان تطرف هتلر، وما تبعه من عجز عن الهدوء والقيام بدور الرجل العملي، المسؤول عن تدمير النازية. لو مات هتلر في منتصـف الثلاثينيات، كما كان هناك أي شك في أن رجلًا عمليًّا مثل جورنج[1] كان سيتولى القيادة، وكان بإمكان النازية أن تبقى.

هناك، بطبيعة الحال، إمكانية حدوث تغيير في الطبيعة البشـرية. بوسـع رجل الكلمة أن يصبح متطرفًا حقيقيًّا أو رجلًا عمليًّا. إلا أن التجربة تشير إلى أن مثل هذا التغيير يكون، عادة، مؤقتًا: بعد وقت يطول أو يقصر يرجع المرء إلى طبيعته الأصلية. كان تروتسـكي، أساسًـا، رجلًا من رجال الكلمة. كان معتدًا بنفسه وذكيًّا وفرديًّا إلى أبعد حدّ. غير أن التغييرات الهائلة التي عاصرها، انهيار النظام القيصري وتصميم لينين الحديدي، دفعت بترتسـكي إلى معسكر المتطرفين. أثبت خلال الحرب الأهلية مواهب استثنائية في التنظيم وقيادة القوات. إلا أنه مع انتهاء التوتر في نهاية الحرب عـاد، مـن جديد، إلى طبيعته القديمـة، رجلًا من رجال الكلمة، متحررًا من الشـدة

(1) كان هيومـان جـورنج (1893 - 1946م) مـن أوائل القادة النازيين، ومن أعوان هتلـر المقربين، وقد مات منتحرًا في سجن الحلفاء بعد الحكم عليه بالإعدام (المترجم).

facebook.com/ketabme

والشـكوك السوداء، واثقًا في الكلمات بدلًا من العمل المحموم، وهكذا سمح لنفسه أن يزاح جانبًا من قبل المتطرّف الماكر ستالين.

كان سـتالين نفسـه مزيجًـا من المتطـرف والرجـل العملي، مع غلبـة الجانب المتطـرّف. إن أخطاءه الفظيعة -من الإبادة العبثية للكلولاك(*) وأولادهم، والرعب الـذي واكب التطهيرات المتوالية، والحلف مع هتلر، والتدخّل الفظّ في إبداع الكتاب والفنانين والعلماء - كانت كلها أخطاء رجل متطرف. لم يكن بإمكان الروس، طالما ظلّ ستالين في السلطة، أن يتذوقوا أي متعة من متع الحاضر.

وكان هتلـر، بدوره، متطرفًا وقد أدّى تطرفـه إلى تحطيم كل المنجزات المذهلة التي حققها عندما تصرّف كرجل عملي واقعي.

وهنـاك أيضًـا، بطبيعة الحال، طراز نـادر من القادة، مثـل لنكولن وغاندي، وحتـى فرانكلـين روزفلت وتشرشـل ونهـرو(**). لم يتردد هؤلاء في اسـتثمار جموع الناس وخوفهم لإيجاد أتباع مخلصين مندفعين حتى الموت في حماية قضية مقدّسة، إلا أنهم بخلاف هتلر أو سـتالين، أو حتى كالفن (1)(***)، لم يحوّلوا معاناة النفوس

(*) كان اسم «الكولاك» يطلق في روسيا على طبقة المزارعين الميسورين، وفي سنة 1929م، قرر ستالين تأميم المزارع وإنشـاء مزارع جماعية وإنهاء طبقة الكولاك، وفي سـنة 1934 تم تأميم معظم المزارع، وكان هناك عدة ملايين من المنفيين والمهجرين والمعتقلين من طبقة الكولاك وغيرهم من المزارعين الذين عارضوا التأميم (المترجم).

(**) كان جواهر لال نهرو (1889 - 1964م) من أبرز تلامذة غاندي، وأقرب مساعديه إليه، ناضل وسجن في سبيل الاستقلال، وتولى رئاسة الوزراء منذ استقلال الهند سنة 1947م حتى وفاته. (المترجم).

(1) كل من لوثر وكالفن اسـتهدف إقامة سـلطة كنسية جديدة، أقوى وأكثر ديكتاتورية وحزمًا، وأقسى في معاركة الهراطقة، ومن الكنيسة الكاثوليكية انظر:
Jerome Frank, Fate And Freedom (New York: Simon And Schuster, Inc. 1943), p. 283

(***) يعـدّ جـون كالفن (1509 - 1564م) رجل الدين الفرنسـي/ السويسـري من أهم قادة الإصـلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر، وكان له تأثير كبير على الكنائس التي اتبعت مذهبه في أوروبا وأمريكا (المترجم).

facebook.com/ketabme

المحبطة إلى لبنات لبناء عالم جديد.

إن ما أبداه هؤلاء القادة النادرون من ثقة في النفس ينبع من إيمانهم بالإنسانية؛ ذلك أنهم أدركوا أنه لا يمكن لأحد أن يكون محترمًا ما لم يحترم البشر.

114

ينقذ رجل العمل الواقعي الحركة من النزعات الانتحارية، ومن طيش المتطرفين. إلا أن ظهوره يعني، عادة أن مرحلة الحركة الديناميكية انتهت بالقضاء على الوضع القائم.

لا يهم رجل العمل أن يعيد صياغة العالم بقدر ما يهمه أن يسيطر عليه. كانت القوة المسيّرة للحركة في مرحلتها الديناميكية هي الاحتجاج والرغبة في التغيير الجذري، أما في المرحلة النهائية فشغل الحركة الشاغل هو التنظيم والحفاظ على السلطة التي تم الفوز بها.

بظهور رجل العمل يمكن القول: إن الحماسة المتفجرة للحركة قد حنطت ووضعت في مؤسسات شبه مقدّسة. تتبلور الحركة الدينية في شكل الكهنوت والطقوس؛ وتتبلور الحركة الثورية في شكل أجهزة الرقابة والإدارة؛ وتتبلور الحركة القومية في شكل حكومة ومؤسسات وطنية. إن إنشاء كنيسة يعني انتهاء مدة الدعوة الأولى؛ وقيام الأجهزة والمؤسسات الثورية يعني القضاء على العقلية الثورية وآلياتها. كما أن إنشاء المؤسسات الحكومية في دولة جديدة مستقلة تعني نهاية المرحلة المتحمسة العدوانية. تعمل المؤسسات على تأبيد نموذج يجسد العمل الجماعي. يتوقع من أعضاء المؤسسات في مجموع موحد أن يتصرفوا، كما لو كانوا رجلًا واحدًا، إلا أنهم مع ذلك يبقون ممثلين لمؤسساتهم ولا يحكمهم الاندفاع

facebook.com/ketabme

العفـوي القديم. في المرحلة الجديدة لا تتحقق الوحـدة إلا من خلال الولاء الأعمى للمؤسسات: تصبح العفوية مرفوضة، ويصبح القيام بالواجب المثل الأعلى المنشود.

115

إن المهمة الأولى للرجل العمليّ عندما يسـيطر على حركة جماهيرية منتصـرة هي أن يضمن بقاء الوحدة والاستعداد للتضحية بالذات. إن هدفه هو إقامة مجموع واحد منظم، ومع ذلك يمكن أن يتصـرف مثل رجل واحد. لا يستطيع الرجل العملي الاعتماد على الحماسة؛ لأن الحماسة، بطبيعتها، عاطفة عابرة. ولا يمكنه الاعتماد علـى الإقناع الـذي لا يأتي دومًا بالنتائـج المطلوبة. ولهذا فهو ينـزع إلى الاعتماد، أساسًـا علـى التدريب المسـتمر والقمع، إنه يـرى أن المقولة التي تذهـب إلى أن كل الرجـال جبناء أصـدق من المقولـة التي تزعـم أن كل الرجال حمقـى، وهو ينـزع، كما قال السـير جون ما ينارد، إلى تأسـيس نظامه الجديد (في رقاب الناس لا في قلوبهم)[1]. إن الرجل العلمي لا يعتمد على الإيمان بقدر ما يعتمد على القانون.

ومع ذلك، فالرجل العملي لا يملك إلا أن يذهل بالمنجزات الكبرى التي تحققت بفضـل الإيمان والعمل العفوي في أيام الحركة الأولى، إذ أمكن إيجاد أداة قوية من أدوات القوة من العدم. لا تزال هذه الذكرى راسـخة في عقله، من هنا، فهو يحرص على أن يصـنـع للمؤسسات الجديدة واجهة جذابة من الإيمان، وعلى أن يكون هناك سيل مستمر من الدعاية المحمومة، برغم أنه يعتمد، أساسًا، على القمع. وفوق هذا، فهو يصـوغ أوامره بلغة الثورة، ويستخدم الشعارات والصيغ القديمة، ويحيط رموز

(1) John Maynard, Russia In Flux (London: Victor Gollancz, ltd, 1941), p. 19.

facebook.com/ketabme

العقيدة بهالة من السمو والقداسة. يتحول رجال الكلمة والمتطرفون الذين واكبوا الحركة في مرحلتها الأولى إلى قديسين. برغم أصابع القمع الحديدية الموجودة في كل مكان، وبرغم التركيز على التدريب المستمر العنيف، فإن الشعارات القديمة والدعاية المحمومة تضفي على القمع طابع الإقناع وتسكو العادة المفروضة فرضًا رداء العفوية. يبذل الرجل العملي جهدًا كبيرًا لإظهار المرحلة الجديدة، وكأنها النتيجة المجيدة الحتمية لآمال المرحلة الأولى وصراعاتها.

يختار الرجل العملي بعناية الأساليب التي يستخدمها لإعطاء النظام الجديد الاستقرار والثبات. إنه يستعير من القريب والبعيد ومن العدو والصديق. بل إنه يعود إلى النظام القديم الذي قضت عليه الحركة؛ ليقتبس منه بعض التقنيات التي توطّد الاستقرار، ويوجد بذلك، دون أن يقصد، استمرارية مع الماضي. ومنصب الديكتاتور المطلق الذي يظهر عادة في هذه المرحلة هو استخدام متعمد لآلية مقصودة، بالإضافة إلى كونه تعبيرًا عن الجوع إلى السلطة. إن الديكتاتورية كثيرًا ما تبرز مع بداية الحركة ومع نهايتها. إنها تعبير عن الرغبة في الثبات، ويمكن أن تستخدم لبلورة وضع لم يتبلور، أو للحفاظ على وضع بدأ في الانهيار. إن عصمة البابا أعلنت مرتين: كانت الأولى في عهد البابا إيرانيوس، في الأيام الأولى للبابوية في القرن الثاني، وكانت الثانية في عهد بيوس التاسع سنة 1870م حين بدأ أن البابوية موشكة على الزوال.

وهكذا نجد أن برنامج الرجل العملي مقتبس من هنا وهناك. كانت روسيا في عهد ستالين خليطًا غريبًا من البلشفية والقيصرية، والقومية، والسلافية، والديكتاتورية، وأشياء منقولة من هتلر، وعناصر من الرأسمالية الاحتكارية، كما كان رايخ هتلر الثالث مزيجًا من القومية، والعنصرية، والقومية البروسية، والديكتاتورية، بالإضافة

facebook.com/ketabme

إلى أشـياء منقولة من البلشـفية، والفاشـية، وديانــة الشــنتو(*)، والكاثوليكية واليهود القدامــى. كما أن المسـيحية بعـد انتهاء صــراعات القــرون الأولى وخلافاتها، تبلورت في شــكل كنيسة سـلطوية، وأصــبحت مزيجًا من القديم والجديد ومقتبسات من العدو والصــديق. أخذت تراتيبتها من بيروقراطية الأمبراطورية الرومانية، وأخذت عناصــر مــن الطقوس القديمة، وجاءت بمنصــب القائد المطلــق، واتبعت كل الوســائل المتاحة لاستيعاب ما يساعدها على البقاء ويقوي سلطتها[1].

116

عندمــا تقــع الحركة في قبضــة رجل عملي، فإنهــا تكف عن كونهــا ملاذًا من آلام الوجــود الفردي وتبعاتــه وتتحول إلى وســيلة متاحة لصــعود الرجل الطموح. إن اجتــذاب الحركة رجــالًا، لا يعانون الإحباط هو دليل قاطع علــى التغيير الهائل الذي ألمّ بالحركة وعلى تأقلمها مع الوضــع الراهن. كما أنه من الواضــح أن إقبال الأعضــاء الجدد يســارع في تحويل الحركة إلى مشــروع مؤسســي. قال هتلر، الذي كان يرعى حركة النازية الوليدة: إن الحركة لا تستطيع أن تمنح أي مزايا في الوقت

(*) تنتشــر ديانــة الشــنتو في اليابان وتقــوم في جوهرها على تقديس الأســلاف على نحو يشــبه العبادة (المترجم)

(1) John Addington Symonds, The Fine Arts, «Renaissance In Italy Series (London: Smith, Elder, And Company, 1906), pp. 19 -20.

facebook.com/ketabme

الحاضر (سوى الشرف والخلود، وحذّر قائلاً: إن الحركة إذا خضعت لأفراد يريدون الاستفادة من الحاضر، فإن مهمتها قد انتهت)[1].

تستمر الحركة، في هذه المرحلة، في اهتمامها بالمحبطين، لا لتستثمر تذمرهم في الصراع حتى الموت مع الحاضر، ولكن لكي تؤقلمهم مع مؤسساتها، وتجعلهم أتباعًا خنوعين مطيعين، وتمنحهم الآمال البعيدة والأحلام والرؤية. هكذا تصبح الحركة، بعد انتهاء مرحلتها الديناميكية، أداة من أدوات القوة للناجحين، ومخدرًا للمحبطين.

(1) Adolph Hitler, Mein Kampf (Boston: Hough Ton Mifflin Company. 1943), p. 105.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

الفصل الثامن عشر

الحركات الجماهيرية النافعة والضارة

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

المرحلة الديناميكية وما يواكبها من فساد وعقم

117

يُعنى هذا الكتاب، أساسًا، بالمرحلة الديناميكية من الحركة الجماهيرية، وهي المرحلة التي يصوغها ويهيمن عليها المؤمنون الصادقون. تنزع الحركات، مهما كان نوعها، في هذه المرحلة إلى إظهار خصائصها المشتركة التي حاولنا تلخيصها. يبدو من الواضح الآن أنه مهما كانت الأهداف الأصلية للحركة نبيلة، ومهما كانت النتائج التي حققتها جيدة، فإن مرحلتها الأولى تبدو لنا غير جذابة، إن لم نقل شرّيرة.

والمتطرّف الذي يطبع هذه المرحلة بطابعه هو نموذج إنساني لا يثير التعاطف. إنه رجل قاسٍ، معتد برأيه، يصدق كل ما يقوله، كثير الجدل، وضيع ووقح. كثيرًا ما يكون المؤمن الصادق على استعداد للتضحية بأقاربه وأصدقائه في سبيل قضيته المقدّسة. إن الوحدة المطلقة والاستعداد التام للتضحية بالنفس اللذين يعطيان الحركة الديناميكية اندفاعها الذي لا يقاوم لا يمكن تحقيقهما، عادة، إلا بالتضحية بأشياء كثيرة جميلة وثمينة هي ما تميز الوجود الفردي للإنسان. لا يمكن لحركة جماهيرية، بصرف النظر عن سمو عقيدتها وأهدافها، أن تحتفظ بطيبتها إذا طالت مرحلتها الأولى، أو إذا بقيت بعد سقوط النظام. وفي الحركات الجماهيرية التي نعدها اليوم جيدة ونافعة كالإصلاح الديني، أو الثورة الإنجليزية، أو الثورة الفرنسية، أو الثورة الأمريكية، وكثير من الحركات القومية خلال القرن التاسع عشر، لم تطل المدة الديناميكية برغم أنها كانت مطبوعة بطابع التطرف الدموي. يعرف قائد الحركة الجماهيرية الذي يخدم شعبه ويخدم الإنسانية، لا متى يبدأ

facebook.com/ketabme

الحركة فحسب، بل يعرف، مثل غاندي، متى ينهي مرحلتها الديناميكية(*).

عندما تحتفظ الحركة الجماهيرية عبر عدة أجيال بالطابع الذي صاغته المرحلة الديناميكية (كما هو الحال مع الكنيسة السلطوية خلال القرون الوسطى) فإن النتيجة ظهور مدة من الجمود وبداية عصر مظلم. لنا أن نقرر، عندما نشاهد مدة من الإبداع الحقيقي مقترنة بالحركة الجماهيرية، أنها تسبق المرحلة الديناميكية، أو على الأغلب تأتي بعدها، عندما تكون المدة الديناميكية قصيرة لا تتميّز بطابع دمويّ مُدمر، فإن نهايتها، خاصة عندما تكون مفاجئة، كثيرًا ما تثير موجة من الإبداع. وتبدو هذه الملاحظة صحيحة، سواء انتهت الحركة بالنجاح أو الفشل. ومدة الإبداع التي تأتي بعد نهاية الحركة النشطة لا علاقة لها بالمبادئ المثالية التي نادت بها الحركة أو ما واكبها من حيوية، بل تعود إلى استرخاء الانضباط الاجتماعي وتحرير الفرد من الجو الخانق، جو الطاعة العمياء واحتقار النفس وازدراء الحاضر. أحيانًا، يصبح الحرص على ملء الفراغ الذي تتركه القضايا المقدّسة التي انتهت أو هجرت حافزًا على الإبداع.

إن المرحلة الديناميكية، نفسها مرحلة فقيرة في الإبداع، أدرك تروتسكي أن مراحل التوتر العالي في مشاعر الجماهير لا تترك مجالًا للتفكير والتأمل. (تعاني حوريات الإبداع، حتى حورية الإبداع الصحفي ذات العظام الصلبة خلال الأوقات الثورية)[1]. فجع كل من نابليون[2] وهتلر بالمستوى الهزيل للأدب والفن المنتجين

(*) يمكن، وفقًا لتحليل المؤلف أن نعدّ الملك عبدالعزيز آل سعود -رحمه الله- قائد حركة جماهيرية ديناميكية وأدرك مع الانتهاء من توحيد المملكة أن المرحلة الجديدة تتطلب الانتقال من الثورة إلى الدولة، فألجم حدة المتطرفين، وانصرف إلى بناء الدولة (المترجم).

(1) Leon Trotsky, The History of the Russian Revolution (New York: Simon And Schuster, Inc, 1932), Preface.

(2) «كتب نابليون إلى قائد الشرطة مستغربًا عدم وجود نهضة أدبية مزدهرة في أنحاء الأمبراطورية وطلب منه العمل على إيجادها، انظر:

Jacques Barzun, of Human Freedom Boston: Little, Brown & Company, 1939), p. 91.

facebook.com/ketabme

في فترتيهمـا البطوليتـين وأرادا إبداعًا عظيمًا يتمشـى مع الأحـداث العظيمة. لم يكـن لديهما أدنى قدر من المعرفة أن الجو الذي يحيط بالحركة الجماهيرية يخنق روح الإبداع ويقضـي عليها. ولنا مثال على ذلك: كان ملتون في سـنة 1640م شاعرًا واعـدًا عظيمًـا، انتهى من تحرير مسـودة عملـه الكبير (الفردوس الضـائع)، ثم أمضى عشرين سنة عقيمة يحرّر الكتيبات غارقًا حتى عنقه (في بحر من الضجيج والجدال الصاخب) خلال الثورة الإنجليزية[1].

118

إن تأثير الحركة الجماهيرية النشـطة على العملية الإبداعية تأثير بعيد المدى يتخذ عدة أشكال:

أولًا: يستنزف التوتر الذي تثيره الحركة الطاقات التي كانت ستتجه إلى العمل الإبداعي. إن التوتر يؤثر في العمل الإبداعي قدر ما يؤثر فيه التهتك والانحلال.

ثانيًـا: تحـط الحركة من قيمة الإبداع الحقيقي وتحل محلـه الأدبيات التي تخدم الحركة. لا بد لكل من الأدب والعلم والفن أن يصطبغ «بالواقعية»، وأن يصبح جزءًا من الدعاية. لا ينتج الكاتب أو الفنان أو العالم، إذا كانوا من المؤمنين الصادقين للتعبير عن النفس، ولا لخلاص الروح، ولا للبحث عن الحقيقة والجمال. مهمة كل هؤلاء أن ينذروا وينصحوا ويناشدوا ويمجدوا ويشجبوا.

ثالثًـا: عندمـا تفتـح الحركة آفاقًـا جديدة تسـتغرق الجهـود (كالحرب أو الاستعمار أو التصنيع) فإن هناك استنزافًا إضافيًا للطاقة الإبداعية.

رابعًا: تكفي حالة التطرف، في حد ذاتها، لخنق كل أشـكال العمل الإبداعي.

---

(1) «John Milton», Encyclopaedia Britannica.

facebook.com/ketabme

يزدري المتطرّف الحاضر كله، ويعمى عما في الحياة من جمال وعمق. تبدو الأشياء التي تثير خيال المبدع في نظر المتطرّف تافهة أو فاسدة. (يجب على كتابنا أن ينتظموا في الطابور العسكري، وكل من يتوقف في الطريق لقطف الزهور يعدّ فارًّا من الخدمة. هذه الكلمات التي قالها كونستانتين سايموتوف تعكس أفكار المتطرّف وكلماته عبر العصور. قال الحاخام جبكوب (القرن الأول بعد الميلاد): (إن الذي يتمشى في الطريق... (ويقطع دراسته للتوراة) قائلًا: (ما أجمل هذه الشجرة!) أو (ما أجمل هذا الحقل...!) يصبح مذنبًا في حق نفسه)[1] كان بوسع القديس برنارد أن يسير طيلة النهار بقرب بحيرة جنيف دون أن يرى البحيرة. وفي كتابه (إبداع الفنون) يروي المؤرخ والفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم قصة الراهب (الذي وجد نافذة في زنزانته تطلّ على منظر جميل، فأخذ على عينيه عهدًا ألا يلتفتا إليها أبدًا). إن عمى المتطرّف يمنحه القوة؛ لأنه لا يرى العقبات في الطريق، ولكنه سبب للعقم الفكري والجفاف العاطفي.

يعتدّ المتطرّف بعقله، ولهذا فهو لا يستطيع أن يبدأ التفكير من جديد. وسبب هذا الاعتداد هو اعتقاده الراسخ أن الحياة، والكون بأكمله تخضع لقانون بسيط هو القانون الذي يؤمن به. وهكذا يصبح المتطرف محرومًا من تلك الفترات المثمرة من البحث العقلي، حيث يكون العقل مستعدًا لجميع ردود الفعل، ومفتوحًا على معادلات جديدة وبدايات جديدة.

(1) Pirke Aboth, The Sayings of the Jewish Fathers (New York: E. P. Dutton & Company, Inc 1929), p. 36.

facebook.com/ketabme

119

عندمـا تظهر الحركة الجماهيرية أي نوع من أنواع الابتكار فهو، عادة، ابتكار في التطبيـق أو في الكمّ. إن المبادئ والأسـاليب والتقنيات التي تسـتخدمها الحركة الجماهيريـة وتسـتغلها هي، عـادة من إنتـاج إبـداع كان، أو لا يزال خـارج دائرة الحركة. تنزع جميع الحركات الجماهيرية إلى التقليد السافر الذي أصبح مرتبطًا في الأذهان باليابانيين، يقلد النازيون والشيوعيون، حتى في حقل الدعاية، أكثر مما يبتكرون، ويسوقون القضـية المقدّسة التي تبنوها كما يسوق المعلن الرأسمالي نوعًا معينًا من الصـابون أو من السـجائر[1]. إن الكثير مما نعدّه جديدًا في الأسـاليب التي يتبعها النازيون والشـيوعيون يجيء من أنهم يديرون (أو يحاولون أن يديروا) أمبراطوريات شاسـعة بالطريقة ذاتها التي يدير بها فورد أو دوبونت أمبراطوريته الصناعية. ولعلّه من الصواب أن نقول: إن نجاح التجربة الشيوعية سيعتمد، دومًا علـى الإبداع الطليق الذي ينبـع من خارج العالم الشـيوعي. يعتقد رجال الكرملين المتبجحون أنهم يظهرون تسـامحًا حين يقولون: إن الرأسـمالية سـتبقى جنبًا إلى جنب مع الشيوعية. والحقيقة أنه لو لم توجد مجتمعات حرة خارج العالم الشيوعي لكان الشيوعيون سيجدون من الضروري إيجادها، ولو بمرسوم من الكرملين.

بعض العوامل التي تحدد طول المرحلة النشطة

120

عندما تسـعى الحركـة الجماهيريـة إلى تحقيق هـدف ملموس مُحـدد، فإن

(1) Eya Lips, Savage Symphony (New York: Random House, 1938), p. 18.

facebook.com/ketabme

مرحلتها الديناميكية تكون، عادة، أقصر منها في الحركة التي تسعى خلف أهداف غائمة وغير واضحة. ولعلّ عدم وضوح الهدف أمر ضروري لنشوء التطرف الدائم. قال أوليفر كرومول: (لا يذهب الإنسان إلى أبعد مدى إلا حين يجهل إلى أين هو ذاهب)[1].

عندما تستهدف الحركة تحرير الأمة من الطغيان، الداخلي أو الخارجي، أو صدّ اعتداء، أو تحديث مجتمع متخلفّ، فمن الطبيعي أن تنتهي مع نهاية الصراع مع العدو، أو إعادة تنظيم المجتمع. من الناحية الأخرى، عندما يكون الهدف إيجاد مجتمع مثالي تسوده الوحدة الشاملة والتضحية بالذات، سواء كان مجتمعًا دينيًّا أو شيوعيًّا أو دولة حربية كدولة هتلر، فإن المرحلة الديناميكية لا تنتهي عند حد. عندما تعدّ الوحدة والتضحية بالنفس أمرين ضروريين لبقاء المجتمع، فإن النتيجة هي (قدسنة الحياة اليومية، أي تحويل القضايا العادية إلى قضايا مقدّسة، أو عسكرة المجتمع.

وفي أيّ من الحالتين سيبقى النمط الذي شهدته المرحلة الديناميكية ثابتًا ودائمًا. كان المفكران جيكوب بيركهارد وأرنست رينان من القلائل الذين تمكنوا في جو التفاؤل الذي ساد النصف الثاني من القرن التاسع عشر من معرفة ما سيجيء في القرن القادم. توقع بيركهارد ظهور المجتمع العسكري: (إن لدىّ هاجسًا يبدو سخيفًا ولكنه يرفض، بإصرار، أن يفارقني.. ما سوف يجيء هو تنظيم متقن ومدروس للشقاء، الذي يتخذ صورة تنظيمات عسكرية وملابس عسكرية،

(1) Quoted By J. A. Cramb, The Origins And Destiny of Imperial Britain (London: John Murray, 1915), p. 216.

facebook.com/ketabme

وأيـام تبدأ وتنتهي بقرع الطبول العسـكرية»[1] أما رينان فتنبأ بما هو أبعد. شـعر أن الاشـتراكية سـتكون دين الغرب القادم، وبما أنها سـتكون علمانية فسوف تكون النتيجة إضـفاء طابع القداسـة على السياسة والاقتصـاد، كما أنه خشي من قيام صـحوة كاثوليكية تقـف في وجه الدين الجديـد: (لا بد أن ترتجـف خوفًا. في هذه اللحظـة، ربما يصـاغ دين المسـتقبل، دون أن يكون لنـا أي دور في صـياغته... إن للسذاجة جذورًا عميقة. وقد تجلب الاشتراكية معها، بتواطئ مع الكاثوليكية، قرونًا وسـطى جديدة، يجيء معها البرابرة والكنائس وتشـهد غـروب الحرية والفردية، وباختصار غياب الحضارة بأسرها)[2].

121

نلاحـظ أنه عندما كانت هناك محاولات لإيجـاد مجتمع مثالي كانت المحاولة تتم على نطاق شاسـع وتشـمل شـعوبًا غـير متجانسـة، كما كانت عليـه الحال في الثورات الفرنسـية والروسية والنازية. يبدو أنه عندما تتم المحاولة من جانب دولة صـغيرة، وفي وجود شـعب متجانس، فإن النتائج لا تكون مأساوية. إن خوف الدولة الصـغيرة من تبديد رأسـمالها البشـري الصـغير، وحاجتها الملحّة إلى الانسجام والتآخي، وشعور أبناء الشعب أنهم ينتمون إلى أسرة واحدة - كل هذه عوامل تجعل قيام تعاون تام بين النـاس أمرًا ممكنًا دون اللجوء إلى (القدسـنة) أو (العسكرة). ويحسـن الغرب صنعًا لو ترك المجال للدول الصغيرة المتجانسة المتحضرة وحدها، لتقوم بتجربة النظريات الاجتماعية الجديدة. إن فكرة النموذج الصغير للمصنع،

(1) Quoted by James Hasting Nicholas In His Introduction To the English Translation of Jacob c. Burck Hardt's Force and Freedom (New York: Pantheon Books, 1943), p. 40.

(2) Ernest Renan, History of the People of Israel (Boston: Little, Brown & Company, 1888-1896) vol v. p. 360.

facebook.com/ketabme

التي يستفاد منها في عمليات التصنيع الكبيرة يمكن أن يستفاد منها في التطور الاجتماعي. ولا يجب أن نستبعد فكرة مجتمعات صغيرة ترسم الطريق أمام الغرب، فقد كان هذا هو النمط السائد عبر مدة طويلة. تلقّى الغرب من الدول الصغيرة في الشرق الأوسط واليونان وإيطاليا الديانة والمكونات الرئيسة لحضارته وثقافته.

وهناك، على ما يبدو علاقة أخرى بين نوعية الجماهير وطبيعة الحركة الجماهيرية النشطة ومدّتها. إننا أمام حقيقة تقول: إن اليابانيين والروس والألمان الذين سمحوا لحركة جماهيرية نشطة بالبقاء دون أي مقاومة كانوا مهيئين نفسيًّا للخضوع والانضباط الحديدي عبر عدة أجيال قبل ظهور الحركة الجماهيرية. كان ستالين مدركًا تمام الإدراك أن استعداد الجماهير الروسية للطاعة كان خير معين له: (كيف نستطيع أن نقارن - قال لينين بصوت مرتفع - جماهير أوروبا الغربية بجماهيرنا الصابرة المتعودة على الحرمان؟)[1] إن كل من يقرأ ما قالته الكاتبة السويسرية الفرنسية مدام دي ستايل عن الألمان قبل أكثر من نصف قرن يدرك أنهم كانوا المادة الخام المثالية لحركة جماهيرية دائمة: (يحب الألمان الخضوع بشدة. ويلجؤون إلى نظريات فلسفية؛ لكي يبرّروا شيئًا لا علاقة له بالفلسفة: احترام القوة والخوف الذي يحوّل هذا الاحترام إلى إعجاب)[2].

لا يمكن القطع أنه لم يكن بوسع هتلر أو ستالين الظهور في دولة تملك تراثًا طويلًا من الحرية. ما يمكن قوله بلا تردد: إنه في دولة كهذه ربما كان بوسع هتلر أو ستالين الظفر بالسلطة، إلا أنه لم يكن بوسع أي منهما الاحتفاظ بها حتى النهاية.

(1) Angelica Balaban off, My Life As Rebel, (New York: Harper and Brothers, 1938), p. 281.

(2) Quoted by w. R. Ngc, «Patriotism» Nineteen Modern Essays, Ed. W.A. Archbol d (New York: Longmans, Green, & Company, 1926) p. 213.

facebook.com/ketabme

إن أي تغيير إيجابي في الأوضـاع الاقتصادية سـيؤدي -بلا شك- إلى إحياء تقاليد الحرية، وتقاليد التمرد. ليس للفرد الذي يقاوم سـتالين في روسيا أي انتماء يلوذ به ممـا يجعل قدرته على مقاومة القمـع معدومة، إلا أن الفرد في المجتمعات التي تنعم بتراث من الحرية، عندما يقاوم القمع لا يشـعر أنه خليّة آدمية منعزلة، وإنما جزءٌ من شعب كامل، ومن أسلافه المتمردين.

122

إن شخصـية القائـد، علـى الأغلب، عامل حاسـم في تحديـد طبيعة الحركة الجماهيريـة ومدتهـا، إن القـادة النادريـن مثـل لنكولـن وغانـدي لم يكونوا على اسـتعداد لإيقاف الشـر المتأصل في الحركة الجماهيرية فحسـب، بل كانوا راغبين في إنهـاء الحركة مجرد تحقيق هدفها. هؤلاء القادة من القلة التي يصـدق عليهم القول: إن (السـلطة منحتهم عظمة وسـخاء في الروح)[1]. ومن الناحية الأخرى، نجـد أن عقلية سـتالين البدائية وقسـوته القبليـة كانتا عاملين رئيسـين في إطالة المرحلـة الديناميكية من الحركة الشـيوعية. من العبث أن نحاول التكهن بمصـير الثورة الروسية لو طال الأجل بلينين عقدًا أو عقدين.

يشعر المرء أن لينين لم يكن ينطوي على روح همجية، كالتي ظهرت بوضوح مع هتلر وستالين، تلك الروح التي تجعل البشر كما قال الفيلسوف اليوناني هيركالبتس: (شـهودًا أشـرارًا على أمثال البشـر). صـاغ سـتالين خلفاءه على مثاله، وبإمكان الشـعب الروسـي أن يتوقع نوعية القيادة نفسـها خلال العقـود القادمة. أدّى موت كرومـول إلى انتهـاء الثورة الإنجليزيـة، كما أدّى موت روبسـبير إلى نهاية المرحلة

(1) John Maynard, Russia In Flux (London: Victor Gollancz, Ltd, 1941) p. 29.

facebook.com/ketabme

الديناميكية من الثورة الفرنسية. لو مات هتلر في منتصف الثلاثينيات لتعرضت النازية، تحت قيادة جورنج، لتغييرات رئيسة في مسارها، ولكان بالإمكان تفادي قيام الحرب العالمية الثانية. إلا أنه من الناحية الأخرى ربما استطاع ضريح هتلر مؤسس الديانة النازية، أن يثير من الشرور ما يفوق بكثير فظائع الحرب العالمية الثانية والدمار الذي سببته.

123

تؤثر الطريقة التي تبدأ بها الحركة الجماهيرية في مدتها وكيفية انتهاء مرحلتها الديناميكية. عندما نرى أن حركة الإصلاح البرتستانتي والثورة الإنجليزية والثورتين الأمريكية والفرنسية و كثيرًا من الثورات الوطنية انتهت، بعد مدة ديناميكية قصيرة، بنظام اجتماعي يتميز بالمزيد من الحريات الفردية، فإن لنا أن نرجع السبب إلى تحقيق المثل والأهداف التي سادت خلال المرحلة الأولى من المرحلة. بدأت جميع هذه الحركات بتحد ي نظام قائم مستقر وإزاحته. تمت إزاحة النظام بسرعة، وبقيت ذكرى الأيام الأولى للحركة حيّة في أذهان الناس، ولهذا كانت النتيجة النهائية ظهور الحريات الفردية. وعلى النقيض، لم يكن هناك هدف محدد يتجه إليه التحدّي عند ظهور المسيحية، لم تبدأ بإزاحة ملك، أو نظام، أو دولة، أو كنيسة. كان هناك قديسون، ولكنهم (لم يكونوا ثوارًا يتحدون سلطة قائمة باسم شعوب العالم كلها)[1]، ولهذا السبب، ربما، ظلّ النظام السلطوي الذي أدخلته المسيحية قائمًا بلا تحدٍّ عبر ألف وخمس مئة سنة. ولم يكن تحرير العقل المسيحي الذي تم في نهاية الأمر مستلهمًا من الأيام الأولى للمسيحية، ولكن

(1) Sir J. R. Seeley, Lectures and Essays (London: Macmillan, 1895), p. 81.

facebook.com/ketabme

مـن نماذج الاسـتقلال المثيرة في التاريـخ اليوناني/ الرومـاني. والقومية الألمانية، بدورهـا، على خلاف القوميات في معظم الدول الغربية، لم تبدأ بعمل مثير يتحدى السـلطة القائمة، بل انطوت منذ بدايتها تحت جناح الجيش الروسـي. تجلت بذرة الحريـة الفرديـة في ألمانيا في الثورة البروتسـتانتية لا في القومية. من ناحية أخرى بدأت حركة الإصـلاح البروتسـتانتي، والثورات الأمريكية والفرنسـية والروسـية، ومعظـم الحركات الوطنية، بتحدٍّ مثير مذهل عبَّر عنـه الأفراد، وظلت ذكراه حية في العقول.

وبهذا المعيار، فعودة الحريات الفردية في روسيا ليست بالأمر المستحيل(*).

حركات جماهيرية نافعة

124

يبدو الرجال الذين لا يعتنقون قضايا مقدّسة في عيون المؤمنين الصادقين رجالًا يفتقرون إلى الصـلابة والشخصية مسـتعدين لاتباع الرجال المؤمنين. ومن ناحية أخرى، يشـعر المؤمنون الصـادقون من كل الأطياف بقوة خصـومهم ويحترمونهم برغم ما يشـعرون به نحوهـم من كراهية وبرغم اسـتعدادهم للاشـتباك معهم. اعتبر هتلر الشـيوعيين أندادًا له وأعطى تعليمات بضـم الشـيوعيين السابقين إلى الحزب النازي بلا تردد. كما رأى ستالين، بدوره، أن الألمان واليابانيين هما الأمتان الوحيدتان الجديرتان بالاحترام. يقول دسـتو فيسـكي على لسـان الأسقف يتهون: (إن الإلحاد الواضح جدير بالعناية والاهتمام أكثر من مجرد التشكك... إن الملحد

(*) غنيّ عن الذكر أن نبوءة المؤلف تحققت بانهيار النظام الشيوعي في روسيا (المترجم).

facebook.com/ketabme

الحقيقي قد لا تفصل بينه وبين الإيمان سوى درجة واحدة... أما المتشكك الذي لا يعبأ بشؤون العقيدة فلا يوجد لديه أي نوع من أنواع الإيمان، بل يوجد الخوف المفرط)[1].

كل المؤمنين الصادقين في أيامنا، سواء كانوا شيوعيين، أو نازيين، أو فاشيين، أو يابانيين أو كاثوليكًا، أدانوا في الماضي (والشيوعيون حتى الوقت الحاضر) خواء الديمقراطيات الغربية اتهموا الشعوب الديمقراطية بالترف والشغف بالملذات والأنانية على نحو أفقدها القدرة على الموت في سبيل الأمة أو الله أو القضية المقدّسة. يصور هذا العزوف عن التضحية على أنه دليل على تفسخ من الداخل، على انحلال أخلاقي وجسدي. وتصور الديمقراطيات الغربية على أنها كيانات قديمة فاسدة ومنحلة. والنتيجة هي أن الديمقرطيات عاجزة عن أن تهزم جموع المؤمنين الصادقين المستعدين للعمل الجماعي والموت، والتي توشك أن ترث الأرض.

في هذه الاتهامات قليل من الحق وكثير من الباطل. إن الاستعداد للعمل الجماعي والتضحية بالنفس خصيصتان من خصائص الحركة الجماهيرية، كما أوضحنا فيما سبق. من ناحية أخرى، تتكون الديمقراطيات، في الظروف الطبيعية، من أنظمة مؤسسية تضم أفرادًا أحرارًا على نحو أو آخر. إلا أنه عندما يتعرض وجود الدولة الديمقراطية للخطر ويجب عليها أن توحّد شعبها وتغذي فيه روح التضحية بالنفس، فإنها تتحوّل إلى كيان يشبه الكنيسة المتشددة أو الحزب الثوري. وعملية «القدسنة» هذه لا تحمل معها، برغم بطئها وصعوبتها، تغييرات جذرية عميقة. حتى المؤمنون

(1) Fedor Dostoye vsky, The Possessed, Modern Library Edition (New York: Random House 1936) p. 698.

facebook.com/ketabme

الصادقون لا يزعمون أن انحلال الديمقراطيات انحلال عضوي دائم. كانت ألمانيا طبقًا للمحللين النازيين، منحلة في العشرينيات، وعادت إلى العنفوان في الثلاثينيات. لا شك أن عقدًا واحدًا لا يكفي لإحداث تغييرات بيولوجية أو ثقافية جذرية في شعب من الملايين.

يبقى من الصحيح، مع ذلك، أن القدرة على إيجاد حركة جماهيرية في وقت قصير، في مدة كفترة هتلر، أمر بالغ الأهمية. إن قدرة القائد في المجتمع الديمقراطي على «قدسنة» القضايا أمر ضروري، حتى عندما لا تظهر الحاجة إلى ممارسة «القدسنة» فعليًا. ولعله من الصحيح أيضًا أن الفكر الفلسفي المتعمق، أو الواقعية التي يتصف بها رجال الأعمال، تحول بين الإنسان وبين موقع القيادة الوطنية. بالإضافة إلى هذا، قد تكون هناك صفات معينة في المجتمع الديمقراطي تسهّل عملية «القدسنة»، وتطلق العنفوان الوطني. لا يمكن قياس العنفوان في أمة ما إلا بقياس مخزون تطلعاتها. وما قاله هيركاليتس: (ليس من صالح البشر أن يعطوا جميع ما يطلبونه) ينطبق على الدول، كما ينطبق على الأفراد. يضعف عنفوان الأمة عندما تكف عن التطلع بلهفة إلى أشياء تريدها وتكف عن توجيه طاقاتها إلى أهداف ملموسة محددة. لا تبقى الأمة في حالة عنفوان دائم إلا وهي تسير خلف هدف يقود بدوره إلى هدف جديد، حتى عندما تكون قد أشبعت حاجاتها المادّية.

ليس من الضروري أن يكون الهدف ساميًا. إن التطلع إلى ارتفاع مستمر في مستوى المعيشة هو الذي حفظ للأمة الأمريكية عنفوانها. عندما يكون الهدف متواضعًا، ويصبح الإنجاز المطلوب نموذج (الجنتلمان الريفي) في بريطانيا و(المالك المتقاعد) في فرنسا، فإنه يصعب الاحتفاظ باندفاع الأمة وحيويتها. من الناحية الأخرى، فالأهداف المتجددة غير المحددة، تبقي الاندفاع قائمًا في دول مثل أمريكا وروسيا وألمانيا.

facebook.com/ketabme

125

يمكـن للحركة الجماهيرية، كما سـبقت الإشـارة، أن تكون عاملًا في نهضـة مجتمـع جامد وتحديثـه. وبرغم أنه لا يمكن القول: إن الحـركات الجماهيرية هي الوسيلة الوحيدة لإحياء المجتمع، فإنه قد يكون من الصحيح في المجتمعات الكبيرة غير المتجانسـة مثل روسـيا والهنـد والصـين أن عملية الإحياء تعتمـد على وجود حماسة متدفقة بين أفراد المجتمع قد لا تتوافر في غياب الحركة الجماهيرية.

وعندما يكون من الضروري أن يتم التحديث في مدة زمنية قصيرة، فقد تكون الحـركات الجماهيرية ضـرورية حتى في المجتمعات الصـغيرة المتجانسـة. وهكذا يمكـن أن يكون العجز عن إيجاد حركة جماهيرية في ظروف معينة عيبًا في النظام الاجتماعي. ولعلّه من سـوء حظ الصـين أن حركتيهـا الجماهيريتين خلال القرن الأخير (تمرد تايبنـج وثورة سن يات سن) تبعثرتا أو قضى عليهما في وقت مبكر. لم تستطع الصين أن تنتج قائدًا مثل ستالين أو غاندي، أو حتى مثل أتاتورك، يستطيع الإبقاء على حركة جماهيرية مدة تكفي لتحقيق الإصلاحات المنشودة. ويرى المفكر الأسـباني أورتيجا يا جاسـت أن عدم قدرة دولة ما على إنتاج حركة جماهيرية قد يرجع إلى أسـباب عرقية. يقول أورتيجا عن وطنه أسـبانيا: (كان الذكاء الأسباني الجماعي، دومًا، قاصرًا ولم يتح له أن ينمو نموًا طبيعيًّا)[1](*).

(1) Jose Ortega Y. Gasset, The Modern Theme, (New York: w. w. Norton & Company, 1931) p. 128.

(*) أسـتغرب ملاحظة المفكر الأسباني ومؤلف الكتاب، حول عدم قابلية العرق الأسباني لاحتضان حركة جماهيرية، فقد كان كل من اليسـار واليمين اللذين اشـتبكا في الحرب الأهلية الأسبانية، التي بدأت في سنة 1936م، يشكل حركة جماهيرية حقيرة (المترجم).

facebook.com/ketabme

قد يكون التحرك الشعبي الحقيقي عملية نهضوية تحديثية عندما تترك الحكومات لتموت موتًا طبيعيًّا بطيئًا فإن النتيجة، عادة، هي الجمود والتفسخ على نحو قد لا يمكن علاجه. وبالنظر إلى أن رجال الكلمة يؤدون دورًا كبيرًا في قيام الحركة الجماهيرية، كما سبق أن رأيت، فإن وجود أقلية متعلمة تستطيع التعبير عن نفسها أمر ضروري لاستمرار الحيوية في المجتمع.

سبق أن ناقشنا التأثير الثوري للمؤسسات التعليمية التي أقامتها الدول الغربية المستعمرة – وللمرء أن يتساءل: هل لظهور قادة مثل غاندي ونهرو أسباب تتعلق بطبيعة المجتمع الهندي، أو أن السبب، وهذا ما أرجحه، حول طول بقاء الاستعمار البريطاني. يبدو أن النفوذ الأجنبي عامل مهم في حركات الإحياء الوطني. نلاحظ خلال نهضة أوروبا من جمود القرون الوسطى تأثيرات أجنبية مهمة يونانية/رومانية، وعربية. وكان النفوذ الغربي عاملًا حاسمًا في نهضة روسيا واليابان وعدد من الدول الآسيوية. والنقطة المهمة هنا هي أن التأثير الأجنبي لا يعمل بطريقة مباشرة. لا يكفي دخول أشياء أجنبية مثل الموضات والعادات وطرق التفكير والتصرف.

إن التأثير الحقيقي للنفوذ الأجنبي يتجلى في إيجاد أقلية متعلمة لم تكن موجود من قبل، أو في حرمان أقلية مؤثرة موجودة من مزايا النظام القائم. هذه الأقلية المؤثرة هى التي تبدأ عملية الإحياء بإطلاق حركة جماهيرية. إن التأثير الأجنبي، بعبارة أخرى، هو الحلقة الأولى من العملية، أما الحلقة الأخيرة فتتخذ، عادة، شكل حركة جماهيرية. وهذا ما حدث في أوروبا: سهّل التأثير الأجنبي اليوناني/الروماني والعربي ظهور رجال كلمة لم يكن لهم ارتباط بالكنيسة، وأبعد عددًا من رجال الكلمة التقليديين من معسكر النظام الكاثوليكي القائم. كانت النتيجة حركة

facebook.com/ketabme

الإصـلاح البروتستانتي التي أيقظت أوروبا من غفوتها. وفي روسيا أدى النفوذ الغربي (الذي يشـمل النظرية الماركسـية) إلى زعزعة ولاء المثقفين للنظام القيصـري وإلى الثورة البلشـفية التي لا تزال تحكم الأمبراطورية الشـيوعية. أما في اليابان فلم يؤثر النفوذ الأجنبي على رجال الكلمة، وإنما على مجموعة اسـتثنائية من الرجال، منهم الأمبرطور ميجي والمحيطون به.

امتلـك هؤلاء الرجـال العمليون الواقعيون، الرؤية التي افتقـر إليها بيتر الكبير، برغم أنه كان بدوره من الرجال العمليين الواقعيين، ولهذا نجحوا حيث فشل هو. أدرك هـؤلاء القـادة اليابانيون أن مجـرد إدخال العادات والآلات الأجنبية لن يغير مسـيرة الحياة في اليابان ولن يدفعها إلى التخلّص من التخلف الذي سـيطر عليها عبر قرون طويلة. أدركوا أن (القدسـنة) عملية لا بد منها في هذه المحاولة النهضـوية الشاملة، ولهـذا أطلقوا واحدة مـن أكثر الحـركات الجماهيرية فاعلية في العصـور الحديثة. أشـرنا في أماكـن عديدة من هذا الكتاب إلى شـرور هذه الحركـة، ومع ذلك فإن من المشـكوك فيه أن أي وسـيلة أخرى ذات طبيعة مختلفة كانت تستطيع إنجاز التحديث المذهـل الذي حققته اليابـان. وفي تركيا، بدورها، أثر النفـوذ الأجنبي على أتاتورك، الذي كان من الرجال العمليين، وكانت النتيجة النهائية نشوء حركة جماهيرية.

يعدّ المفكر ج.بي.س هالدين التطرف ضمن أربعة مخترعات بالغة الأهمية فيما بين سنتي 3000 ق.م و1400م [1] ويعدّه اختراعًا يهوديًّا/ مسيحيًّا.

ومـن الغريـب أن هـذا الداء النفسـي المخيـف، قد يتحـول، في سـياق حركة جماهيرية إلى عامل يستطيع إيقاظ المجتمعات من الركود وتحديثها.

(1) J. B. S. Haldane, The Inequality of Man (New York: Famous Books, Inc, 1938), p. 49.

facebook.com/ketabme

facebook.com/ketabme

المؤمن الصادق:

«إذا أردت معلومات صحيحة مختصرة عن الدوافع التي تعمل في عقول المتعصبين وعن آليات الحركات الجماهيرية في أشد مستوياتها البدائية فأقترح عليك أن تقرأ هذا الكتاب».

وول ستريت جورنال

@ketab_n
Follow Me
ketab.me
Best Books

بينما كان إيريك هوفر يعمل على أرصفة تحميل السفن وتفريغها في سان فرانسيسكو في الأربعينيات من القرن الماضي، كان يشغل وقت فراغه في كتابة البحوث الفلسفية، وهذا الكتاب (المؤمن الصادق) هو أول كتبه وأهمها، وقد قفز إلى قائمة أفضل الكتب مبيعاً، عندما استشهد به الرئيس أيزنهاور في إحدى ندواته التلفزيونية.

إن الكتاب لا يزال منسجماً تمام الانسجام مع ظروف العالم اليوم، وهو ضروري لفهم مجريات الأحداث فيه: إذ يقدم صورة مثيرة للعقل المتعصب، ودراسة عميقة للطريقة التي يتحول بها الإنسان ليصبح متطرفاً.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة KALIMA
الانتشار العربي
العبيكان Obeikan Research & Development
ISBN 978-9948-01-667-0
9 789948 016670